الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثة . السنة التاسعة . أغسطس ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 103 - August 2007

القاهرة: ٢٠٥٠
دعوة للحوار..
مدينة
«المدن المغلقة»

فى ذكراه الأولى:
هل كان محفوظ حقاً
«بلزاك العرب»

حماس..
هل تعلم الغرب
الدرس؟

أمريكا
والإسلاميون:
القيم مقابل
المصالح

مزالى وبورقيبة:
دسائس القصر

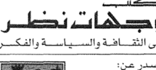
نازك الملائكة:
أوراق لم تنشر

حرية
المعلومات:
الفريضة الغائبة

حلمى التونى 2007

السنة التاسعة
العدد المائة وثلاثة
أغسطس ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى



وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي





رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إيريك دينيس.. باحث جغرافى فى المركز الوطنى للبحث العلمى فى باريس. له مؤلفات حول الحياة الاجتماعية لسكان القاهرة والتطور العقارى فيها.
- أليستر كروك.. ضابط مخابرات بريطانى سابق ومستشار خافيير سولانا المنسق الأعلى الأوروبى حول الشرق الأوسط.
- جمال محمد غيطاس.. صحفى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- رافيل بالنسيا.. باحث فى جامعة سابيا الاسبانية.
- عاطف أبو سيف.. باحث فلسطينى متخصص فى العلوم السياسية والاجتماعية.
- محمد الغالى.. أستاذ العلوم السياسية ـ جامعة القاضى عياض. كلية الحقوق مراكش.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد مزالى.. الوزير الأول للجمهورية التونسية الأسبق.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع ـ جامعة تونس.
- محمود عبدالوهاب.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

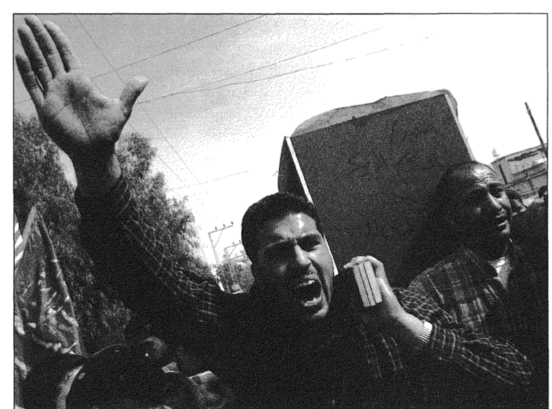
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO ٦ - United Kingdom £ ٣ - USA $ ٥.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



كمنسق خاص للأمم المتحدة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كتب الفارو دى سوتو يقول من الواضح أن الولايات المتحدة دفعت باتجاه مواجهة بين فتح وحماس

لم نتعلم الدرس!

أليستر كروك

«الوضع فى غزة خطر، والخطر هو أن تستولى حماس على غزة وتحولها إلى (حماستان) أى مملكة لقطاع

Hamas: Unwritten Chapters
(حماس: صفحات لم تكتب بعد)
Azzam Tamimi
Hurst, 344pp., £14.95

Where Now for Palestine: The Demise of the Two-State Solution
(فلسطين إلى أين: انتهاء حل إقامة الدولتين)
Jamil Hilal
Zed, 260PP., £17.99

Failing Peace: Gaza and the Palestinian-Israeli Conflict
(السلام الفاشل.. غزة والصراع الفلسطينى - الإسرائيلى)
Sara Roy
Pluto, 379PP., £16.99

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

الطرق والقتلة والإرهابيين والفقر واليأس». هذا كان رد فعل افرايم سنيح نائب وزير الدفاع الإسرائيلى على سيطرة حماس على عدد من المؤسسات الأمنية المهمة فى غزة فى الأيام السابقة على ١٤ يونيو حين حل محمود عباس رئيس السلطة الفلسطينية وقائد فتح، حكومة الوحدة الوطنية. ولكن رغم كل ما قالته وسائل الإعلام، فإن هذه ليست «حربا أهلية»، وحماس لا تتكون من (عصابات خارجة عن سيطرة قادتها). لقد كان إجراء حماس يهدف إلى إزالة تأثير أحد أجهزة الأمن التابعة لفتح، وهى الميليشيا التى يقودها محمد دحلان، مستشار الأمن القومى لعباس. لقد أصرت حماس أن هذا ليس صراعا شاملا مع فتح وكان من الملاحظ أن العنف الأخير لم يستهدف قوات الأمن الفلسطينية - أى «الجيش» الفلسطينى - ولا الشرطة فى غزة.

يكمن أساس تصرف حماس فى غزة، فى رد فعل المجتمع الدولى وفتح لنصر حماس الكاسح فى الانتخابات البرلمانية فى يناير ٢٠٠٦ . فقد كانت فتح، وهى منظمة ياسر عرفات، ترى نفسها المؤسس للسلطة الفلسطينية. هى تعتقد أنها الحزب الطبيعى للحكومة وقد ناضلت طويلا مع الجيران العرب لترسخ نفسها كمرادف لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولذلك، فهى «الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى». ولم يستطع البعض من داخل فتح الإقرار بفقدانهم السلطة أو التسليم بالزعم، على أساس نتائج الانتخابات، إن الشعب الفلسطينى اختار حزبا إسلاميا ليمثله. وفى هذه المرحلة الحرجة، تدخلت الرباعية الدولية: ضغطوا على الرئيس عباس ليتمسك بالسلطة وألا يخضع لحماس، واعدين بدعمه إذا تمكن من ذلك.

ولم يكن على عباس أن يمتنع عن تسليم السيطرة الأمنية للحكومة (حكومة حماس) ووزير داخليتها كما يتطلب الدستور، فقط، ولكن الرباعية الدولية طالبته أيضا أن ينتزع السلطات من الحكومة الجديدة ويضمها إلى صلاحيات الرئاسة: فالمسئوليات المالية تنتزع من وزارة المالية، ومرتبات مسئولى الحكومة ستدفع من مكتب الرئيس. وكل القرارات الأمنية الرئيسية سوف تحدد بقرار رئاسى. كان يجب ترك الحكومة بلا قوة أو سلطة. وكما يكتب عزام التميمى فى (حماس: صفحات لم تكتب) «لم تعد تحت إمرة حكومة حماس قوة شرطة، ولم يكن لديها سلطة على عبور الحدود».

فى نفس الوقت فرض الغرب عقوبات مالية وعزلة سياسية على الحكومة مصرين على التعامل التجارى وتحويل التمويل حصريا من خلال عباس. باختصار، بدلا من مساعدة فتح خلال الانتقال وتدعيم الوحدة الفلسطينية - والاستفادة من التغيير الحقيقى لاحتواء حماس وهى منظمة إسلامية معتدلة - تبنى المجتمع الدولى سياسة عدوانية للتقسيم الداخلى حيث رسخوا ظروفا تمهد للعنف الأخير فى غزة. ربما يعتصر الأوربيون الآن أياديهم لما يرونه على شاشات التليفزيون ولكن السياسة الأوروبية، بالتنسيق مع الولايات

لم يكن على عباس أن يمتنع عن تسليم السيطرة الأمنية للحكومة (حكومة حماس) ووزير داخليتها كما يتطلب الدستور، فقط، ولكن الرباعية الدولية طالبته أيضا أن ينتزع السلطات من الحكومة الجديدة ويضمها إلى صلاحيات الرئاسة



المتحدة، تتحمل عبء جزء كبير من مسئولية ما حدث.

كما اختارت الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية منها بريطانيا، تمويل وتدريب وتسليح جهاز أمن يقوده محمد دحلان، الذى يشك الكثير من الفلسطينيين، بحق، أنه يُهيأ ليكون (الرجل القوى) الذى سوف يصل إلى الرئاسة ويعيد فتح إلى السلطة. كان الهدف الأقصى من بناء ميليشيا فتح بقيادة دحلان هو مواجهة حماس عسكريا والفوز. وكان المسئولون الأمريكان يأملون فى هذه الأثناء تمكين فتح من الإطاحة بحماس من السلطة. بكلمات أخرى، تشجيع انقلاب سلس ضد الحكومة. وقد جاء فى وثيقة استراتيجية أعدتها إحدى الدول العربية المعتدلة فى التحالف الأمريكى وقد وزعت على الفلسطينيين فى مارس ٢٠٠٧، إن هدف الولايات المتحدة هو أن يحل عباس حكومة حماس فى أغسطس. وكانت الرباعية الدولية قد صادقت على هذه الخطط مبدئيا. إن الدعم الذى يقدمه الأمريكان والأوروبيون لفتح كبير ويصل إليها بعدة طرق: من خلال المنظمات غير الحكومية ووكالات التنمية، ومن خلال مبادرات الإصلاح التى تعلنها فتح، ومن خلال برامج تطوير الشباب. ومن خلال مشاريع الإعلام والأهم من ذلك من خلال برنامج واسع يهدف إلى تجنيد وتدريب وتسليح وتمويل الكوادر الأمنية لفتح. ويتصدر جهاز دحلان هذه الكوادر. بالإضافة إلى أن كل عقد مع منظمة غير حكومية كان يتضمن مادة أضافتها الوكالة الأمريكية للتنمية (usaid) تتطلب من المنظمة أن تتعهد بعدم «المشاركة فى أنشطة مع جماعات تعتبر إرهابية».

فى تقريره النقدى القاسى الذى كتبه قبل استقالته فى مايو كمنسق خاص للأمم المتحدة لعملية السلام فى الشرق الأوسط، كتب الفارو دى سوتو يقول «من الواضح أن الولايات المتحدة دفعت باتجاه مواجهة بين فتح وحماس، إلى حد، أنه قبل أسبوع من اتفاق مكة - حيث التقى الفصيلان فى فبراير وتحت رعاية الملك عبد الله واتفقا على حكومة وحدة - عبر الموفد الأمريكى مرتين فى اجتماع الموفدين فى واشنطن عن «حبه لهذا العنف»، مشيرا إلى نذر تفجر حرب أهلية فى غزة سوف يقتل ويصاب فيها مدنيون، وكان مبرره هو «أنها تعنى رفض الفلسطينيين الآخرين لحماس» هذا الوضع هو الذى دفع حماس إلى إجراء وقائى. ومع رفض فتح المفاوضة على سلطة الحكومة على الأجهزة الأمنية بموجب الدستور، ومع بناء ميليشيا دحلان، تحركت الذراع العسكرية لحماس للاستيلاء على كل المواقع المهمة المرتبطة بدحلان ورفاقه فى غزة. وبعد الهيمنة الكاملة، أصبحت الحكومة المنتخبة الآن فى وضع يتيح لها توفير الأمن فى غزة.

هناك ثمن لا بد من دفعه بطبيعة الحال، ولكن لا علاقة له بالأضرار بما يسمى (توقعات السلام) إذ لم يكن هناك عملية سلمية. وفى رأى معظم الفلسطينيين، هناك أمل ضئيل فى السلام. على العكس من ذلك، تتهيأ قيادة حماس - مثل رفاقهم فى حزب الله - لصيف طويل ساخن من صراع إقليمى محتوم. إن الثمن الحقيقى لمبادرة حماس العسكرية ضد ميليشيا دحلان هى إضعاف فصيل مهم من فصائل فتح، كان لبعض الوقت، لا يشعر بالراحة من انحياز دحلان وفتح للمصالح الأمريكية والإسرائيلية وكان - حتى الآن - يدعو إلى تعاون حقيقى بين فتح وحماس. ولكن الآن بعد أن تعرضت فتح للإذلال، فإن أصحاب هذا الفصيل لن يكونوا بمزاج يساعدهم على دعم من يتحدث عن شراكة فاعلة مع حماس. فأن ينظر إليك إخوانك الفلسطينيون على أنك عميل غربى شىء سيئ، ولكن أن تعتبر عميلا غربيا فاشلا فهو شىء أسوأ.

من المبكر جدا الحكم، ولكن من الممكن أن يعتبر المسلمون خارج فلسطين تصرف حماس حدثا مهما بأهمية نتيجة حرب إسرائيل - حزب الله فى يوليو الماضى. وقد نرى فى الأسابيع القليلة القادمة بدايات جهود للوساطة من قبل دول عربية أخرى، فى محاولة لتشكيل حكومة وطنية جديدة فى فلسطين. إذا حدث هذا، فإن قضية الأمن قد تقررت فعلا: لقد أرست حماس الحقائق على الأرض. ولكن يمكن توقع استمرار مقاومة الأمريكان والأوروبيين لأى تحول فى التدبير السياسى الذى يخططون له. ما يريدونه، ويظلون متمسكين به، هو العودة إلى الوضع القائم قبل أوسلو، رغم أنه لم يعد موضع قبول الآن. ولكن فى محاولة لضمان بقاء فتح فى السلطة، يخاطرون بأحداث الفتنة والعنف المتجدد وتفتيت الوحدة السياسية الفلسطينية لسنوات قادمة.

إن السلام مع إسرائيل، إذا قدر له أن يكون، لا يمكن أن يبنى على تفتيت الوحدة الفلسطينية والصراع الداخلى.

وقد ساهمت أفعال المندوبين الأمريكيين السابقين مثل الجنرال زينى وجورج تينيت - فى تفاقم الفرقة. لم يتعلموا الدرس. إن ما فعله الرئيس عباس من حل للحكومة فى ١٤ يونيو وإعلانه حكومة طوارئ - وهما قراران مشكوك فى شرعيتهما - قد قضى على ما تبقى من الوحدة الفلسطينية. وقد فعل ذلك فى لحظة كانت حماس، مثل الحركات الإسلامية المعتدلة فى المنطقة، تحاول التعامل مع من يحاول دفعها إلى التطرف مع انتشار الجدل حول قيمة المشاركة فى الانتخابات.

لم يكن ممكنا للغرب أن يختار وقتا أسوأ من هذا لإظهار فتح على أنها عميل يعتمد على التمويل الغربى والتواطؤ الإسرائيلى للتعويض عن الدعم الشعبى الذى تفتقده. كتبت أوسع صحيفة عبرية وهى يديعوت أحرونوت فى ١٤ يونيو بأنه «فى نابلس وجنين والخليل ورام الله تسيطر ألوية فتح الأقصى بفضل أجهزة الأمن الإسرائيلية التى كانت تعتقل كل من تشم فيه رائحة حماس ولو من بعيد».

وبالحكم من خلال تصريحاتهم العلنية، يتجاهل صانعو السياسة الأوروبيون التوتر المتصاعد فى المنطقة. إن عدم الاستقرار يولد عدم الاستقرار وقد كان من شأن تجميد الأمريكان والأوروبيين لتحويلات البنوك حرمان الحكومة الفلسطينية من الوصول إلى أموالها - بضمنها ما يأتيها من الدول المسلمة - ومن شأن هذا أن يفجر قلاقل واضطرابات جديدة خطيرة فى المنطقة.

مازال المعلقون الغربيون - بدافع من الموالين لفتح - يميلون إلى رؤية نتيجة انتخابات ٢٠٠٦ على أنها ليست سوى لطمة قوية على وجه فتح التى كانت حتى ذلك الحين المهيمنة على السلطة، وجهها الناخبون الغاضبون من الفساد وسوء الإدارة. منذ ١٩٩٣ كان الفلسطينيون يعيشون تحت نظام الحزب الواحد: الرعاية والوظائف والحكومة كانت كلها عطايا فتح وقد وزعت المزايا على أعضائها. ولكن مع ذلك فلم تكن نتيجة الانتخابات أساسا بسبب فساد فتح مع أهمية هذا العنصر. أتذكر قول قائد فى معسكر لاجئين فى لبنان: «سوف ترى.. نصر حماس هذا يمثل الانكسار الأخير لإيمان الفلسطينيين بالمجتمع الدولى. لم نعد نصدق بأنه يمكن الاعتماد على الأمريكيين أو الأوروبيين لعمل ما فيه صالحنا. علينا أن نعتمد على أنفسنا الآن».

لقد لاحظت حماس لبعض الوقت بأن الناخب الفلسطينى الذى منح فتح احتكار السلطة والقوات المسلحة فى ١٩٩٣ بعد اتفاقيات أوسلو لم يعد هو نفسه الآن. فبالكاد تجد اليوم فلسطينيا يؤمن بأن (السلوك الجيد) للفلسطينيين - كما وعدت فتح إسرائيل - سوف يحض الولايات المتحدة على تجاهل اللوبى الإسرائيلى لديها وممارسة ضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧. ويقول التميمى فى كتابه: «كان توقع حماس دائما هو أن إسرائيل «لن تلتزم بالصفقة»، وأنها تستخدم عملية السلام من أجل الاستيلاء على المزيد من الأراضى».

لقد راقب الفلسطينيون دولتهم الناشئة فى الضفة الغربية وهى تقطع شرائح مثل البسطرمة بالمزيد من المستوطنات وثكنات الجيش والمناطق العسكرية والحواجز والطرق التى يحظر على الفلسطينيين السير فيها وهى تقطع أشلاء المنطقة التى تحتجز مليونين ونصف المليون من الفلسطينيين محدودى الحركة. وقد نشر مكتب



هناك ثمن لا بد من دفعه بطبيعة الحال، ولكن لا علاقة له بالأضرار بما يسمى (توقعات السلام) إذ لم تكن هناك عملية سلمية. وفى رأى معظم الفلسطينيين، هناك أمل ضئيل فى السلام



الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية مؤخرا خارطة للضفة الغربية يتضح فيها أن نظام المستوطنات الإسرائيلية والبنى التحتية المحمية تسببت فى حظر ٤٠ بالمائة من الضفة الغربية على الفلسطينيين. وقد رأى الفلسطينيون امتناع الولايات الأمريكية وأوروبا عن فعل أى شيء بهذا الخصوص. ويدفع الأمريكان والأوروبيون بان السبب هو العنف الفلسطيني، ولكن الفلسطينيين يقولون إن الأوقات الهادئة هى التى يستولى فيها الإسرائيليون على المزيد من أراضيهم، ومع ذلك يظل المجتمع الدولى صامتا. وبحلول ٢٠٠٦ حين صوت الفلسطينيون لحماس، كان قد تلاشى أى أمل ضئيل من أوسلو. لم يعد هناك «معسكر سلام» يؤمن بالتقدم التدريجى نحو إقامة دولة فلسطينية.

على خلفية هذا الإحباط، فإن المشاركين فى كتاب جميل هلال (فلسطين إلى أين الآن؟ موت حل إقامة دولتين) يشيرون إما إلى دولة واحدة لشعبين فى إسرائيل/فلسطين أو إلى فصل آخر من المقاومة المسلحة أو الاثنين معا. يجادل زياد أبو عمرو بأن «السلطة الفلسطينية أصبحت واجهة تخفى الاحتلال الإسرائيلى الحقيقى وأداة لمساعدة الإسرائيليين لتنظيم سياساتهم الاحتلالية» ويقول جميل هلال «بلغت سياسة إسرائيل إلى حد الإلغاء المنظم للظروف الأساسية الضرورية لإقامة دولة فلسطينية فاعلة وذات سيادة» وينظر ايلان باب إلى جذور السياسة الإسرائيلية فيستنتج بأن «الاحتلال ينطلق من نفس البنى التحتية الأيديولوجية التى اعتمد عليها التطهير العرقى فى ١٩٤٨» ولكنك لن تجد من بين هؤلاء الكتاب من لا يزال يعتقد بتوفر الظروف النفسية والسياسية لمقترح إقامة دولتين. إن تبنى المطالبة بدستور إسرائيلى جديد من قبل منظمة «عدالة» فى إسرائيل، هو مؤشر آخر على عملية التطرف الجارية. وقد آثارت وثيقة «الدستور الديمقراطى» المطروحة للمناقشة اهتماما واسعا بين المواطنين الفلسطينيين فى إسرائيل، وغضبا عارما فى بعض الصحافة الإسرائيلية - والوثيقة تدعو لكتابة دستور يلتزم بالمبادئ الديمقراطية وأن يكون ثنائى اللغة ومتعدد الثقافات وفوق كل شيء يتضمن المساواة الكاملة لكل المواطنين والمقيمين، وبهذا لن تكون إسرائيل دولة يهودية حصريا أو حتى دولة تستطيع منح امتيازات خاصة لمواطنيها اليهود.

أحد أسباب هزيمة فتح فى الانتخابات كان فشلها فى الإقرار بأن إدارة بوش تختلف عن إدارة كلينتون. أصرت فتح على افتراض أن إدارة بوش، فى جوهرها، تشارك فى الرؤية القائلة بإقامة دولة فلسطينية تعتمد على انسحاب إسرائيلى من الأراضى المحتلة فى ١٩٦٧. استمرت القيادة فى افتراض بأنها إذا استطاعت إرضاء الولايات المتحدة فإنها سوف تُكافأ فى النهاية بالضغط على إسرائيل لقبول دولة فلسطينية فاعلة. وقد أصبح واضحا لمعظم الفلسطينيين منذ زمن بعيد، بضمنهم الكثير فى فتح، بأن رؤية بوش لا تتفق مع رؤية فتح وإنما مع تل أبيب، والتى ترى بقاء إسرائيل فى الضفة الغربية إلى الأبد.

قام خليل شقاقى من المركز الفلسطينى للسياسة وبحوث المسح وهى مؤسسة تمولها حكومات أجنبية لتنفيذ مسوحات للرأى فى فلسطين، بإجراء ثلاثة استفتاءات مهمة أثرت على رؤية واشنطن فى بداية يونيو وسبتمبر وديسمبر ٢٠٠٥ . وقد بينت كلها بأن فتح تتقدم على حماس بنسبة مريحة. فى يونيو أوضح شقاقى بأن فتح تتقدم بنسبة ٤٤٪ إلى ٣٣٪ لحماس، فى سبتمبر صعد رصيد فتح إلى ٤٧٪ ضد ٣٠٪ لحماس، فى ديسمبر قبل شهر واحد من الانتخابات، أعطى فتح ٥٠٪ وحماس ٣٢٪. فى الانتخابات فازت حماس بعدد ٧٤ مقعدا برلمانيا وفتح بعدد ٤٥ مقعداً فى برلمان يتكون من ١٣٢ عضواً. وكانت حماس تتوقع فى نوفمبر ٢٠٠٥ الفوز بـ ٧٠-٨٠ مقعداً.

من الصعب معرفة إذا كان الرفض الأوروبى والأمريكى للاعتراف بتغير المزاج الفلسطينى كما ظهر من نتيجة الانتخابات، هو الذى أثر على أفعال بعض قادة فتح بعد الانتخابات، أو ما إذا كان أصدقاء أوروبا فى فتح مثل دحلان، الذى يدعى قدرته على التعامل مع حماس، هو الذى أقنع الأوروبيين لإغماض عيونهم عن ثورة التغيير الفلسطينية. وتقول صحيفة الأهرام ويكلى مؤخرا بأن دحلان «يعترف بلباقة بأنه وراء الكثير من حالة انعدام القانون والفوضى فى غزة». أنا أستخدم سيارتين نوع جيب فقط، وقد يقول الناس إن غزة تشتعل.. حماس هى أضعف الفصائل الفلسطينية. إنهم يشتكون ويتذمرون. حسنا، عليهم أن يعانوا المزيد من اللعنات حتى جدهم السابع».

مهما يكون السبب، فإن الأوروبيين قد ارتكبوا واحدة من أكبر غلطاتهم السياسية فى المنطقة - لا يسبقها إلا دعمهم لغزو العراق - بإصرارهم الحثيث لعزل حماس ومحاولة إرجاع فتح إلى السلطة.

لقد جادلت حماس خلال الحملة الانتخابية بأن فتح لن تجنى من وعدها لإسرائيل بإنهاء العنف، سوى الاحتقار الإسرائيلى لما سيعتبرونه (ضعفا) فلسطينيا. وحسب رؤية حماس، لن يأتى الحل العادل إلا بعد أن تحترم إسرائيل أعداءها. فى هذه الأثناء فإن توسل فتح لأن تكون شريك إسرائيل فى السلام سوف يساهم بشكل مباشر فى تضخم طموحات الهيمنة الإسرائيلية. ولهذا تطالب حماس بالمقاومة المستمرة وبالعمل عكس مبدأ عرفات القائل بعدم بناء المؤسسات الفلسطينية حتى تقام دولة. حيث تؤمن حماس بأن الإدارة الجيدة الآن مع تحقيق الوحدة الوطنية نشدها هما الطريق لإقامة دولة فلسطينية. وبسجلها المؤثر والنظيف خلال إدارتها المحلية، كانت حماس تتطلع لتطبيق هذا النهج على المستوى القومى والآن يمكن أن تكون هذه فرصتها فى غزة.



المشكلة بالنسبة لحماس هى أن عموم ناخبيها والحركة الإسلامية الأوسع يعيشون مرحلة مراجعة. ما هو الظاهر - ويمكن تأكيد هذا من عدد من المواقع الإسلامية على الإنترنت - هو أن الاستراتيجية الإسلامية السائدة للانخراط فى الطريق الانتخابى للإصلاح أصبحت موضع شك. وسوف يكون لهذا تأثير أبعد من فلسطين. خاصة فى مصر والأردن. وقد شحذت ثلاثة أحداث هذا التوجس: العقوبات التى فرضت على حكومة حماس، الحرب المدعومة أمريكيا على حزب الله فى لبنان فى الصيف الفائت، واضطهاد الإخوان المسلمين فى مصر، وكل هذه لم تثر أى احتجاج من قبل الأوروبيين. إن استمرار العداء الغربى لكل الإسلاميين حتى المعتدلين منهم، قد دفعت تنامى الإحساس بالمرارة لدى الجماهير الإسلامية فى كل مكان.

فى مؤتمر عقد فى بيروت فى أبريل، انتقد فتحى يكن زعيم الجماعة الإسلامية فى لبنان، ممثل حماس الرسمى الحاضر أسامة حمدان بسبب المشاركة فى الانتخابات أصلا. وأشار يكن إلى الإخفاق - الذى جربه الإسلاميون



يستمر العراق فى إشعاع عدم الاستقرار وإثارة الفتنة بين الشيعة والسنة فى كل مكان. وتدفع السياسة الأمريكية والأوروبية فى فلسطين ولبنان إلى التوترات الداخلية والاستقطاب

بدون استثناء - الذى مُنى به الذين ساهموا فى برلماناتهم الوطنية.

ليس هناك برلمانى أو ممثل للشعب من إسلام أباد إلى القاهرة أو ما بينهما، نجح فى إحداث أى تغيير مهم فى مجتمعه. وفى نفس الوقت كان الشباب المصريون فى الإخوان المسلمين يجادلون فى ما إذا كانت حركتهم التى تبلغ من العمر ثمانين سنة قد فقدت بوصلتها. فى رأيهم أن مما يقلل من مصداقيتهم ويدعو للسخرية هو جلوس ممثلى الحركة فى البرلمان فى حين أن زعماءهم يعتقلون وقاعدتهم الاقتصادية تخرب والتشريعات تسن بهدف إقصاء الحركات ذات التوجهات الدينية من الانتخابات. ويقولون إن الحركة مترهلة وجامدة وخرقاء وتحتاج إلى إعادة النظر وربما التفكيك.

إحدى القضايا مثار الجدل هى قدرة الجماعات الإسلامية المعتدلة مثل حماس وحزب الله على الاحتفاظ باعتدالها مع انتشار تيارات التطرف.. ما إذا سوف يظلون كتلة سياسية موحدة ومنظمة. فالحركات الإسلامية السنية تشعر بقلق متزايد من انتشار جماعات سلفية صغيرة تميل إلى العدمية فى احتقارها للأيديولوجية السياسية وفى إيمانهم بأن إشعال النار فى بقايا السلطة الكولونيالية هو بحد ذاته كاف لانطلاق الوعى الثورى الذى يأملونه. وقد بدأت الجماعات السلفية تشق طريقها إلى غزة. وهى متواجدة فعلا فى العراق ولبنان وشمال أفريقيا.

ليس من الواضح ما سوف يحدث. تبدو العودة إلى طلائع الحركات العسكرية العنيفة التى سادت فى الستينيات والسبعينيات، والبعيدة عن الشرعية الشعبية المساندة، غير محتملة الآن. ولكن الأكثر احتمالا هو أن حركات معتدلة مثل حماس وحزب الله سوف تشجع مقاومة شعبية فى الوقت الذى تناضل فيه للحفاظ على وجودها السياسى. إن مقاومة حماس المسلحة فى غزة والموجهة إلى ما تراه حملة غربية للقضاء عليها، هى مثال على الطريقة التى يمكن لحركة إسلامية أن ترضى جمهورها الانتخابى الذى يزداد تطرفا وغضبا بسبب التدخل الأمريكى فى مجتمعاتهم من أجل مصالح ما يسميه حسن نصر الله «المشروع الغربى».

أحد المؤشرات على ما يريده الناخبون الآن يمكن فهمه من خطابات نصر الله. قال فى بيروت فى شهر مارس «فى منطقتنا، نشهد التهديد الخطير.. الذى تقدمه الإدارة الأمريكية لتحقيق خطتها للسيطرة على مواردنا ودولنا وقراراتنا ومصيرنا. اليوم لا نسمع كلاما حول الانتخابات والديمقراطية. لقد اكتشفوا بأنه لو أقيمت انتخابات حرة ونزيهة فى العالم الإسلامى، فإن الوطنيين الذين يعادون السياسة الأمريكية ويرفضون الخضوع للهيمنة الأمريكية سوف يفوزون فى كل بلد، سواء كانوا إسلاميين أم غيرهم، بسبب المزاج العام فى العالم الإسلامى» بتعبير آخر، ستكون أية انتخابات مثل هذه اختبارا لرغبة الشعوب فى الخضوع للسياسة الأمريكية أو رفض الانصياع لها.



أساس الأزمة الحالية هى أفعال الولايات المتحدة. يستمر العراق فى إشعاع عدم الاستقرار وإثارة الفتنة بين الشيعة والسنة فى كل مكان. وتدفع السياسة الأمريكية والأوروبية فى فلسطين ولبنان إلى التوترات الداخلية والاستقطاب. واحتمال خطر أن يمتد الصراع إلى إيران وربما سوريا يلقى بظلاله على كل شىء آخر فى المنطقة.

بشكل عام، الأمريكان والأوروبيون متورطون فى ستة صراعات داخلية فى المجتمعات الإسلامية - فى الصومال والسودان وأفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين - وفى كل حالة يقدمون المال والأسلحة لفصيل ليقاتل فصيلا آخر. وبينما أكتب هذا، يستعد حزب الله لاحتمال تجدد القتال مع إسرائيل، وقد وصلت سوريا وإيران إلى استنتاج أن الخطر حقيقى ووشيك وهما تستعدان له.

حين تبدأ كل الأطراف فى رؤية حتمية الصراع، يتحقق حينئذ (المحتوم). إن الأمريكان مولعون بمقارنة الوضع فى المنطقة بسنوات الثلاثينيات وصعود الشمولية: وقد تكون أوروبا عام ١٩١٤ تشبيهًا جيداً، حيث بلغت الأوضاع الآن مبلغا بحيث يمكن لأى واقعة مفاجئة أن تشعل سلسلة من الأحداث قد تكون السيطرة عليها خارج قدرات حتى القوى العظمى فى المنطقة.. فى الماضى تسببت حادثة سيارة فى انطلاق الانتفاضة الأولى وحريق فى سينما فى إطلاق الثورة الإيرانية وهى نتائج لم يكن يتوقعها أحد.

إسرائيل أيضا غائبة عن الوضع فهى تعتقد أن الصراع الفلسطينى سوف يستمر وأنها سوف تستمر كذلك فى التمتع باقتصاد مزدهر وتجارة سياحة رائجة.

وقد سلم الإسرائيليون بطريقة العيش فى ظروفهم الحالية: الحياة مستمرة، كما يفترضون بتفاؤل. فى كتاب (فشل تحقيق السلام) الذى يشرح التكلفة الإنسانية والسيكولوجية للاحتلال والعنف طويل المدى. تحذر سارة روى قائلة:

قبل أوسلو كان هناك اعتقاد بين الإسرائيليين أن السلام والاحتلال يتناقضان ولكن هذا قد تغير.

فى السنوات الأخيرة بدأ المزيد من الإسرائيليين يستفيدون من الاحتلال. حياتهم على سبيل المثال، صارت ايسر بواسطة شبكة الطرق الواسعة التى تربط بين مستوطنات الضفة الغربية وبالاقتصاد المطور..

هكذا فقد خف شعور الإسرائيليين بعدم الارتياح من الاحتلال فى الوقت الذى أصبح فيه الاحتلال أكثر قمعا واضطهادا. إن هذا التناقض خطر وغير مقبول.

تحذير روى يأتى فى الوقت المناسب. من الممكن توقع أن يزداد تطرف أعداد كبيرة من المواطنين الفلسطينيين فى إسرائيل إضافة إلى بقية الشعب الفلسطينى.

وقد يختفى أصدقاء إسرائيل (المعتدلون) بين قادة العرب. وقد تجابه إسلاميين أيضا ليس فقط فى الحكومة الفلسطينية ولكن على الحدود الأردنية والمصرية أيضا:

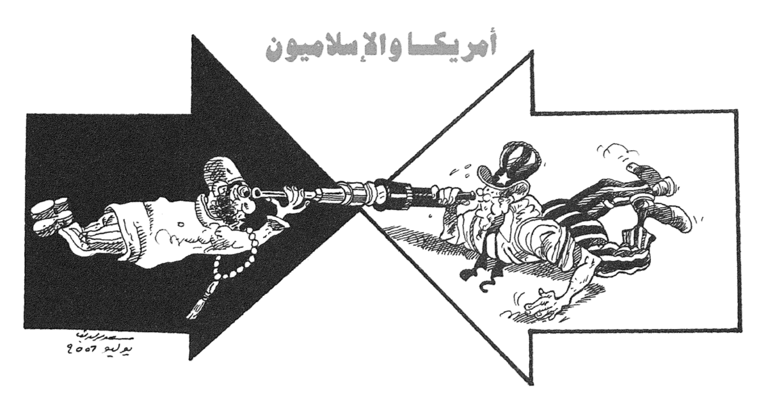
وإذا وقع القتال مع إيران، فهو قد ينتهى بكسح الكثير من إنجازات المنطقة.

إن هذا التوقع قد لا يقلق نوم الأوروبيين الذين لا يأخذونه بجدية، حتى لو كان سجلهم فى قراءة الأحداث فى المنطقة أقل مما توحى به الأمور. ولكن هذه هى السيناريوهات التى يأخذها الإسلاميون فى المنطقة فى الاعتبار.

علينا أن نأمل - وهذا قد يكون كل ما نقدر عليه - أن تتمكن الحركات الإسلامية المعتدلة من الإبحار فى هذه الأوقات المضطربة، رغم محاولات أوروبا لمنع الإسلام السياسى وهو التيار الإقليمى المهيمن الآن، من إعادة تشكيل المجتمعات الشرق أوسطية.

وهذه المحاولات تفتح المجال، ليس للعلمانيين المعتدلين الموالين للغرب الذين يسعى الأوروبيون لتمكينهم، ولكن أيضا لأولئك الذين يؤمنون بأنك إذا أردت بناء مجتمع جديد، عليك أن تنسف القديم. ■

أمريكا والإسلاميون



القيم مقابل المصالح!

عاطف أبو سيف

■■ تعد مشاركة الأحزاب الإسلامية فى العملية الديمقراطية فى الدول العربية إحدى القضايا المحورية للديمقراطية ومناقشات إحلالها التى تدور الآن داخل دائرة مروجى الديمقراطية فى المنطقة، وكذلك فى العواصم والساحات الأكاديمية العربية. لعدة عقود، كان يجرى إقصاء الإسلاميين عن المشاركة فى مؤسسات الدولة، أو أنهم كانوا يختارون ذلك بمحض إرادتهم. ولم تحبذ كل من القوى الدولية ومروجى الديمقراطية إدماج الإسلاميين، ولم يفعلوا شيئا للتشجيع على مشاركتهم. وقد عارضت الولايات المتحدة عموما - بما لها من تاريخ طويل من التدخل فى المنطقة وعلاقات صداقة مع العديد من الأنظمة العربية وكذلك مصالح حيوية على المحك - عارضت مشاركة الإسلاميين فى العملية الديمقراطية خوفا من سيطرتهم على حكوماتهم.

وللمفارقة، فإن هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية فتحت عيون مروجى الديمقراطية - بمن فيهم أولئك الموجودون فى الولايات المتحدة - على المخاطر التى تشكلها الأنظمة المستبدة على الأمن الدولى. وقد توصل العديد من صناع السياسة والمراقبين الأجانب إلى الاعتقاد بأن السياسات الرديئة والاقتصاديات الفقيرة والتخلف والأنظمة السياسية المغلقة تشكل أفضل الظروف لتجنيد الإرهابيين من الشباب. وعلى ضوء ذلك، نظر إلى غياب الديمقراطية باعتباره تهديدا للأمن الأمريكى والمصالح الأمريكية.

ومن ناحية أخرى، ازداد اهتمام الإسلاميين بالمشاركة فى الانتخابات السياسية. وهم يدركون أن كل الظروف قد اتحدت ضد الحركات الإسلامية فى فترة ما بعد الحادى عشر من سبتمبر. إن أفضل وسيلة لتجنب الغضب العالمى هى تحقيق الشرعية من خلال الانتخابات. وقد فعلوا ذلك فى العديد من الدول. ومع ذلك، تبقى حقيقة أن الإسلاميين يمثلون القوة المعارضة الحيوية الوحيدة فى الأنظمة غير الديمقراطية. وفى النهاية، فإن هناك إدراكًا متزايداً أن إحلال الديمقراطية الحقيقية فى الدول العربية لا يمكن أن يتم دون ضم الأحزاب السياسية الإسلامية.

ومع ذلك، فإن هذا الإدراك لم يترجم إلى سياسات. فعلى سبيل المثال، مازالت الولايات المتحدة تعارض ضم الإسلاميين فى العملية الديمقراطية. وما زال عدد كبير من المنظمات الإسلامية مدرجا على لائحة وزارة الخارجية الأمريكية للجماعات «الإرهابية». والغلطة الكبرى لصناع السياسة الأمريكيين هى «الافتراض بأن أى وكل جماعة إسلامية تؤمن بالعنف بالضرورة أو تأخذ منحى القاعدة».

إن الرفض الأمريكى للإسلاميين يضيف إلى النظرة السلبية لسياسات الولايات المتحدة فى المجتمعات العربية وغيرها، ويضعف أى إمكانية لتحقيق عملية ديمقراطية حقيقية فى منطقة عانت كثيرا من الاستبداد وغياب الحريات الأساسية. إن الحديث عن عدم توافق الإسلام مع متطلبات الحداثة، واستغلال الإسلاميين للديمقراطية كوسيلة، ووقوف الحكومات الإسلامية فى وجه الأعراف الدولية، يضيف إلى الصورة المتدهورة للديمقراطية فى المنطقة. وينظر المجتمع العربى إلى الولايات المتحدة باعتبارها أسوأ مروج للديمقراطية.

ينظر التحليل التالى إلى رفض الولايات المتحدة للجماعات الإسلامية فى ثلاث دول محددة باعتباره انعكاسا لصورة عامة للسياسة الأمريكية فى المنطقة. ولذلك ستكون لبنان ومصر وفلسطين هي بؤرة المناقشة. وبالإضافة لسوريا والأردن، فإن تلك الدول الثلاث تشكل وحدة جغرافية تقع تماما فى قلب الصراع العربى-الإسرائيلى. ومع ذلك فقد تم استبعاد سوريا والأردن من التحليل فى هذا المقال لعدد من الأسباب الرئيسية. أولا: إن عملية صنع السياسة الخارجية فى الأردن لا تتم بتكليف من الحكومة وإنما من قبل ملكية دستورية قوية للغاية، ولن يؤدى أى تغيير فى الحكومة إلى تحول جذرى فى سياسات الأردن تجاه العالم أو المنطقة. ثانيا: إن مشاركة الإسلاميين فى الانتخابات السورية ليست أمرا مطروحا لأن الديمقراطية والانتخابات هناك غير واردتين. وعلى العكس من ذلك، فقد شارك الإسلاميون، فى الدول الثلاث المذكورة، فى الانتخابات وتمكنوا من تحقيق بعض النجاح فيها. ففى إحدى تلك الدول شاركوا فى الحكومة (لبنان)، وفى دولة أخرى شكلوا وحدهم أول مجلس وزراء إسلامى خالص فى العالم العربى (فلسطين)، وفى الدولة الثالثة احتلوا ربع مقاعد البرلمان ومن المحتمل أن يزيدوا من تواجدهم فى الانتخابات القادمة (مصر). والأهم من ذلك، أن من المتوقع أن تؤدى مشاركة الإسلاميين فى الدول الثلاث المذكورة إلى تغيير - ولو طفيف - فى السياسة الخارجية. وربما تكون تلك التغييرات جوهرية فى إحدى تلك الدول على الأقل.

إن النظر إلى السياسة الأمريكية لإحلال الديمقراطية فى الشرق الأوسط

بترتيب خاص مع:
Arab Insight

ترجمة: عادل فتحى

الرفض الأمريكى للإسلاميين كحزب الله وحماس والإخوان المسلمين يضيف إلى النظرة السلبية لسياسات الولايات المتحدة فى المجتمعات العربية وغيرها، ويضعف أى إمكانية لتحقيق عملية ديمقراطية حقيقية فى المنطقة



باعتبارها رفضا أمريكيا عاما للإسلاميين فى العملية السياسية العربية ليس بالأمر الدقيق. وبدلا من ذلك، أرى هنا أنه من الممكن فهم السياسات الأمريكية بصورة أفضل من خلال دراسة سياق كل حالة بمفردها. ويجب أن تتجاوز المناقشة الجدل الدائر فى كل مكان بأن هناك رفضا ثقافيا للإسلام، أو أن الإسلام «يتصارع» مع الأنظمة التحررية أو القيم أو الحضارة الغربية. سوف أقصر هذه المناقشة على الموقف الأمريكى تجاه حزب الله فى لبنان والإخوان المسلمين فى مصر وحماس فى فلسطين. وتلك الجماعات الثلاث هى الأحزاب والحركات الإسلامية الأكثر بروزا فى دولهم. بل إن كلاً منها لديها بعض الخبرة فى المشاركة فى انتخابات حديثة (لم تشارك جماعة الجهاد الإسلامى - على سبيل المثال - فى الانتخابات العامة فى فلسطين. وكذلك لم تفعل ذلك بعض الحركات الجهادية فى مصر).

حزب الله: تاريخ من الرفض

إن الولايات المتحدة لا ترفض حزب الله فقط كقوة سياسية فى النظام اللبنانى، ولكنها تنظر إليه أيضا كهدف محتمل لهجوم أمريكى. إن علاقة حزب الله بالولايات المتحدة ترجع لتاريخ من الاستفزاز المتكرر. ففى عام ١٩٨٣ قتل فى بيروت ٢٤١ من مشاة البحرية الأمريكية - كانوا يشاركون فى قوة سلام متعددة الجنسيات - بواسطة مفجر انتحارى. كما وقعت انفجارات بالسفارة الأمريكية فى بيروت عامى ١٩٨٣ و١٩٨٤ (ذلك بخلاف بعض الأعمال التى اتهم حزب الله بالترتيب لها مثل اختطاف طائرة تى دبليو إيه TWA رقم ٨٤٧ ومقتل سائق البحرية الأمريكى عام ١٩٨٥). وكان مشتبها فى قيام حزب الله بدور فى تلك الأحداث. وكما علق «دانيال بايمان Daniel Byman» قبل ١١ سبتمبر بوقت طويل، فإن «حزب الله استحق أن يفخر بأن يكون على رأس مخاوف المسئولين عن مكافحة الإرهاب فى الولايات المتحدة» (أعلن بوش - على سبيل المثال - أن أى حرب ضد الإرهاب يجب أن تتضمن حزب الله. بل إن بعض المسئولين الأمريكيين صنفوا حزب الله كالفريق (أ) من الإرهابيين بينما القاعدة كالفريق (ب)). وليس من الممكن - بعد هذا القول - الفصل بين موقف الولايات المتحدة من حزب الله والإستراتيجية الأمريكية الشاملة فى لبنان والشرق الأوسط.

أولا: إن حزب الله قوة ناشطة فى السياسات اللبنانية. وهو يمثل شريحة كبرى من سكان البلاد الشيعة. وعلى الرغم من أن الشيعة غير ممثلين فى البرلمان كما يجب، مقارنة بالطائفتين الكبيرتين الأخريين - المسيحيين والسنة - حيث يحتل الحزب ٢٧ مقعدا فى البرلمان مقارنة بـ ٦٤ مقعداً للمسيحيين و٢٧ مقعداً للسنة، إلا أن مشاركتهم تعد حيوية للحياة السياسية فى البلاد (يمثل الشيعة حوالى ٣٤٪ من السكان، بينما يمثل السنة حوالى ٢٠٪. ويمثل تعداد المسيحيين ٣٦٪ والدروز ٨٪ والطوائف الصغيرة الباقية الأخرى حوالى ٢٪. لقد ساهم الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان فى زيادة سطوة دور الطائفة، بالنظر إلى أن الجنوب هو معقل الشيعة. وقد وفر الانسحاب الإسرائيلى من لبنان قوة دفع للطموحات السياسية الداخلية لحزب الله، حيث إنه كان يقود المقاومة العسكرية. وبعد مرور أقل من خمس سنوات بعد الانسحاب الإسرائيلى، وقع بالبلاد حادث سياسى آخر أثر على سياستها لعدة سنوات قادمة. فقد تم اغتيال «رفيق الحريرى» رئيس الوزراء اللبنانى السابق فى ١٤ فبراير ٢٠٠٥، مما أدى إلى تقسيم البلاد إلى معسكرين سياسيين كبيرين: تحالف الرابع عشر من مارس ومعارضة الثامن من مارس. ويقود حزب الله المعسكر الثانى. ولم يكن الاضطراب الذى وقع فى النظام السياسى اللبنانى بمنأى عن عيون الولايات المتحدة.



من الواضح أن الولايات المتحدة لا تحبذ حدوث أى تغيير فى النظام السياسى الطائفى فى لبنان. فمثل تلك التغييرات - إن وقعت - ستعنى زيادة مشاركة حزب الله فى صناعة وصياغة السياسات اللبنانية. وبينما تتعامل الحكومة اللبنانية بحرص مع الصراعات الداخلية خوفا من اندلاع حرب أهلية مثل التى عانوا منها فى الماضى، فمن المرجح أن يجلب مثل هذا الصراع تحولات جوهرية فيما يتعلق بتوزيع السلطة داخل المؤسسات اللبنانية. إن ما تخشاه الولايات المتحدة هو التغيير، وهى حريصة للغاية على التدخل فى أى تغييرات تحدث. ولو فشل حزب الله فى تحقيق مطالبه ونجحت حكومة «فؤاد السنيورة» فى الاختبار، فسوف يؤثر ذلك بالسلب على موقف الحزب. ومن الواضح أن الولايات المتحدة تساند مطالب الحكومة بضرورة دمج ميليشيات حزب الله ضمن الجيش الوطنى وألا يصادر أى حزب المستقبل السياسى للبلاد. ويعنى ذلك عدم السماح للحزب بشن حرب ضد إسرائيل وقتما يحلو له.

ليس مستغربا أن الإدارة الأمريكية تؤيد تحالف الرابع عشر من مارس، بينما تساند سوريا مطالب معارضة الثامن من مارس. وقد صنفت الولايات المتحدة حزب الله منذ اللحظة الأولى كجزء من محور الشر الذى يضم سوريا وإيران. ويعتقد أن هذين البلدين هما المزود الرئيسى للحزب بالسلاح والمال، وهما - بالتالى - أقوى المصادر نفوذا فى صناعة سياسته. وبالتالى فإن الحرب الأمريكية ضد النظامين الإيرانى والسورى تعد حربا ضد حزب الله.

تفضل الولايات المتحدة ألا يتحكم حلفاء حزب الله فى الحكومة اللبنانية، وذلك للعديد من الأسباب. فهناك قلق متزايد فى العالم العربى السنى فيما يتعلق بتنامى دور الشيعة فى السياسات العربية. ولا تفضل الولايات المتحدة أو دول مثل مصر والأردن والسعودية ودول الخليج الأخرى مثل هذا السيناريو. فمن منظور العرب السنة، كانت الولايات المتحدة على خطأ حين مكنت للشيعة العراقيين وقلمت أظافر إخوانهم من السنة. من الواضح أن إقامة حزام شيعى يتكون من إيران والعراق والأجزاء الشمالية من السعودية والكويت وقطر وكذلك جنوب لبنان لن يحقق تطورا إيجابيا فى سياسات المنطقة. وحلفاء أمريكا من العرب السنة واعون وحساسون تماما تجاه تلك المسألة. ولذلك فإن استقرار النظام اللبنانى هو أحد المصالح الإقليمية والاهتمامات الأمريكية أيضا.

من المهم أيضا بالنسبة للولايات المتحدة أن حزب الله هو جزء لا يتجزأ ليس فقط من الحياة السياسية اللبنانية وإنما أيضا من الصراع فى الشرق الأوسط. لقد حقق دور الحزب فى مواجهة إسرائيل خلال العقود الثلاثة الماضية شعبية كبيرة له خارج لبنان. لقد كان توزيع صور السيد «حسن نصر الله» الأمين العام لحزب الله اللبنانى فى المظاهرات بشوارع القاهرة وعمان وغزة علامة احتجاج ضد السياسات الأمريكية فى المنطقة.

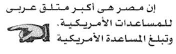
والأكثر من ذلك أن حزب الله اعتبر الإخفاق الإسرائيلى فى الحرب ضده عام ٢٠٠٦ هزيمة أيضا للنفوذ الأمريكى (اعتبرت الولايات المتحدة الحرب الإسرائيلية جزءا من «حربها العالمية على الإرهاب»). وبتعبير أكثر خشونة، فإن أمريكا وإسرائيل وجهان لعملة واحدة. فعلى سبيل المثال، يعتقد أحد زعماء الحزب أن أمريكا «تريد تحويل لبنان إلى مستعمرة وقاعدة سياسية وأمنية وعسكرية» (أمل سعد غريب، نفس المصدر السابق، صفحة ٨).

وفى النهاية، وكما يوضح التحليل السابق، فإن الرفض الأمريكى لحزب الله مرتبط بالسياسات الإقليمية والعالمية الأكثر شمولا، والتى تعتبر العلاقات والمواقف فيها مع الدول المجاورة أكثر العناصر حساسية على الإطلاق. وعلى ذلك، فالسؤال التالى يستحق اهتماما خاصا: هل سيحافظ الأمريكيون على نظرتهم إلى حزب الله باعتباره منظمة إرهابية لو أنه أبرم صفقة سلام مع إسرائيل؟ رغم أن الولايات المتحدة قد تفرض شروطا أخرى كثيرة، إلا أن المفكرين والمواطنين العرب يعتقدون أن صفقة سلام ستكون كافية لنقل حزب الله من معسكر الأعداء إلى معسكر الأصدقاء.

الإخوان المسلمون: رفض هادئ

تعد جماعة «الإخوان المسلمون» من بين إحدى أقدم جماعات المعارضة السياسية فى مصر. وقد تمكنت الحركة التى تأسست عام ١٩٢٨ من النجاة من تقلبات العلاقة مع الأنظمة المصرية لما يقرب من ثمانية عقود. ورغم ثبوت تورط الحركة فى بعض أعمال العنف فى السابق، إلا أنها لا تسعى حاليا للوصول للحكم بالقوة. وقد نجحت الجماعة - المحظورة قانونا - أثناء الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٥ فى الفوز بـ ٨٨ مقعدا من بين مقاعد البرلمان البالغ عددها ٤٥٤ مقعدا. لم تكن هناك أبدا علاقة ودية بين الجماعة والولايات المتحدة، على الرغم من بعض الأقاويل حول عقد مشاورات أو مباحثات بين دبلوماسيين أمريكيين فى القاهرة مع زعماء للحركة. وهناك ثلاث مصالح تعزز الرفض الأمريكى للحركة: هى العلاقات المستقرة بين الولايات المتحدة ونظام مبارك، والمرور الآمن للنفط والمؤن من خلال قناة السويس والممرات التجارية الأخرى، وكذلك الحاجة لاستقرار شامل فى المنطقة وعلاقات سلام مع إسرائيل.

إن مصر هى أكبر متلق عربى للمساعدات الأمريكية. وتبلغ المساعدة الأمريكية



أمريكا والإسلاميون
القيم مقابل المصالح!

لمصر حوالى ٢ مليار دولار سنويا. وقد وصلت تلك المساعدة إلى ١.٩ مليار دولار عام ٢٠٠٢، و٢.٢ مليار دولار عام ٢٠٠٣، و١.٨٧ مليار دولار عام ٢٠٠٤. ومن تلك المساعدات، فإن الدعم العسكرى السنوى ثابت عند ١.٣ مليار دولار. ومن المعتقد أن الإدارة الأمريكية فضلت - عبر سنوات طويلة - أن تساند أنظمة صديقة فى مصر بدلا من المقامرة على انتخابات حقيقية ونزيهة يمكن أن تأتى بزعماء جدد يعارضون المصالح الأمريكية فى المنطقة. ولذلك فإن الجهود الأمريكية لتحقيق تحول ديمقراطى فى مصر لم تلق قبولا على الإطلاق سواء من المعارضة الإسلامية أو النظام. ففى حين أن المعارضة الإسلامية تعى أنها لن تنال دعم الأمريكيين حتى لو فازت بالانتخابات، فإن النظام المصرى يدرك أن جهود إحلال الديمقراطية هى ببساطة مجرد وسيلة لممارسة ضغط على الحكومة للتنازل فيما يخص قضايا إقليمية معينة. وقد كتب المرشد العام للإخوان المسلمين أن الحركة تنظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها الوريث للاستعمار الغربى، متهما واشنطون بعدم الجدية فى جهودها لإحلال الديمقراطية.

إن نظاما صديقا غير ديمقراطى هو أفضل من نظام ديمقراطى مزعج. وفى هذا الخصوص فإن سجل الولايات المتحدة فى مساندة أنظمة بعيدة عن الديمقراطية هو معبر تماما: وتتراوح الحالات من أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأوسط. ولذلك، فحتى عندما تظهر الولايات المتحدة وغيرها من مروجى الديمقراطية الخارجيين الآخرين اهتماما، فإنهم يقصرون تدخلهم - فى مصر - على إصلاح الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، دون اعتبار للأحزاب السياسية الأخرى الموجودة.

ومع ذلك، فيجب ألا ننسى فى خضم هذا التحليل أن مصر ربما كان لها وضع فريد. فواشنطون لا تستطيع ولا ترغب فى الإسراع بإحلال ديمقراطية حقيقية فى أكبر دولة عربية والإطاحة بنظام يعد من حلفائها فى المنطقة. إن جزءا كبيرا من تأمين إمدادات النفط يعتمد على مصر. إن استقرار النظام السياسى المصرى يعنى تأمين إمدادات النفط عبر قناة السويس. وربما لا تستطيع الولايات المتحدة قبول نظام قد يبتز المجتمع الدولى من خلال معاملة تمييزية فيما يتعلق بمرور المؤن ـن خل الناة.

والأكثر من ذلك أن مصر هى أكثر الدول العربية تأثيرا فى خضم الصراع العربى-الإسرائيلى. وقد عارض الإخوان المسلمون اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل. كما أنهم يعارضون تطبيع العلاقات بين الدولتين. وربما تدعو الحركة - إذا ما هيمنت على السلطة التشريعية أو حتى مؤسسة الرئاسة - إلى تعليق المعاهدة. وليس ذلك ببعيد تماما عن تفكير البيت الأبيض أو وزارة الخارجية.

رغم ذلك، لم يلجأ الإخوان المسلمون أبدا لاستغلال وضعهم هذا لإثارة الإضطرابات والشغب فى المدن. وبدلا من ذلك، ركزت الحركة خلال العقد الأخير على القضايا الداخلية مثل الإصلاح السياسى والحقوق المدنية والحريات العامة والخدمات الاجتماعية. ورغم أن الحركة تعارض السياسات الأمريكية فى المنطقة وتشارك غالبية العرب الاعتقاد بأن الولايات المتحدة ليست وسيطا نزيها فى الشرق الأوسط (وإنما تنحاز لإسرائيل)، فإنها لا تعتبر واشنطون عدوا. ومبدئيا، فإن الحركة لن ترفض دعوة من واشنطون للمحادثات أو المشاورات.

وهناك أيضا قلق متزايد فى الدوائر الأمريكية حول ضرورة التصالح مع الإسلاميين فى مصر. فاحتمال أن يصبحوا جزءا من النظام يبدو حقيقة واضحة. ومن جهة أخرى، فإن تشجيع النظام على قمعهم سوف يضر بصورة البيت الأبيض - المتصدعة بالفعل - كمروج للديمقراطية. إن مشاركة الولايات المتحدة ستكون ضرورية لتشجيع الاندماج السلمى للحركة فى الحياة السياسية. وستؤدى مشاركة الحركة إلى انتهاجها خطا أكثر عقلانية. وفى المقابل، قد يؤدى ذلك إلى جعل الحركة أكثر عصرية ومرونة فى معالجتها للقضايا العالمية والداخلية. ويعد حزب العدالة والتنمية التركى نموذجا للخط المفضل للحركة.

إن الإدارة الأمريكية لا تستبعد احتمال صعود الإخوان المسلمين للهيمنة على الحياة السياسية المصرية، وليس من الحكمة أن يستبعدوا ذلك. ورغم أن الإدارة لا ترحب بذلك، فإنها ستكون جاهزة للتعامل مع الحقائق الجديدة حال وقوعها. والحركة - بلا شك - هى أكبر معارضة سياسية مصرية والأعمق جذورا. ولذلك فلن يكون من المستغرب أن تقرر الولايات المتحدة - فى مرحلة ما - الدخول فى حوار مفتوح مع الحركة حول مستقبل البلاد. وبكل تأكيد، سوف تطفو على السطح قضايا رئيسية مثل العلاقات مع إسرائيل والموقف من اتفاقيات كامب ديفيد ووجهات النظر حول حل دائم للصراع العربى-الإسرائيلى. وسوف يواجه الإخوان المسلمون المصريون نفس الأسئلة التى واجهتها حماس، الجناح الفلسطينى للإخوان المسلمين. يجادل البعض أن القضايا السياسية والعلاقات مع إسرائيل لن تشكل أهمية كبرى للإخوان المسلمين وأن الحفاظ على نظامهم سيكون الأكثر أهمية بالنسبة لهم.

حماس: الشروط أولا

لم تواجه أى حركات إسلامية فى الدول العربية نفس القدر من الضغط الذى واجهته حماس. لقد شكلت حماس أول حكومة إسلامية خالصة فى العالم العربى، بعد سيطرتها على المجلس التشريعى الفلسطينى عقب انتخابات يناير ٢٠٠٦، وقد حققت الحركة - التى ظهرت عام ١٩٨٧ - شعبية متزايدة فى الشارع الفلسطينى من خلال مشاركتها فى الصراع الوطنى ضد الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين. وعارضت حماس منذ اللحظة الأولى معاهدة السلام بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل وأنكرت شرعية السلطة الوطنية الفلسطينية لأنها نشأت نتيجة للمعاهدة مع إسرائيل.



على الرغم من أن واشنطون صنفت الحركة باعتبارها «إرهابية»، وأن المحادثات والحوار الرسمى مع الحركة محرم قانونا، فقد سمحت الإدارة الأمريكية لبعض عملاء وكالة الاستخبارات المركزية والدبلوماسيين السابقين بلقاء ممثلين عن حماس. وقد تمت لقاءات على مستوى منخفض مع حماس عام ١٩٩٣، وفى عام ٢٠٠٤، التقى مبعوث أمريكى سرا مع زعماء حماس فى غزة. وتمت لقاءات بين الجانبين فى بيروت عام ٢٠٠٥، من الواضح أن واشنطون كانت تستكشف السبل لترويض الحركة. وهذا هو ما يشير إليه تهكما أحد الكتاب العرب عندما كتب عن «احتواء وترويض حماس عن طريق إشراكها فى السياسات اليومية».

إن القوة الرئيسية وراء رفض الولايات المتحدة لحماس تستند إلى لجوء الأخيرة للعنف ضد إسرائيل، من خلال مهاجمة المدنيين بواسطة التفجيرات الانتحارية وقصف القرى الإسرائيلية على طول حدود قطاع غزة بالصواريخ صغيرة الحجم. ولم تصدر حماس عملياتها على الإطلاق خارج حدود فلسطين تحت الانتداب. كما أنها أكدت دائما أن عدوها الوحيد هو إسرائيل وأن هدفها الرئيسى هو تحرير الوطن وإقامة الدولة، وليس أكثر من ذلك. ومع ذلك، لا تستخدم الحركة لهجة ودية عند الإشارة إلى الولايات المتحدة، على الرغم من أنها لم تعتبرها أبدا عدوا لها. وكان ينظر دائما إلى موقف الولايات المتحدة ورفضها لحماس من قبل الدائرة الداخلية للحركة والمجتمعات العربية الأكبر باعتبارها إحدى إستراتيجيات الإدارة الأمريكية لمساندة إسرائيل والدفاع عنها. وقد صنفت وزارة الخارجية الأمريكية معظم حركات المقاومة الفلسطينية - بما فيها الجناح العسكرى لمنظمة «فتح» التى يترأسها «عباس» والمسماة بـ «كتائب الأقصى» - باعتبارها «إرهابية». وكما نشر فى نشرة أخرى يصدرها نفس مركز الأبحاث التابع لحماس المذكور آنفا، فإن الرفض الأمريكى لحماس هو تعبير آخر عن الرفض الأمريكى للحقوق الفلسطينية. عندما أعلنت حماس فجأة - وإن كان ذلك متوقعا - عن نيتها المشاركة فى الانتخابات الوطنية فى يناير ٢٠٠٣، عارضت الولايات المتحدة تلك الخطوة وعبرت عن مخاوفها من مشاركة ما تعتبره «جماعة إرهابية» فى عملية ديمقراطية. وقد اشترطت على الحركة نبذ العنف كى تشارك فى الانتخابات. وبعد تدخل الرئيس محمود عباس سمح لحماس بتقديم مرشحيها للانتخابات. ولم يتوقع أحد فى ذلك الوقت - بما فى ذلك زعماء حماس أنفسهم - أن تهيمن الحركة على أغلبية المجلس التشريعى. ولكن هذا ما حدث. وكان المأزق بالنسبة للولايات المتحدة أن حماس وصلت للحكم من خلال انتخابات راقبها المجتمع الدولى. وبذلك فإن الحكومة الحالية تقودها جماعة تصنفها الولايات المتحدة كإرهابية.

كان السبيل أمام واشنطون للخروج من المأزق هو الترتيب لفرض عقوبات دولية ضد حكومة حماس، بداية بقطع المساعدات الأجنبية الدولية ووقف الاتصالات الدبلوماسية على كافة المستويات، والأهم من ذلك فرض مجموعة من الشروط يجب على الحركة الوفاء بها قبل رفع العقوبات. وقدمت اللجنة الرباعية للشرق الأوسط، المكونة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة، إلى حماس ثلاثة شروط. أولا: يجب أن تعترف الحركة بدولة إسرائيل. ثانيا: يجب أن تتخلى عن العنف كوسيلة للعمل السياسى. ثالثا: يجب أن تقر معاهدات السلام المبرمة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. كان من المعتقد أن تؤدى المصاعب الاقتصادية الناتجة عن العقوبات إلى اضطرابات اجتماعية تدفع الحكومة إلى تغيير موقفها. وخلال الشهور الأحد عشر لحكومة حماس، لم تقبل الحركة بأى من تلك الشروط

(استقالت الحكومة فى ١٥ فبراير ٢٠٠٧).

كان متوقعا ألا تستسلم حماس بسهولة وتلتزم بالشروط الدولية. ووجهة النظر الأمريكية فى هذا السيناريو أن حماس، وإن كانت قد فازت فعلا فى الانتخابات، فإنها لن تتمكن من الحكم. وبمعنى آخر، فإن حماس لم تطرد من الحكومة بسبب رغبة الولايات المتحدة فى ذلك، وإنما لأن الحركة الإسلامية لم تحقق نجاحا فى الحكم. عندما يتوقف انسياب النقود من الخارج وتجعل الصعوبات الاقتصادية حياة الشعب غير محتملة، فيجب أن تتوفر للحكومة عندئذ المهارات السياسية لتأمين حياة أفضل لشعبها. ومن هذا المنظور، فقد حقق أول اختبار لحكومة عربية إسلامية فشلا ذريعا. بل إنه لن يتيسر للأحزاب الإسلامية الأخرى أن تدعى قدرتها على تحقيق ما هو أفضل. إن تلك المفاهيم سوف تؤثر على خيارات الناخبين. لقد كتبت مطبوعة استشهدنا بها آنفا عن حماس تقول إن الولايات المتحدة ليست مهتمة بنجاح التجربة «الديمقراطية» الفلسطينية والتى تعنى «نجاح دولة إسلامية أصولية». وكما تستطرد المطبوعة، فإن ذلك يعد ضد المصالح الأمريكية فى المنطقة.

ومن جهة أخرى، لو قبلت حماس الشروط الدولية، فإن النتائج كان ستكون لصالح الأمريكيين. فالقبول سيؤدى إلى كثير من التحولات فى المواقف السياسية للحركة. وستكون التجربة الأمريكية لترويض حماس سابقة لترويض أحزاب إسلامية أخرى. وبمعنى آخر، لو قبلت حماس شروط الاعتراف بإسرائيل والانضمام لعملية السلام ونبذ العنف، فلم يكن الصراع فى الشرق الأوسط وما يتعلق به من قضايا ليبقى عقبة فى طريق العلاقات مع الأحزاب الإسلامية الأخرى فى الدول العربية المجاورة. بل إن دولا إسلامية أخرى غير عربية - إيران بالتحديد - لن تتوفر لها الذريعة للتدخل فى المنطقة. فرغم كل شىء، لا يمكن أن يكون المرء كاثوليكيا أكثر من البابا.

رغم رفض حماس الظاهر لأخذ المطالب الدولية فى الاعتبار، فقد تحولت الحركة تدريجيا نحو قصر الهدف من كفاحها على مجرد إقامة دولة فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد تم توثيق هذا التحول فى المبادرة الوطنية التى تقدم بها الأسرى وصدقت عليها الحركة. وكما ذكر «خالد حروب» (٢٠٠٦)، حماس جديدة من خلال وثائقها الأخيرة A New Hamas through Its New Documents، مجلة الدراسات الفلسطينية Journal of Palestine Studies, ١٤٠ (٤)، ٦-٢٧) بعد قراءة ثلاث وثائق حديثة هامة للحركة. كان ذلك تراجعا جوهريا عن موقفها الأصلى. ورغم أن حماس لم تف بالشروط المطلوبة، إلا أنها توصلت إلى نقطة تتحقق فيها المصالح وراء تلك الشروط: وهى القبول أساسا بحل يتضمن دولتين. وقد وافقت حماس ضمنيا فى اتفاق مكة بشأن حكومة الوحدة الوطنية المبرم فى الثامن من فبراير ٢٠٠٧ على إقامة دولة فى الضفة الغربية وقطاع غزة متاخمة لدولة إسرائيل.

القيم مقابل المصالح

إن رفض الولايات المتحدة للأحزاب السياسية الإسلامية فى الدول الثلاث المذكورة يعكس نمطا شائعا. فقضية الأمن والاستقرار السياسى تحتل فى كل من تلك الدول الثلاث الأولوية القصوى بالنسبة للإدارة الأمريكية. ويرتبط الانحياز للإسلاميين أيضا بقضايا الأمن فى المنطقة بما فيها الصراع فى الشرق الأوسط (حماس وحزب الله و، بقدر أقل، الإخوان المسلمون) وإمدادات النفط (الإخوان المسلمون)، مما يفسر جزئيا تردد الإدارة فى قبول مشاركة الإسلاميين فى العملية الديمقراطية. ومن المفارقة أن تلك هى نفس الأسباب وراء عدم ثقة الإسلاميين فى السياسات الأمريكية فى المنطقة.



خلاصة الأمر أن الولايات المتحدة أبدت فى مناسبات بعينها استعدادا للتعاون مع الأحزاب الإسلامية عندما كان ذلك يحقق مصالحها. وقد ساندت الإدارة الأمريكية «إبراهيم الجعفرى» رئيس الوزراء العراقى الأسبق والذى ينتمى إلى حزب الدعوة الإسلامى. وفى الوقت نفسه كانت واشنطون تختبر طرقا لترويض الإسلاميين. وقد شاركت حماس وحزب الله - بالإضافة لأحزاب إسلامية أخرى - فى محادثات مع عملاء سابقين لوكالة الاستخبارات المركزية ودبلوماسيين بريطانيين سابقين، وذلك فى مارس عام ٢٠٠٥ (الحزبان الإسلاميان الآخران اللذان شاركا هما الجماعة الإسلامية اللبنانية (سنية) والجماعة الإسلامية الباكستانية).

إذا كانت الديمقراطية فى المنطقة حيوية للأمن القومى الأمريكى - كما تعلمنا فى ١١ سبتمبر - فيجب إذن تشجيع الأحزاب الإسلامية على الانضمام للعملية السياسية. ولا يمكن أن تكتمل عملية إحلال لديمقراطية حقيقية فى العالم العربى بدون مشاركة فعلية للأحزاب الإسلامية. لقد أدت سنوات طويلة من القمع والاعتقال إلى نمو شبكة إسلامية قوية زودت جماعات العنف بالمؤيدين. ولمواجهة ذلك التاريخ، يجب انضمام الإسلاميين للعملية السياسية ويجب أن تكون لهم الحرية الكاملة للمشاركة فى مؤسسات الدولة.

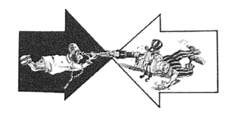
إن مشكلة واشنطون الحقيقية هى الجمع بين مصلحتين تبدوان متناقضتين: أمنها القومى واشتراك الإسلاميين فى سياسات المنطقة. فبعد مرور حوالى عام فى السلطة تقدم تجربة حماس درسا مفيدا يمكن أن تتعلم منه الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، سوف تتعلم الأحزاب الإسلامية - إذا ما وصلت للسلطة - أن تتصرف وفقا لأعراف معينة تضمن استمرار نظمها فى النظام الدولى. وبعبارة أخرى، إذا كان الدعم الداخلى ضروريا للفوز فى الانتخابات، فإن العوامل الخارجية - ومن بينها العلاقات مع القوى الإقليمية والدولية - ستكون أكثر أهمية بعد ضمان الوصول للسلطة. كان ذلك واضحا فى الدروس التى تعلمتها حماس. ومع ذلك، فمن الملاحظ أنه - بخلاف التجربة الفلسطينية - لا تعتمد كل الدول العربية على المساعدات الخارجية. والتى لم تتمكن حكومة حماس من تأمينها من مصادر أخرى. ومع ذلك، فعندما أصبح الضغط الاقتصادى غير محتمل، لم تختر حماس التخلى عن رئاسة الوزارة وتفويض مستقلين أو خبراء محترفين للحكم، واختارت - عوضا عن ذلك - أن تساوم بمواقفها التى كانت - لوقت طويل - مقدسة ولا مراء فيها. وتمس تلك المواقف قضايا اعتبرتها الحركة منذ وقت طويل قيما مقدسة، مثل الأرض والدولة والعلاقة مع إسرائيل. وقد تلقت حماس النصح من كثير من المفكرين والمحللين العرب بالانسحاب من الحكومة إذا كانت تلك المواقف غير قابلة للتفاوض.

وعلى أية حال، فإن موقف الولايات المتحدة من الصراع العربى - الإسرائيلى، والدعم غير المحدود الذى تتمتع به إسرائيل من قبل واشنطون، لا يسبب القلق للإسلاميين فقط، وإنما أيضا للعرب التحرريين. فعلى سبيل المثال، شنت واشنطون مؤخرا حربا ضخمة وقامت بغزو دولة عربية (العراق) وتبدو مستعدة لضرب دولة مسلمة أخرى بسبب محاولتها الحصول على قدرات نووية (إيران). وبالإضافة لذلك، فإنها أيضا تساند إسرائيل ماليا وعسكريا ودبلوماسيا، على الرغم من رفضها الانصياع للكثير من قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة واحتلالها أراضى تابعة لثلاث دول عربية وحيازتها لقدرات نووية. وقد توصلت «مارينا أوتاواى» فى ملخص لوجهة نظر فى الصحافة العربية إلى أنه لا يمكن النظر بجدية إلى الجهود التى تبذلها واشنطون. ما لم تجدد مساعيها لاستئناف عملية السلام فى الشرق الأوسط.

وعلى نفس المنوال، فإن وجود القوات الأمريكية فى العراق وتقسيم ذلك البلد يضر بالصورة الأمريكية. بما فى ذلك مصداقيتها كشريك سياسى ومروج للديمقراطية. وخلاصة القول أن على واشنطون أن تظهر مزيدا من المراعاة للقضايا الحساسة التى تهم الأحزاب الإسلامية والعرب على وجه العموم.

وفى النهاية، فإن موقف واشنطون من مشاركة الإسلاميين فى الحياة الديمقراطية فى الدول الثلاث يجب دراسته بعناية. فبقدر ما هناك بعد خارجى لعملية إحلال الديمقراطية، إلا أنها - إذا تمت بشكل سليم - عملية داخلية. إن تدخل واشنطون فى تفاصيل العملية الديمقراطية، وخصوصا دعمها لأحد الأحزاب مع مهاجمة الآخرين (الإسلاميين)، يضر بالعملية نفسها. ومن جهة أخرى، يجب أن يشعر الإسلاميون والتحرريون على السواء أن الولايات المتحدة مخلصة فى مساندتها لعملية إحلال الديمقراطية، وأن ذلك ليس استغلالا لإحدى وسائل السياسة الخارجية للدفع بأصدقاء أمريكا إلى الحكم.

فى هذا الخصوص، يجب أن تأخذ الولايات المتحدة فى الاعتبار أن نزع سلاح حزب الله هو مسألة لبنانية داخلية، وأن تحقيق نزع السلاح يرتبط بالتوصل إلى اتفاقيات سلام بين إسرائيل وسوريا ولبنان وبالمثل، فيجب ألا تتدخل واشنطون فى تفاصيل السياسات الفلسطينية. فالتوازن الداخلى بين حماس وفتح سيقرب بين موقفيهما، كما كان واضحا أثناء المفاوضات فى مكة. إن الولايات المتحدة تستحق الثناء لرغبتها فى إحلال الديمقراطية فى المنطقة عن طريق استعراض الإرادة السياسية. وبالمثل، فإن اندماج الإخوان المسلمين فى النظام المصرى يجب أن ينظر اليه بإيجابية. إن ذلك سيساعد فى تغيير مواقف الحركة تجاه القضايا العالمية والإقليمية. إن الجماعات الإسلامية لا تنكر عالمية القيم التحررية. ومع ذلك، فإنهم - مثل معظم إخوانهم العرب - يشعرون بعدم الراحة فى قبول عالمية المصالح الأمريكية. إن القيم يمكن أن تحقق مصالح مشتركة ولكن العكس ليس صحيحا. ■



المشهد على الجبهة المغربية!



محمد الغالي

■■ شكل خروج العالم مع بداية عقد التسعينيات من مرحلة الحرب الباردة، التي تميزت بسيادة قطبين رأسمالي وشيوعي، بداية ظهور نمط جديد من العلاقات بين الدول ينبني على منطق العلاقات التعاونية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بدلا من العلاقات التنازعية والصراعية التي هيمن عليها منطق السباق نحو التسلح وسياسة تشكيل الأقطاب المعادية؛ في المقابل تفجرت مجموعة من الحروب الأهلية التي كادت أن تتحول إلى حروب إقليمية كما حصل في أفريقيا وكذلك أسيا وأوروبا. وقد ساعد هذا الوضع الدولي على بزوغ مجموعة من الحركات الاحتجاجية أو تقوية أخرى، خصوصا داخل الدول التي عرفت مشاكل على صعيد تدبير الحقوق السياسية والمدنية لمواطنيها، وتندرج ضمنها الدول العربية الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب.

أدى بزوغ الحركات الاحتجاجية وخاصة حركات الاحتجاج الديني، التي اتخذت من الإسلام أساسا لبناء مشروعية (la légitimité) خطابها، إلى وضع مشروعية الحكام في المحك، فقد اتهمت النظم الحاكمة على المستوى الداخلي بالفساد وعدم القدرة على مجاراة حاجيات ومتطلبات المواطنين، واتهمت على المستوى الخارجي بالتفريط في دور الريادة الذي كانت تلعبه الحضارة العربية الإسلامية على المستوى الدولي مما قاد، من وجهة نظر تلك الحركات، إلى التفريط في فلسطين وسقوط العراق تحت الاحتلال.

وقد قاد اختلال الوضع الداخلي لأغلب الدول العربية بسبب الصعود المتزايد لحركات الاحتجاج الديني إلى تقوية مركزها، مما ساعدها على امتلاك قدرة التهديد المباشر لمصالح الدول الغربية المتهمة من قبلها بدعم قوى الاستكبار الداخلي، وانتقال تلك الحركات من مرحلة التهديد إلى مرحلة الدخول في مواجهات مباشرة، سواء من خلال تنفيذ عمليات مسلحة مباشرة ضد المصالح الغربية، أو من خلال المشاركة المباشرة في تجنيد متطوعين للقتال في الحروب التي تقودها هذه الدول سواء في أفغانستان أو في العراق أو في الصومال أو في الشيشان.

ونجم عن هذا الوضع تفجر خطاب الاستئصال التام والاستئصال المضاد بين تلك الحركات التي تتبنى مرجعية فكرية دينية بالأساس من جهة، وبين الدول الغربية من جهة ثانية، وهو خطاب وصل ذروته في ظل إدارة الرئيس جورج بوش الابن[1] إذ كمنت نتيجته الأساسية في سيادة خطاب «اللا أمن» للجميع مما طرح سؤالاً: ما السبيل وما تكلفة الخروج من هذا الوضع اللا مستقر؟. وطُرح في هذا السياق أن الحل يكمن في ضرورة فتح خط أخضر بين الغرب وبين الحركات الإسلامية المعتدلة، مما ترتب عليه ظهور موقف إيجابي للولايات المتحدة من بعض الإسلاميين المعتدلين مثل «حزب العدالة والتنمية» في المغرب، و«جبهة العمل الإسلامي» في الأردن.

ويركز هذا المقال على تناول حالات القبول والرفض الأمريكي للحركات الإسلامية في منطقة المغرب العربي، من خلال محاولة الإجابة على التساؤلات الثلاثة التالية:

١. ما هي دوافع قبول الولايات المتحدة للحركات الإسلامية في بعض الدول العربية دون غيرها؟ وما هي التكلفة السياسية لهذا القبول؟

٢ - ما هي الحدود الاستراتيجية للموقف الإيجابي الأمريكي من صعود بعض الحركات الإسلامية، أخذا بعين الاعتبار المرجعية الفكرية لهذه الحركات؟

٣ - إلى أي مدى ستتجاوب هذه الحركات مع الموقف الأمريكي الايجابي؟

وسيركز المقال على دراسة نموذجي «حزب العدالة والتنمية»، و«جماعة العدل والإحسان» في المغرب، ونموذج «حركة النهضة الإسلامية» في تونس، ونموذج «الجبهة الإسلامية للانقاذ» في الجزائر.



أولا: الولايات المتحدة في الخطاب المرجعي للإسلاميين

إن البحث في مسألة القبول الأمريكي للحركات الإسلامية من عدمه يجب أن يسبقه البحث في سؤال رئيسي هو: إلى أي حد تجد مبادرة القبول الأمريكي - في حالة وجودها - تجاوبا وصدى في الخطاب المرجعي للحركات الإسلامية؟

تستلهم الحركات الإسلامية في دول المغرب العربي، وعلى غرار نظيرتها في المشرق العربي، مرجعيتها الفكرية من مصادر الشريعة الإسلامية التقليدية المعروفة وهي القرآن والسنة النبوية والإجماع والقياس. ويكمن الخلاف الرئيسي بين تلك الحركات في مناهج الاستلهام، وكيفية وحدود ترجمة هذه المصادر واقعا، وهو ما أدى بدوره إلى تصنيف تلك الحركات من زاوية هذا الاستلهام إلى تيارات سلفية وأخرى حركية، ومن زاوية ثانية إلى حركات راديكالية وأخرى معتدلة أو مهادنة.

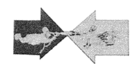
فالأصول أو المرجعية الإسلامية لهذا الخطاب تدفع للوهلة الأولى إلى النظر لتلك الحركات وكأنها في سلة واحدة، لكن أهمية التمييز تجد قيمتها في توظيفات الخطاب: بمعنى هل يقوم الخطاب بتوظيف هذه الأصول بهدف البحث عن تناغمات بينها وبين الواقع المعاش؟ (الخطاب التوفيقي)؟ أم أنه يوظف هذه الأصول بصيغ ووصفات تجعل الواقع هو المُلزم بالتكيف والمسايرة مع المرجعية الخلفية الدينية (الخطاب السلفي المحافظ)؟ مما يسقط الخطاب في وضع الأزمة، وهذا هو المعيار الأساسي للتمييز والكفيل بمساعدتنا على فهم مدى استعداد الحركات الإسلامية للتعاطي الإيجابي مع مبادرات القبول الأمريكية لهذه الحركات. ويمكن التمييز هنا بين نمطين من الخطاب الإسلامي داخل الحركات الإسلامية.

١. الخطاب الإسلامي السلفي المحافظ

ويمكن أن نطلق عليه أيضا «نظرية الرفض المطلق»، وينصب هذا الخطاب أساسا على التشبث الصلب بالتفسير الدقيق للنصوص الدينية، وبالتالي عدم القبول بالتفسيرات الواسعة أو الأكثر مرونة للنصوص، وعليه فإن كل الأشياء الخارجة عن التفسير الدقيق تعتبر أمورا ضالة وتسقط في حكم البدعة، التي هي بحسب الحديث النبوي: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار». فالواقع يؤطره سلوك الفرد في جماعة المؤمنين الذي يجب بدوره أن يخضع وجوبا لحكم النص الشرعي.

يتصور هذا الاتجاه أن البلاء والمصائب التي حلت بالأمة الإسلامية سببها هو زيغها بشكل أساسي عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وذلك بفعل الانكسارات التاريخية التي وقعت نتيجة تعرض الدول العربية الإسلامية

بترتيب مع:
Arab Insight



أدى تفجر الوضع إلى تطور اعتقاد لدى مجموعة من قياديي الجبهة في الجزائر بأن الانتخابات، بالنظر إلى كونها صيغة توفيقية، لا تشكل بمفردها المدخل الأمين للتغيير



للاستعمار والتي يتحمل فيها الغرب عموما المسئولية المادية والأخلاقية. وعليه فإن الصراع مع الغرب من منظور هذا الاتجاه لا يمكن اختزاله في نظرية مادية أو تقنية، بل هو مبنى على الصراع بين حضارة مسلمة وأخرى كافرة، ومادام الغرب يحتل أراضي المسلمين ومقدراتهم وخيراتهم الطبيعية والبشرية فإن جهاده بالكلمة والسلاح يعتبر فرض عين لا كفاية. ومن أبرز رواد هذا الاتجاه تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن في المشرق العربي، و«الجماعة السلفية للدعوة والقتال» في الجزائر، والتي أعلنت في ٢٦ يناير ٢٠٠٧ عن انضمامها إلى تنظيم القاعدة لتحمل اسم «تنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي»[٢].

وبهذا المعنى، فإن تبني هذا الاتجاه نظرية استئصال الغرب من كل البلاد الإسلامية، عبر قتاله (جهاده) أو ضرب مصالحه الاقتصادية، أو نقل المعركة إلى أرضه بصفة مباشرة عبر عمليات جهادية من منظوره، وإرهابية من منظور الغرب، يجعل مبادرات القبول الأمريكية مخالفة للشرع ويجب رفضها وعدم التفاعل معها، بل يذهب هذا الاتجاه السلفي المحافظ إلى حد وصف المتجاوبين مع المبادرات الأمريكية بالمتواطئين والخاسئين[٣].

٢. الخطاب الإسلامي التوفيقي

يوصف الخطاب الإسلامي التوفيقي بالخطاب المعتدل أو بالخطاب الإسلامي الذي يتنازل عن العنف، مقابل الحوار والموعظة كسبيل لنشر أفكاره. ومن داخل هذا الخطاب، الذي يبحث عن الحلول التوفيقية في شرعنة مبرر الوجود، يمكن التمييز في دول المغرب العربي بين مستويين رئيسيين في هذا الخطاب:

المستوى الأول: يمثله خطاب القبول بالآخر، أي القبول بقواعد اللعب التي يقوم عليها النظام السياسي القائم، عبر العمل جنبا إلى جنب معه في المؤسسات السياسية القائمة، سواء في صف الموالاة أو المعارضة كما هو الشأن في المملكة المغربية بالنسبة لحزب العدالة والتنمية الذي حظي بالتمثيل داخل مجلس النواب خلال الولاية البرلمانية السادسة (١٩٩٧-٢٠٠٢). إذ لعب الحزب في مرحلة أولى من تلك الولاية دور المعارضة النصوحة، بينما لعب في مرحلة تالية من الولاية ذاتها دور المعارضة النقدية. ولعب الأدوار ذاتها خلال الولاية البرلمانية السابعة (٢٠٠٢-٢٠٠٧). ويحاول هذا الحزب من خلال خطابه وممارسته تكريس الانطباع بأنه حزب مدني وليس دينيًا، رغم كونه يستلهم خلفيته من المرجعية الإسلامية، وأن هدفه هو المساهمة في النهوض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين[٤].

وفي صورة أخرى من نفس المستوى تبرز حركة النهضة التونسية التي تتبنى بدورها خطابا توفيقيا يعبر عن رغبتها الأكيدة في الاشتغال من داخل المؤسسات السياسية القائمة، لكن رغبتها تصطدم بخيارات النظام السياسي القائم الذي يرفض رفضا مطلقا دمج الحركات الإسلامية في الحياة السياسية الرسمية أو التمييز فيما بينها على أساس موقفها من استخدام العنف، حيث يتمسك بوضعها جميعا في سلة واحدة. يتبنى خطاب هذه الحركة نمطين للاحتجاج يقومان على النزعة التوفيقية: يتمثل الأول في معارضة النظام السياسي، بدعوى عدم انسجام توجهاته مع المعايير الأخلاقية الإسلامية (وهو النمط الديني السلمي للاحتجاج)؛ ويتمثل الثاني في معارضة النظام السياسي، بدعوى عدم التزامه بتطبيق مشاريعه التي يستلهمها من المشروع الحداثي في بناء الدولة ورعاية المواطنين أي أنه يعارضه وينتقده من داخل مشروعه الحداثي (وهو النمط السياسي في الاحتجاج).

وهكذا، يوصف الخطاب الإسلامي التوفيقي من خلال حزب العدالة والتنمية وحركة النهضة بالاتجاه «البراجماتي» داخل الحركات والتوجهات التي تشكل المرجعية الإسلامية منطلقا لها.

المستوى الثاني: تكمن أهمية توفيقيته في نبذه للعنف وعدم تبنيه بشكل علني كوسيلة للتغيير، فخطاب هذا المستوى لا يسلم بقواعد اللعب القائمة، مما يجعله لا يسلم بشرعية المؤسسات القائمة بشكل صريح، ويلجأ بدلا عنها إلى نقدها عبر أسلوب تقديم النصيحة لها (جهاد الكلمة)، كما هو الشأن بالنسبة لجماعة العدل والإحسان في المملكة المغربية من خلال مرشدها العام السيد عبد السلام ياسين الذي قدم ثلاث رسائل نصحية إلى النظام: جاءت الرسالة الأولى في سنة ١٩٧٤ تحت عنوان «الإسلام أو الطوفان»، وتضمنت دعوة صريحة إلى ضرورة رجوع النظام إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإلا فستحل به الكارثة. وجاءت الرسالة الثانية بعنوان «رسالة القرن» (الهجري) في ١٩٨١، وأخيرا جاءت الرسالة الثالثة تحت عنوان «مذكرة إلى من يهمه الأمر»، وجهت نسخة منها إلى الديوان الملكي، ملخصها هو الدعوة إلى التوبة، وإعادة مال الأمة للأمة، وإقامة البيعة بناء على تعاقد بين الحاكم والمحكوم، وتطهير الإدارة من براثن الفساد لإعادة الثقة إلى الشعب، وإنقاذ البلاد من ثقل المديونية والانطلاق المشترك في بناء مغرب الغد الذي يستجيب لتحديات المستقبل وتحديات المرحلة. وتظل هذه الجماعة كحركة سياسية اجتماعية احتجاجية معارضة لا تحظى بالاعتراف الصريح من طرف السلطة القائمة الأمر الذي يحول دون عملها المباشر من داخل المؤسسات الرسمية للدولة[٥].

يختلف في هذا السياق وضع الجبهة الإسلامية للإنقاذ (S.I.F) عن الحركات السابقة فهي حزب سياسي جزائري أنشئ في شهر مارس من سنة ١٩٨٩ بعد التعديل الدستوري لسنة ١٩٨٨ الذي أدخل التعددية الحزبية. وتنتمي الجبهة تاريخيا إلى الحركة الإسلامية الجزائرية والحركة الوطنية التي عملت على تحرير الجزائر من وطأة الاستعمار وإقامة دولة مستقلة على أسس الإسلام، تسعى إلى إقامة نظام حكم مدني تعددي يرتكز على مبدأ الحاكمية لله والسلطة للشعب. وقد خاضت الجبهة أول انتخابات محلية حرة عرفتها الجزائر في سنة ١٩٩٠، حيث فازت فيها بـ ٨٥٣ بلدية من بين ١٥٣٩ بلدية أي بنسبة ٤٢,٥٥٪ و٣٢ ولاية من بين ٤٨ ولاية أي بنسبة ٦٦,٦٦٪. كما خاضت الانتخابات التشريعية الحرة التي أجريت في الجزائر في ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، حصلت جبهة الإنقاذ في الجولة الأولى منها على ١٨٨ مقعدا في حين حصل حزب جبهة التحرير الحاكم على ١٥ مقعدا فقط، وحصل حزب جبهة القوى الاشتراكية على ٢٥ مقعدا، وتذهب بعض التقديرات إلى أنه كان بإمكان الجبهة في حالة إجراء الجولة الثانية من الانتخابات الحصول على ٢٥٠ مقعدا من بين ٤٣٠ مقعدا، ولكن الجيش تدخل في ١١ يناير ١٩٩٢، وتوقف المسلسل الانتخابي ليتم حل الجبهة في مارس ١٩٩٢، وهو ما أدى إلى دخول الجزائر في دوامة العنف والعنف المضاد، إذ أسست الجبهة جيشا خاصا بها وهو «الجيش الإسلامي للإنقاذ». وقد أدت تلك التطورات إلى ظهور حركات وجماعات أخرى آمنت بالعنف كسبيل وحيد للوصول إلى السلطة وتطبيق الشريعة الإسلامية كما هو الشأن بالنسبة للجماعة السلفية للدعوة والقتال.

وقد أدى تفجر الوضع إلى تطور اعتقاد لدى مجموعة من قياديي الجبهة بأن الانتخابات، بالنظر إلى كونها صيغة توفيقية، لا تشكل بمفردها المدخل الأمين للتغيير.

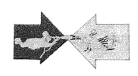
وهكذا، يتضح، استنادا إلى التصنيف السابق للحركات الإسلامية، أن الخطاب الإسلامي السلفي المحافظ يسير في اتجاه تقوية ودعم مناعة الرفض تجاه مبادرات القبول الأمريكية، والتي لا تعدو من وجهة نظر هذا التيار مجرد تكتيكات لزرع الشبهة والفرقة بين أعضاء الأمة الإسلامية الواحدة. أما الخطاب الإسلامي التوفيقي، وبالنظر إلى أسلوبه البراجماتي الانتقائي، لا يرفض من الناحية العملية التعاطي الإيجابي مع مبادرات القبول الأمريكية، باعتبارها وسيلة للانفتاح على الآخر وتحقيق الفهم المتبادل والتواصل الذي يمكن أن يساعده على تبديد الشكوك والمخاوف التي ألصقت كأحكام قيمية على الحركة الإسلامية.

ثانيا: دوافع القبول الأمريكي لبعض الإسلاميين

تأتي مبادرة القبول الأمريكية لبعض الإسلاميين في إطار سياق دولي، يمر بمخاض حقيقي، نتج عن تضارب المصالح حتى داخل الأيديولوجية الواحدة (الأيديولوجية الليبرالية). وفي هذا السياق، يمكن أن نعزو قبول الولايات المتحدة لبعض الإسلاميين إلى دوافع ذاتية وأخرى موضوعية.

١. الدوافع الذاتية للتقارب

تتعلق تلك الدوافع بالتصور الذي تنتجه الإدارة الأمريكية حول أهدافها ومصالحها القومية، وينبني هذا التصور أساسا على قاعدة المبدأ الأمريكي: «ليس هناك صديق ليس هناك عدو بل هناك مصلحة دائمة». فالولايات المتحدة، وتحت تأثير الحفاظ على مصالحها الوطنية، أصبحت فاعلا رئيسيا في قلب الإطار الجغرافي للدول العربية الإسلامية، ومن ثم فإن إيجاد صيغة للتعايش مع



مختلف القوى الفاعلة داخل هذه الدول تصبح مسألة تفرضها اعتبارات الحفاظ على مصالحها الوطنية. وفى ضوء الدور المتقدم والمتصاعد للحركات الإسلامية فى المشهد السياسى العربى، خاصة على صعيد النتائج التى حققتها بعض تلك الحركات فى الانتخابات (حالات اليمن، الكويت، الأردن، فلسطين، مصر، الجزائر والمغرب) يصبح تطوير سياسة أمريكية محددة إزاء تلك الحركات باعتبارها واحدا من الفاعلين السياسيين الذين لا يمكن تجاهلهم، مسألة مهمة.

ويكشف الواقع أن القوى الإسلامية أضحت رقماً لا يمكن تجاوزه أو إقصاؤه تأسيسا على نظرية العداء، بل إن العنصر «البراجماتى» الذى يشكل لب الفلسفة السياسية الأمريكية يفرض البحث عن صيغ وحلول توفيقية تتأسس على التفاهم حول المصالح المشتركة. ويقدم نموذج حزب العدالة والتنمية فى تركيا للولايات المتحدة نموذجا مهما لإمكانية إعادة إنتاجه فى دول عربية، كنموذج لحزب يستند إلى مرجعية إسلامية، ويعمل من داخل نظام سياسى يرفع شعار العلمانية كشرط أساسى للتناوب على السلطة. تكشف هذه التجربة عن قدرة عالية لحزب ذى مرجعية إسلامية على التفاهم والتعايش مع الآخر بعيدا عن نظرية الرفض المطلق، بل وإمكانية الالتزام بشروط أساسية تتمثل فى الحفاظ على التزامات الدولة التركية تجاه حلف شمال الأطلسى، والحفاظ على علاقات متوازنة مع إسرائيل والتى تعتبرها باقى الحركات الإسلامية عدوا حضاريا وسبب البلاء الذى تعانى منه الأمة العربية الإسلامية وتعتبر الإدارة الأمريكية الراعى الأمين لها.

وبشكل ما يمكن القول أن هذه التجربة تمثل دافعا ذاتيا نحو أخذ المثال التركى كنموذج لإطلاق مبادرات تساعد على بناء إطار للتعامل المباشر مع هذه الحركات فى بعض الدول العربية الإسلامية. ويثير ذلك سؤالا حول المعيار الحاكم لقبول الإدارة الأمريكية التعامل مع حركات أو أحزاب إسلامية دون أخرى، وهو ما ينقلنا بدوره إلى الدوافع الموضوعية.

٢. الدوافع الموضوعية

تكمن هذه الدوافع بالأساس فى مقاربة سلوك الحركات أو الأحزاب الإسلامية، وحدود التزام خطاب وممارسات تلك الحركات بالحد الأدنى من منظومة القيم الديمقراطية الغربية التى تشكل فى المتن الأمريكى الضمانة الأساسية لبناء الثقة.

ويقودنا التفسير الموضوعى لهذه الدوافع إلى تناول كل حالة على حدة.

الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر

فازت الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الانتخابات التشريعية التى أجريت فى الجزائر فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، والتى تم إلغاؤها من خلال انقلاب عسكرى فى ١١ يناير، ثم حل الجبهة فى مارس ١٩٩٢ . وقد نظر الكثيرون إلى الانقلاب ثم حل الجبهة على أنه خرق للشرعية (la légalité) الدستورية، وأنه تم فى إطار تواطؤ أمريكى، وانصياع للأطروحات التى ترى أن الإسلاميين يتعاملون مع الانتخابات باعتبارها أداة للتمكين وليس كأداة ديمقراطية للانتقال السلمى للسلطة. ويستند هؤلاء إلى غياب أى تحرك أمريكى مواز لإعادة الشرعية الدستورية على نحو ما حدث فى حالة انقلابات أخرى وقعت فى دول مثل باناما أو نيجيريا.

وبالنظر إلى خطاب، وممارسة الجبهة الإسلامية للإنقاذ آنذاك يمكن تصنيفها ضمن اتجاهات التيار الإسلامى الراديكالى الذى لا تشكل الانتخابات بالنسبة له سوى تقنية إجرائية للوصول إلى السلطة. ويمكن القول إن الجبهة الإسلامية للإنقاذ لم تشكل نموذجا يمكن الاعتماد عليه من جانب الولايات المتحدة والغرب، ولم تمتلك المقومات أو الشروط التى تدفع الولايات المتحدة والغرب بالانفتاح عليها. ويمكن الإشارة فى هذا السياق إلى موقف الرئيس الفرنسى الراحل «فرنسوا ميتران» عندما قرر الرئيس الجزائرى الأسبق «الشاذلى بن جديد» تحرير النظام السياسى والسماح بتأسيس الأحزاب السياسية، إذ أرسل إليه ميتران يقول له: «إننى أدعوك إلى مراجعة موقفك هذا، أى الترخيص للأحزاب كلها، وخصوصا الإسلامية، وإننى مستعد أن أتحمل عنك ديون الجزائر كلها»[٦] وهكذا، تظل الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية منذ قرار حلها فى سنة ١٩٩٢ خارج إطار النظام السياسى الرسمى.

وعلى الرغم من وجود قوى إسلامية أخرى تتمتع بالوجود الرسمى داخل المؤسسات السياسية، أهمها حركة النهضة التى انشقت عنها «حركة الإصلاح» فى سنة ١٩٩٩، وحركة مجتمع السلم «حماس»[٧]، إلا أنه بالنظر إلى الوضع السياسى غير المستقر فى الجزائر، فإن الحديث عن قبول الولايات المتحدة لأى من تلك الحركات يظل سابقا لأوانه أمام ضبابية صورة المشهد الجزائرى والتى تكرسها أزمة لا غالب ولا مغلوب بين السلطة والجماعات المناهضة لها[٨].

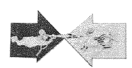
العدالة والتنمية فى المغرب

يتجاذب أصل حزب العدالة والتنمية عنصران أساسيان بحسب وجهة النظر، فلتكريس الخط العلمانى يقال بأنه يجد أصله فى حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية[٩] ولتكريس الخط الدينى يقال بأنه يجد أصله فى الجماعة الإسلامية التى غيرت فى عام ١٩٩٢ اسمها لتصبح حركة الإصلاح والتجديد وأعلن زعيمها عبد الإله بنكيران إن حركته سلمية وتقبل الحكم الملكى.

وكان قد تعذر فى سنة ١٩٩٢ على «حركة الإصلاح والتجديد» تأسيس حزب التجديد الوطنى الذى رأت السلطة المختصة تعارض أهدافه مع الأطر التشريعية والقانونية القائمة، مما دفع قيادات الحركة إلى الاتصال بالدكتور عبد الكريم الخطيب، حيث عرضوا عليه إعادة إحياء «حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية»، فوافق الخطيب بشروط ثلاثة، هى: الإسلام، والاعتراف بالملكية الدستورية، ونبذ العنف. وبالفعل عقد الحزب مؤتمرا استثنائيا فى سنة ١٩٩٦ لتمكين القيادات الإسلامية من العضوية فى أمانته العامة، ومنذ ذلك الحين بدأ ينظر إلى الحزب باعتباره حزبا إسلاميا[١٠].

شارك الحزب فى الانتخابات التشريعية لانتخاب مجلس النواب سنة ١٩٩٧ بشكل جزئى متجنبا الاندفاع ومتفاديا تقديم نفسه كحزب بديل وحيد، مستفيدا فى ذلك من الدرس الجزائرى وتجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حيث شارك فى ٢٤ دائرة انتخابية من أصل ٣٢٥، حصل فيها على ٩ مقاعد أغلبها فى العاصمة الاقتصادية (الدار البيضاء). وعند إعادة انتخاب بعض الدوائر حصل على ٣ مقاعد إضافية، والتحق عضوان من أعضاء المجلس بكتلته البرلمانية ليصل العدد الإجمالى إلى ١٤ مقعدا فى مجلس النواب. وعندما تم تكليف السيد عبد الرحمان اليوسفى، عن حزب الاتحاد الاشتراكى، بتشكيل الحكومة فى ٤ فبراير ١٩٩٨ أراد إشراك الحزب من خلال إسناد إحدى الحقائب الوزارية إليه، لكن أمينه العام السيد عبد الكريم الخطيب فضل أن يكون حزبه داعما للحكومة لا مشاركا فيها على أساس مبدأ «المساندة النقدية»، لكن الحزب تحول من مساند منتقد إلى معارض يقدم النصيحة للحكومة، محاولا ترسيخ تقاليد سياسة جديدة فى سلوك تعامل الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية، ومقدما نموذجا مثاليا (Idéal type) لعله يكون قادرا على ترسيخ الثقة والاعتقاد لدى الآخرين بكون هدف الحزب هو التكامل من أجل التعاون وقبول الرأى والرأى الآخر.

أيضا شارك حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية فى الانتخابات التشريعية التى أجريت فى ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٢ تحت اسم جديد قرره مجلسه الوطنى المنعقد فى ١٩٩٨ وهو «حزب العدالة والتنمية»، وذلك تحت شعار «نحو مغرب أفضل: أصالة، سيادة، ديمقراطية، عدالة، تنمية، من أجل نهضة شاملة». واعتمد مشروعه السياسى سلوك التدرج وعدم الاندفاع فى البحث عن موقع متميز داخل المشهد السياسى للمملكة المغربية. ومن أصل ٩١ دائرة انتخابية لم يتقدم مرشحوه سوى فى ٥٧ دائرة فقط، حصل فيها على ٤٢ مقعدا، احتل على أثرها المرتبة الثالثة بعد حزب الاتحاد الاشتراكى للقوات الشعبية (٥٠ مقعدا)، وحزب الاستقلال (٤٨ مقعدا). وأصبح بالتالى الحزب المعارض الأول. حاول الحزب خلال مختلف مراحل الولاية التشريعية (٢٠٠٢-٢٠٠٧) الظهور بمظهر الحزب المتزن من خلال محاولة تكريسه لمجموعة من التقاليد والسلوكات التى تتمثل فى ممارسة خطاب سياسى



حزب العدالة والتنمية المغربى يحاول تكريس خطاب توفيقى يمزج فيه بين القيم المرجعية التى يؤمن بها والقيم الديمقراطية الغربية



ينسجم والإطار الدستورى للدولة عبر المبادرة بمراقبة الحكومة من خلال الأسئلة، والتقدم باقتراحات تشريعية. وبمعنى آخر، عمل الحزب على البحث عن التوافقات والحلول فى صراعه مع الأطراف الأخرى من داخل الشرعية الدستورية وليس كما يشاع من خلال خطاب التخليق المستمد من المرجعية الدينية[11].

يستنتج من سلوك وممارسة حزب العدالة والتنمية أنه يحاول تكريس خطاب توفيقى يمزج فيه بين القيم المرجعية التى يؤمن بها والقيم الديمقراطية الغربية، بما يفيد أنه يحترم القيم الإنسانية المثلى مهما كانت مرجعيتها باعتبارها قيما واحدة فى النهاية. ويشكل هذا المعطى المدخل الأساسى لإمكانية انفتاح الولايات المتحدة على هذا الحزب، أى أن هذا الخط الأخضر يبقى محتفظا بحرارته حتى يثبت العكس.

حركة النهضة فى تونس

يساعد الاعتماد على قياس مؤشر مشاركة الحركات الإسلامية فى الحياة السياسية على فهم حدود ومدى إمكانية التقارب بين هذه الحركات والإدارة الأمريكية، وكذا أبعاده؟. ففى تونس شكلت سنة ١٩٨١ نقطة انعطاف أساسية، حيث أصبحت المواجهة مباشرة بين الإسلاميين والسلطة الرسمية، فهذه الأخيرة اعتبرت أن الإسلاميين. من خلال حركة الاتجاه الإسلامى[12]. يريدون تفكيكها عبر التسلل إلى الأجهزة الأمنية والسيطرة على الشأن الدينى من خلال إقدامهم على تنصيب الأئمة بالقوة فى المساجد[13]. ورغم مرحلة الانفراج خلال الفترة (١٩٨٤-١٩٨٥) اثر حصول التقارب بلقاء رسمى بين الحكومة (فى شخص مزالى) والإسلاميين (راشد الغنوشى وعبد الفتاح مورو) لكن التوتر يظهر من جديد وعادت المواجهة مع نهاية عهد بورقيبة (١٩٨٦-١٩٨٧). ثم خفت درجة الاحتقان السياسى بعد الانقلاب الأبيض للرئيس بن على وتقلده مسئولية رئاسة الدولة التونسية بعد بيان السابع من نوفمبر ١٩٨٧، حيث أكد على معاودة الارتباط بالمجال الدلالى التقليدى بطريقة ترضى الإسلام السياسى، وإدخال تعديلات دستورية تركز على سيادة القانون وإقرار تعدد الأحزاب ومشروعيتها، وإطلاق سراح حوالى ٦٠٠ سجين من أعضاء الحركة الإسلامية، ثم إصدار ميثاق وطنى يقضى بإشراك مختلف الفاعلين، وينص على دعم الديمقراطية والهوية العربية والإسلامية لتونس، باعتبار أن التعريب يشكل من وجهة نظره مطلبا حضاريا، ويلزم الدولة باحترام القيم الإسلامية. وفى إطار التكيف مع المناخ الجديد ومع الشروط القانونية الجديدة (قانون الأحزاب الصادر فى ٣ مايو ١٩٨٨) التى تمنع قيام الأحزاب على أساس دينى أقدمت «حركة الاتجاه الإسلامى» على تغيير اسمها لتحمل اسم «حركة النهضة»[14] وتمكنت الحركة من دخول المجلس الأعلى للميثاق فى نهاية سنة ١٩٨٨، وشاركت فى الانتخابات التشريعية لسنة ١٩٨٩ بمرشحين مستقلين بسبب رفض السلطة الاعتراف بهم كحزب سياسى بحجة أن زعماءها مازالوا تحت طائلة الأحكام التى أصدرتها فى حقهم محكمة أمن الدولة فى عام ١٩٨٧، وخلو مشروعهم من أى توضيح بخصوص بعض المسائل الحضرية ومبدأ المساواة بين المواطنين[15]. وقد أظهرت نتائج الانتخابات أن الحركة هى القوة الثانية بعد الحزب الحاكم (الحزب المهيمن) حزب الرئيس، وكانت هذه النتائج بمثابة إيذان بنهاية التوافق بين الحركة والسلطة لتبدأ مرحلة المواجهة (١٩٩٠-٢٠٠٦).

يشير هذا التحليل إلى المسار المتقلب فى العلاقة بين النظام والحركة الإسلامية على نحو لم يساعد عن الإفصاح عن النوايا بشكل صريح، وهو ما لم يساعد بدوره على بناء الثقة المتجسدة فى مبدأ القبول بالآخر كمنافس أو شريك، فغياب الانفتاح السياسى لم يساعد على ضمان شروط الحد الأدنى من التوافق الذى يمكن أن يساعد على تقريب الرؤى وتجاوز سلوك الصدام، وذلك على العكس من التجربة السياسية فى المملكة المغربية التى يغلب أطراف معادلتها السياسية سواء من الموالاة للنظام أو المعارضة الإسلامية أو اليسارية منطق التوافق والتفاهم فى حل الإشكالات السياسية خصوصا بعد سنة ١٩٩٠ . وهذا النوع من العلاقات المتوازنة هو ما ساعد على وضع لبنات ثقة تعتبر ثقافة الاعتدال أولى على ثقافة التشنج والتعصب، وهذا ما شكل بدوره مدخلا أساسيا لتغليب منطق القبول لدى الإدارة الأمريكية تجاه حزب العدالة والتنمية المغربى أخذا بعين الاعتبار كون هذا الحزب يعمل داخل نظام سياسى يعتبر من الأصدقاء والحلفاء المعول عليهم فى إطار المشروع الأمريكى الجديد لمحاربة ما يسميه «إرهابا». ومع الوضع فى التقدير أيضا ما يمكن أن يثيره هذا القبول من حساسيات لدى الحليف المفضل (إسرائيل). وتظل تلك المعطيات بعيدة فى حالة حركة النهضة. ■

هوامش:

(١) يشار فى هذا السياق إلى خطب الرئيس حول حالة الاتحاد

(٢) بيان الجماعة السلفية للدعوة والقتال الجزائرية يوم الجمعة ٢٦ يناير ٢٠٠٧.

(٣) خطب شيوخ تنظيم القاعدة: أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى التى تنشر على الموقع الالكترونى للتنظيم

(٤) يشار فى هذا السياق إلى أن قانون الأحزاب للمملكة المغربية تحت رقم ٣٦/٠٤ فى مادته الرابعة لا يجيز تأسيس الأحزاب على أساس دينى أو عرقى.

(٥) يعتبر عبد السلام ياسين المرشد العام للجماعة من خلال مجموعة من المؤلفات التى تحدد أرضيتها السياسية أهمها:

- الشورى والديمقراطية، ١٩٩٦
- حوار الماضى والمستقبل، ١٩٩٧
- حوار مع صديق أمازيغى، ١٩٩٧
- Islamiser la modernité، ١٩٩٨

(٦) عبد الالاه بن كيران: الحركة الإسلامية وإشكالية المنهج، سلسلة اخترت لكم (٢)، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩، (ص: ٩)

(٧) يراجع، عروس الزبير: الحركة الإسلامية المشاركة فى المؤسسات السياسية، حالة الجزائر، دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش، تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا، مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:١٢٣-١٤٧).

(٨) لوحظ فى الأيام الأخيرة أن الجماعة السلفية للدعوة والقتال خفضت من هدفها الأصلى وهو الإطاحة بالحكومة لصالح استهداف الغربيين والترويج لعملياتها من خلال استخدام مهارات متزايدة فى الانترنت.

(٩) أسسه الدكتور عبد الكريم الخطيب سنة ١٩٦٧ بعد انشقاقه عن حزب الحركة الشعبية الذى كان يقوده «المجحوب أحرضان» المعروف بميوله الأمازيغية. فرئيس البرلمان المغربى الدكتور عبد الكريم الخطيب يوم امتنع عن موافقة ملك البلاد لإعلانه حالة الاستثناء وهو الأمر الذى لم يرق للقصر فقام بالتضييق على الخطيب وبالتالى حصول الانشقاق وبعدها سيعرف الحزب مسارا مسدودا بحيث مورست حوله مجموعة من العراقيل دفعته للانسحاب من الساحة السياسية.

(١٠) وفى هذه الفترة كانت الحركة الإسلامية تدبر مشروعا اندماجيا بين فصيلين هما حركة الإصلاح والتجديد (كانت تصدر جريدة «الإصلاح» ثم «الراية») ورابطة المستقبل الإسلامى (كانت تصدر جريدة «الصحوة»). وقد توجت هذه الجهود بالإعلان عن تنظيم جديد يضم الفصيلين هو: «حركة التوحيد والإصلاح» بقيادة الدكتور أحمد الريسونى.

(١١) عبد السلام طويل: قراءة فى المسار السياسى لـ «حزب العدالة والتنمية المغربى» دراسة فى المفاهيم الحاكمة للمشاركة السياسية، دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش. تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا. مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:٩-٨٧).

(١٢) يراجع البيان التأسيسى لحركة الاتجاه الإسلامى فى ٦ يونيو ١٩٨١: راشد الغنوشى: الحريات العامة فى الدولة الاسلامية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ملحق.

(١٣) د. أعلية علانى: الإسلاميون بتونس بين المواجهة و المشاركة ١٩٨٠-٢٠٠٦. دراسات وبحوث الندوة الفكرية التى نظمها مركز الدراسات الدستورية والسياسية، كلية الحقوق مراكش، تحت عنوان: الإسلاميون والحكم فى البلاد العربية وتركيا، مراكش: ١٦-١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ (ص:١٥٨- ١٦٠).

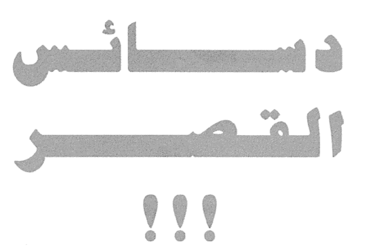
(١٤) يراجع القانون الأساسى لحركة النهضة. راشد الغنوشى: الحريات العامة فى الدولة الإسلامية. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥، ملحق.

(١٥) يعتبر راشد الغنوشى المنظر الرئيسى لحركة النهضة، ومن بين الكتب المرجعية التى حدد فيها الإطار السياسى لحركته نذكر:

- المواطنة، حقوق غير المسلم فى الدولة الإسلامية، تونس، دار الصحوة، ١٩٨٨ .
- الحركة الإسلامية فى تونس، بحوث فى معالم الحركة مع نقد ذاتى ٣ ، الخرطوم دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .
- من الفكر الإسلامى فى تونس، الخرطوم دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ .
- الحريات العامة فى الدولة الإسلامية، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥ .
- الحركة الإسلامية والتغيير، لندن، المركز المغاربى للبحوث والترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

فى العدد القادم

- العلاقة بين الشيعة والأمريكان
- رؤية الأخوان لأمريكا



محمد مزالى





إذا ابتسم المظلوم فقد الظالم لذة النصر، لقد علمتنى تجارب الحياة أن الناس يرضيهم النقص الذى فيك لأنه يكبرهم فى رأى أنفسهم ولكنهم يسخطون على مزاياك لأنها تصغرهم أو تغطى على مزاياهم...

عباس محمود العقاد



■ ■ أُعلن عن إقالتى، يوم الثلاثاء ٨ جويلية ١٩٨٦، وكانت فى بعض جوانبها تكريسا مأساويا ومضحكا فى آن للمثل الرومانى القديم الذى يؤكد أن صخرة «تاربى» التى منها يُقذف بالمحكوم عليهم بالإعدام نحو الهاوية، لم تكن بعيدة من الكابيتول، رمز ممارسة السلطة.

فى ذاك اليوم، بعد رجوعى من العمل، كنت جالسا أمام التلفاز، كعادتى، لمشاهدة شريط أنباء الساعة الثامنة مساء، إذ أن زوجتى وأولادى ذهبوا إلى بيت صهرى فريد المختار، رحمه الله، للمشاركة فى إحياء أربعينية وفاته فى حادث مرور.

بدأ شريط الأنباء بتلاوة بيان ألقته المذيعة، بصوت لا يخلو من رتابة، وبدون أى تأثر، قالت: «قرر الرئيس الحبيب بورقيبة إقالة السيد محمد مزالى من مهامه كوزير أول وتسمية السيد رشيد صفر فى منصب وزير أول». بدون تذييله بأى تعليق!

وبالطبع اندهشت لأن الحبيب بورقيبة لم ير من اللياقة دعوتى ليعلمنى بقراره قبل الإذن ببثه فى وسائل الإعلام. ولكن كان لى من التواضع والواقعية ما سما بى عن القول بما قال الشاعر:

«أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر»

وبقطع النظر عن الطريقة الفظة المتوخاة، فلم يكن الأمر، والحق يقال، ليعد مفاجأة بأتم معنى الكلمة. ذلك أن عدة علامات كانت تنذر بهذا التحول إزائى، وتنبئ بهذا التنكر لتكون صيغة هذا القرار محل استغراب كبير منى.

إن الروح الرياضية وإدراكى لقانون اللعبة الذى اكتسبته طوال ممارستى الطويلة للرياضة، دفعانى إلى أن أهتف بدون انتظار ولا تردد لرشيد صفر لأقدم إليه تهانى وأتمنى له النجاح فى مهمته الجديدة، وكذلك للاتفاق معه على موعد تسليمه مقاليد الأمور. وحددنا موعد المراسم ليوم الغد الأربعاء على الساعة العاشرة صباحا.

وفى صباح الأربعاء، عندما هممت بمغادرة بيتى، فوجئت باختفاء الأعوان المكلفين بحراسة مسكن الوزير الأول فى الغسق. وهذا التنكر للتقاليد المعمول بها كان فاتحة لسلسلة من السخافات الشائنة التى لم يتردد القوم فى تكرارها تجاهى بحكم صغر النفوس.

وظهر رشيد صفر الذى كان فى العادة يلقانى بحرارة وبشاشة، يوم كان وزيرا للاقتصاد فى الحكومة التى كنت وزيرها الأول، أشبه ما يكون بجلمود من جليد، بل كاد أن يكون عدوانيا، حتى أنه سألنى عن الكتب ورسائل بريدى الخاص التى كنت أتهيأ لأخذها معى هل هى حقا لى أم للدولة!! فاضطررت إلى إبراز كلمات الإهداء الموشحة بها بعض الكتب، وبيان مصدر بعض الرسائل: كاللجنة الدولية الأولمبية، واتحاد الكتاب التونسيين، الخ... وأحسب أنى وفقت فى إقناع هذا العساس اليقظ بملكيتى لتلك الوثائق.

ولما لم يأتنى أى خبر من بورقيبة، ورغبة منى فى توديع من كنت من مريديه المقربين، ورفيق دربه وابنه الروحى الوفى طيلة أكثر من أربعين عاما، طلبت مقابلته. فحددت لى ليوم الجمعة ١١ جويلية بالمنستير. وفى غضون ذلك، اجتمع أول مجلس للوزراء بعدى، يوم الخميس ١١ جويلية، واتخذ قرارا يقضى بإدراج اللغة الفرنسية فى السنة الثالثة من التعليم الابتدائى عوضا عن الرابعة. وكان أول قرار اتخذته الحكومة الجديدة على عجل، من دون دراسة بيداغوجية مسبقة، ولا استشارة النقابيين، ولا تشاور مع المربين المعنيين بالأمر.

وفى يوم الجمعة ١١ جويلية ١٩٨٦ قصدت القصر الرئاسى بالمنستير حيث استقبلنى الرئيس بورقيبة استقبالا لطيفا ووديا للغاية.

ولما دخلت القاعة حيث كان جالسا، مسكنى من يدى فأخذت بيده كالعادة، فاتكأ عليها حتى نهض، وحرص على الوقوف أمامى لتحيتى بحرارة. ولكن النشرة التى بثتها التلفزة، تصويرا للمقابلة، نالها مقص الرقابة فى الجزء الذى ظهر فيه بورقيبة معتمدا على لتحيتى واقفا. ولا يخفى أن هذا «البتر» غرضه إيهام المشاهدين التونسيين والأجانب بأن الرئيس كان غاضبا منى.

وليس إلحاحى على هذا الذى قد يظهر جزئية لا أهمية لها إلا لأن مثل هذه الممارسات الصبيانية كان لها صدى تجاوز الحدود التونسية. فقد كتب مثلا ميشال دورى، مراسل جريدة لوموند آنذاك، وربما عن حسن نية، معتمدا على البث التلفزى المبتور، أن بورقيبة لم يقف لاستقبال وزيره الأول، مما قد يوحى بأننى نحيت بسبب دوافع جدية تبرر «غضب» بورقيبة المفترض!



أقبلت على بورقيبة بوجهى قائلا: «سيدى الرئيس، هى خمسون سنة تقريبا مرت وأنا أخدم بلادى بقيادتكم من دون أن أخل، ولو لحظة واحدة،

نصيبى من الحقيقة
وزير أول في رئاسة بورقيبة يشهد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



بالتزامي. لقد ساهمت في الكفاح من أجل استقلال بلادي، وانخرطت جاهدا في العمل النقابي، وقدمت أفضل ما عندي من أجل بناء الدولة التونسية عند اضطلاعي بعدة مسؤوليات حكومية كان لكم فضل إسنادها إلي».

ثم ختمت كلامي باستعارة قرآنية وقلت:

«كلي أمل في أن ترجح كفة حسناتي على كفة سيئاتي، فأكون ممن ثقلت موازينهم!».

كانت تلك طريقة لطيفة لجره إلى إعلامي بالدافع الذي جعله يتخذ «قرار» إنهاء مهمتي، بعد ثلاثة أسابيع فقط من تعيينه لي رسميا خليفة له، أمام الشعب التونسي قاطبة، وأمام جميع ممثلي المجموعة الدولية المعتمدين بتونس، أثناء مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري المنعقد من ١٩ إلى ٢١ جوان من السنة نفسها.

لقد جمدني جوابه عن سؤالي في مكاني، وأصابتني الدهشة وحتى الارتياب أكثر من إقالتي في حد ذاتها، وأكثر من الطريقة غير اللائقة التي اكتنفت هذه الإقالة، إذ قال بورقيبة بلهجة فيها كثير من اللطف، وشيء من التأسف:

«يا سي محمد عربت ياسر (يعني كثيرا) التعليم؟ قلت لك لا تعرب».

ذاك كل ما قال. ولم يزد شيئا. هل سمعت؟ وكذبت سمعي. وهكذا يكون هذا التغير المفاجئ بهذا الوجه، وهذا التنكر نفسه لقرار اتخذ، يوم ١٩ جوان أمام الملأ، بصورة رسمية ولم يجبره أحد على اتخاذه، وهذه الركلة المباغتة للأعراف المؤسساتية المتفق عليها، كل هذا كان سببه إصلاح بيداغوجي يعود، في الواقع، إلى عشر سنوات مضت، وأمضيت في سبيل تطبيقه أربع سنوات بصفتي وزيرا للتربية، بإشراف الهادي نويرة الوزير الأول في تلك الفترة، ويقينا بالموافقة الصريحة من بورقيبة نفسه.

وإذا كان للرئيس، في وقت من الأوقات، أن يغير رأيه في هذا الإصلاح فلا شيء كان يمنعه من إيقاف العمل به، ولو بعد عشر سنوات، من دون اللجوء إلى هذا الزلزال المؤسساتي.

لقد حيرني، شيئا ما، توضيحه لـ«سبب» عزلي. كنت أنتظر أن تكون أسباب القرار الرئاسي أكثر جدية وربما أخطر.

إنه مشهد سريالي، ولكنه واقعي شرح فيه، وجها لوجه، رئيس دولة، لوزيره الأول الذي كان عينه خليفة له قبل شهر من ذلك، أنه مجبر على عزله... من أجل تقديم تعليم اللغة الفرنسية بفصل (من السنة الرابعة ابتدائي إلى الثالثة)، هذا الرئيس الذي كان بالأمس محل إعجاب الجميع لما عرف به من رشاقة في تحاليله، وحكمة في مبادراته، وشجاعة في مواقفه، وقدرة استشرافه للمستقبل!

قلت له متسلحا برباطة جأشي، وساعيا إلى قطع حبل الصمت:

«سيدي الرئيس، البارحة قررتم إدراج اللغة الفرنسية في السنة الثالثة، عوضا عن الرابعة. كل أملي أن تجدوا العدد الكافي من المعلمين الأكفاء، من ذوي اللسان الفرنسي، لا فقط في المدن الكبرى بل كذلك في القرى والأرياف».

وسكت بورقيبة. ولم يجب عن هذه الملاحظة. ومد إلي يده وقال لي بلهجة ودية:

«شكرا سي محمد على كل شيء وتحياتي إلى فتحية» زوجتي.

شكرته بدوري واستأذنت منه للانصراف. وكانت تلك آخر مقابلة لي، على انفراد، مع هذا الرجل الذي لعب دورا كبيرا في حياتي.



وغادرت القصر الرئاسي تحدوني مشاعر غريبة. كنت حزينا من أجل نهاية علاقة أجهضت، وكانت من قبل على غاية من المتانة والثراء. وكنت أيضا متأثرا شديد التأثر من جراء غرق رجل فذ في بحران الشيخوخة حتى أصبح لعبة تتقاذفه دسائس أنذل جلسائه. وتذكرت بيتا قاله أبو العلاء المعري:

«وكيف يصول في الأيام ليث
إذا وهنت المخالب والنيوب»

ولكنني كنت، في الآن نفسه، مرتاحا لأنني لم أعد مسؤولا في دفة مركب في مهب الرياح شأنه شأن «المركب السكران» الذي وصفه الشاعر الفرنسي رامبو. وشعرت بأنني خفيف كالريشة بعد انعتاقي من أسر المسؤولية الجسيمة، فكأنني نزعت عن كتفي ثقلا فرضت على نفسي حمله دهرا طويلا: كنت أشبه بسيزيف، وقد تخلص من صخرته! ومضى بي الإحساس إلى الشعور بأنني، مهما كان أمر العكسيات التي يتلقاها الإنسان في الحياة السياسية في ظل نظام سلطوي، قد حاولت، على كل حال، أن أوفي ما علي القيام به من مسؤوليات تجاه وطني بأحسن مما كان في استطاعتي. وفي الوقت الحاضر يمكن لي أن أوطن نفسي على نوع من الانتحاء أكثر ذاتية. متمثلا في صرف وقتي كله لمجلة الفكر التي دامت أكثر من ثلاثين سنة، وإلى اللجنة الدولية الأولمبية، وإلى الكتابة.

والحقيقة أنني لم أعدم الفرصة للانشغال بالقضايا الفكرية، حتى عندما كنت أرزح تحت مسؤوليات الوزارة الأولى. لقد كان ذلك حاجة في أعمق أعماق طبيعتي الأولى ومطلبا أساسيا في حياتي.

لقد قمت بأعمال صادفت شيئا من النجاح في الخارج، ولكنها جلبت لي على الصعيد الداخلي بعض العداوات المكينة ضمن حاشية بورقيبة المقربة.

ورغم السحب التي تلبدت فوق رأسي من جراء هذه المبادرات، فإنني غير نادم على القيام بها لأنها ساهمت، إن قليلا أو كثيرا، في تلميع صورة تونس عالميا.

إن هذه النجاحات العالمية شحذت غيرة عدد من حاشية بورقيبة، فهاج بهم داء الحسد وهو أقدم الأدواء، وأثارت كوامن خشيتهم من أن أحوز القامة التي تخول لي أن أكون الخليفة، بلا منازع، لرئيس أصبح تحت كلكلهم، مستغلين وهن شيخوخته. ولم أفطن آنذاك أنني كنت بمثابة «الدلفين» في بحيرة تعج بالتماسيح!

ورغم كل شيء، واصلت حرصي على تلميع صورة تونس دوليا، وتصحيح ما كان ينال البلاد من انتقاص نتيجة نزوات رئيس أوهنته الشيخوخة، وضعفت يداه عن الاستمساك بصولجان الحكم، فتلاعبت به المناورات.

وكان من الهين علي نسبيا، والحال هذه، أن أملأ الفراغ الذي أحدثته إقالتي فأفكر بسرعة في القيام بأعمال أخرى تمت بسبب إلى عالم الأفكار والإبداع، وتصورت إحالتي على المعاش المفروضة علي مجالا يسمح لي بصرف همتي إلى أنشطة ثقافية من شأنها أن تشبع هوايتي الثانية، وأن تتيح لي الفرصة لمواصلة العمل في سبيل خدمة الثقافة التونسية، وتنميتها داخليا، وإشعاعها خارجيا.



ولكن، يا للأسف، أثبتت لي الأيام أن هذا التوق السلمي والشرعي لم يكن إلا أضغاث أحلام ومطلبا بعيد المنال. فقد كان ذلك من دون أن أقرأ حسابا للتهور الشرس الذي ستلاحقني به بطانة بائسة، وحساد سادرون في غيهم، وأصحاب طموح صغار. هؤلاء الدائرون في فلك رئيس بلغ به العجز أقصى حدوده، لم يغفروا لي أبدا يوم ١٩ جوان ١٩٨٦، ذاك اليوم الذي عينني فيه بورقيبة رسميا خليفة له، وجعلتهم، من دون قصد مني وسابق إضمار، غارقين في عرق الغلبة.

فمنذ سنة ١٩٧٥ فرض بورقيبة تنقيحا دستوريا، يجعل من الوزير الأول خلفا له بصورة آلية في حالة الشغور، وذلك حتى آخر المدة النيابية الجارية. كان ذلك بمقتضى الفصل ٥٧ من الدستور الذي ينص على ما يلي: «عند شغور منصب رئاسة الجمهورية بسبب الوفاة أو الاستقالة أو العجز التام يتولى فورا الوزير الأول مهام رئاسة الدولة لما بقي من المدة النيابية الجارية لمجلس الأمة...». ولم يكتف بورقيبة بالتنصيص على الشرعية الدستورية بل ذهب به الأمر إلى تشخيص السلطة فذكر بالاسم الوزير الأول المتولي تسيير المرحلة الانتقالية من الحكم في حالة الشغور.

محمد مزالي

نصيبي من الحقيقة

وزير أول فى رئاسة بورقيبة يشهد

لقد قال ذلك علنا لجسكار دستان رئيس جمهورية فرنسا آنذاك، فى خطاب توجه به إليه، عند استقباله والترحيب به سنة ١٩٧٣، وعنى الهادى نويرة فى ذلك الوقت. وكرر الأمر نفسه يوم عيننى وزيرا أول، وبعد ذلك فى العديد من المناسبات، وخصوصا فى خطابه الذى افتتح به مؤتمر الحزب الاشتراكى الدستورى يوم ١٩ جوان ١٩٨٦ وقبل ذلك، وخلال مأدبة غداء رسمية أقامها الرئيس بورقيبة على شرف جاك شيراك رئيس الحكومة الفرنسية يوم ٢٤ ماى ١٩٨٦. قال هذا الأخير متوجها بقوله إلى بورقيبة: «إن فرنسا تكن تقديرا كبيرا للسيد مزالى. وأعتقد أنكم أحسنتم الاختيار». ورد عليه بورقيبة قائلا: «اطمئنوا.. فسيكون خليفتى». وقيل كلام الرجلين على مرأى ومسمع كثير من الحاضرين. وكان شيراك قال الكلام نفسه فى أبريل ١٩٨٦ عندما استقبلنى بباريس بحضور سفير تونس بفرنسا.

وأكثر من ذلك، فلقد سمى بورقيبة خليفة الخليفة، إذ أوصانى أكثر من مرة بأن أعين رشيد صفر وزيرا أول فى الوقت المناسب. وقال يوم ٢٢ جويلية ١٩٨٥ فى خطاب توجه به إلى الكتاب العامين للجان التنسيق مؤكدا تسليمه رئاسة الدولة بعد غيابه إلى محمد مزالى الوزير الأول الذى هو خليفته بمقتضى الدستور: «أوصيه بأن يتخذ رشيد صفر وزيرا أول». وأذكر أن زوجته الثانية وسيلة قالت له بحضورى: «أنت ساذج. لأن محمد مزالى له مرشحه من الآن، وهو المازرى شقير. أجابها بورقيبة على الفور: «والله إن لم ينفذ وصيتى أخرج له من قبرى محتجا!».

وهكذا لم تكن المسألة بالنسبة إلى بورقيبة تتعلق برئيس مؤقت عليه مواجهة التصويت العام كبقية المرشحين، بل بخليفة معين مسبقا ليتولى أعلى مسؤولية فى الدولة.

لقد كان الإجراء الدستورى المذكور والتركيز على شخص بعينه، بمثابة «لعنة» نزلت على كل من تولى الوزارة الأولى، من الهادى نويرة، إلى شخصيا. لقد جعل بورقيبة من الوزير الأول الخليفة الآلى، والمؤقت فى الحقيقة، خصما، بل عدوا لدودا لكل من آنس فى نفسه التطلع إلى الخلافة. وكثيرا ما يحدث، فى هذه الحال، أن تجتمع عصابة، لا يكون بين أفرادها أى تجانس أو تعاطف، وإنما الذى يوحد بينهم هو حقد مكين للخليفة «المؤهل دستوريا». لذا تفاقم، بالنسبة إلى، الوضع سوءا عندما تدهورت صحة بورقيبة. وهو ما أذكى من حولى النيران فزادت استشراء، وشجع المناورين الذين أعمى بصيرتهم قرب الموعد الحاسم. وكما قال الشاعر:

«قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا»

أو كما قال البحترى:

«إياك أن تطمع فى حاسد
فى كل ما يبديه من ود
فإنه ينقض فى سرعة
جميع ما يبرم من عقد»

لقد كنت فى قصر الحكومة بالقصبة أعمل بظهر مكشوف، لا أقدر على اتقاء سهام الليل المصوبة نحوى من الحاشية، غير قادر دائما على الاحتراس من مخالب بعض «الزملاء» فلحقنى ما لحق أسلافى فى الوزارة الأولى من أذى وعنت، فى خضم أجواء غذتها المكائد والمؤامرات. وكان على رأس القائمة امرأتان، لا يجمع بينهما إلا حقد دفين متبادل. لكنهما اجتمعتا فى هذه المرة على أمر واحد هو العمل على تنحيتى. لم أكن بالطبع تحت جناح الأولى، الملقبة بالماجدة، ولا تحت حماية الثانية المعروفة ببنت الأخت. ولعل الحماقة هى السبب فى كثير من الشر أكثر من الخبث.



وانضاف إلى هاتين المرأتين آخرون سعوا ما استطاعوا إلى عرقلة مهمتى، وإثنائى عن المضى قدما فى أداء رسالتى. منهم سفير تونس فى فرنسا، آنذاك، الهادى المبروك. لقد تميز عن الآخرين بحماسه الكبير، المنقطع النظير فى مساعيه الرامية إلى إقامة العقبات فى طريقى، من ذلك مثلا أن شيراك عندما تولى رئاسة الحكومة الفرنسية فى مرحلة «التعايش» الأولى، عبر عن رغبته فى زيارة تونس وساحل العاج للقاء «حكيمى إفريقيا»، الرئيسين بورقيبة وهفوات بوانيى. وأعلمنى الهادى المبروك بهذه الرغبة، واقترحت موعدا قبله شيراك.

أعلمت الرئيس بورقيبة بالأمر فرحب بذلك. ولكن قبل يومين من موعد الزيارة، هتف لى الهادى المبروك، وأعلمنى أن جاك شيراك مضطر إلى تأجيل الموعد لأسباب قاهرة متصلة برزنامته. فاقترحت تاريخا آخر لاقى القبول والاستحسان من الضيف. وقبل حلول هذا الموعد الجديد بيومين، هتف لى المبروك وكرر لى الأعذار نفسها، وبالعبارات ذاتها، أجبته حريصا على أن يقول لشيراك: «لا مجال للقلق، فمتى أردت جئت أهلا ونزلت سهلا. ويكفى إعلامى بموعد الزيارة قبل مدة قليلة. وسأرتب الأمر مع الرئيس بورقيبة». هكذا تم الاتفاق وانهمكت فى مشاغلى العادية.

ولشد ما كانت دهشتى كبيرة عندما اكتشفت حقيقة أمر التأجيل المتكرر لزيارة شيراك. ذلك أننى استقبلت عبد الحميد بن عبد الله بطلب منه، وهو دكتور فى الحقوق وصديق لعائلة شيراك. كنت عرفته يوم ٣١ ماى ١٩٨٥ فى فندق كريون بمناسبة حلولى بباريس لتقديم أحد مؤلفاتى للصحافة الأجنبية، ولبعض الشخصيات الفرنسية، بدعوة من البشير بن يحمد، مدير مؤسسة «جون أفريك» التى نشرت كتابى «الحركة الأولمبية اليوم». قال لى بن عبد الله فيما قال: «إن شيراك متأسف، بل هو حزين، أن أجل صديقه محمد مزالى مرتين موعده لزيارة بورقيبة».

ويمكن لأى كان أن يتصور مدى استغرابى للأمر. وشرحت لابن عبد الله جلية ما وقع. وهتفت لشيراك، مؤكدا له استعدادى لاستقباله متى شاء، ضامنا له موعدا مع الرئيس. وشعرت أن شيراك كان يشاطرنى مدى استغرابى من تصرفات السفير وغموض وخطورة الدور الذى يقوم به، المخالف للأعراف الديبلوماسية، والمتنافى مع التقاليد الإدارية المعهودة بين بلدينا، والمضرة خاصة بمصلحة تونس العليا.

وتمت زيارة شيراك يوم السبت ٢٤ ماى ١٩٨٦ فى أحسن الظروف. حتى أن بورقيبة حرص على استقباله شخصيا بالمطار خلافا للمراسم العادية. ثم امتطى الضيف سيارتى. وتبادلنا الحديث حول كل ما عكر جو الزيارة التى كادت أن تبطل. وفجأة قال لى: «ما هى علاقاتك مع السيد المبروك؟». أجبته: «إنها عادية، بل هى طيبة إلى أشهر قليلة. غير أنه منذ بداية السنة خيمت عليها بعض الغيوم لأسباب لا أفهمها». أجابنى شيراك: «نعم! بعد مكالمتنا الهاتفية اتصلت به وقلت له: «يا هادى. كفى! (كذا!). كن مخلصا لوزيرك الأول!». وقد جمعت بينهما صداقة حميمة، تجاوزت المودة العادية بين كبار المسئولين بما سمح لشيراك بتهديم «حرف الآجر» معه!...

وكان خطئى الفادح أن أعرضت عن إخبار بورقيبة بتصرفات السفير غير المقبولة والمضرة بمصلحة تونس العليا. وليس من شك فى أن رد فعله كان يكون حالا وضع حد لمهمته بالديار الفرنسية، ولكنت عند ذلك أرحت نفسى من واحد من بين المتآمرين الكبار. إلا أنى أشفقت أن يكون لذلك انعكاس سيئ على جو الوئام والصفاء بين البلدين. ولكن هل الحذر فى إمكانه أن يدفع المقدور؟



لا أدرى كم بذلت من جهد، وكم أنفقت من وابل النصح والإقناع، ولا أدرى كم سعيت بإصرار منقطع النظير من أجل تدارك خطإ سياسى فادح ارتكب منذ ١٩٧٨، لإنقاذ نقابى - مثل الحبيب عاشور - من الإقامة الجبرية، بعد أن قرر بورقيبة، مرة أخرى، تحت تأثير نزوات تسلطية حادة، رميه فى غياهب السجون. وكذلك كم فعلت من أجل حماية العديد من رجال السياسة، مثل أحمد المستيرى، من نقمة بورقيبة الذى كان يكن له حقدا دفينا، لا لشىء، إلا لأنه، وهو القيادى المرموق فى الحزب الاشتراكى الدستورى،

عندما هممت بمغادرة بيتى، فوجئت باختفاء الأعوان المكلفين بحراسة مسكن الوزير الأول. وهذا التنكر كان فاتحة لسلسلة من السخافات الشائنة التى لم يتردد القوم فى تكرارها



خرج عن صفه، بل، فى اعتباره، خانه، يوم أن تنصل من حزبه، وقدم استقالته وأنشأ حركة الديمقراطيين الاشتراكيين التى أصبحت بمر الأيام المحرك الفعال للمعارضة بأجمعها حتى سنة ١٩٨٦ .

وفى هذا الموضوع، كتب دى لافريفيار فى صحيفة لوموند بتاريخ ١٩٨٧/٧/١٩: «فى حقيقة الأمر، لم يعد الوزير الأول، منذ أشهر طويلة يتحكم فى اللعبة السياسية، وحتى فى الشؤون التى هى من مشمولاته. فالمجاهد الأكبر هو الذى قرر الحسم فى شأن الحبيب عاشور وسجنه، وهو الذى جد فى الإساءة إلى أحمد المستيرى، وزيره الأسبق، منكرا عليه استقالته من الحكومة».

وإذا كان بورقيبة رأى فى مسعى أحمد المستيرى خيانة، فإنى كنت أعتبر مواقفه عملا من صميم حريته وشعوره بالمسؤولية. وهو أمر يرفع من شأنه فى عينى، ويزيده احتراما على الاحترام الذى كنت أكنه له. وقد برهنت على ذلك يوم توصلت، بشق الأنفس، إلى الحصول على موافقة بورقيبة على إطلاق سراحه، وهو مريض، بحيث تمكن من إجراء عملية جراحية فى مصحة خاصة، لا فى المستشفى العسكرى. وقد اتهمنى ظلما فيما بعد بعض معارضى الصالونات بالتهاون فى حق هذا الرجل المحترم. وكم كنت سعيدا يوم أكد لى عمر المستيرى، ابن أخيه، قائلا: «يا سى محمد، اطمئن، فأنا عارف بالقضية فى تفاصيلها. وقد كنت بجانب والدى، عندما هتفت له، ورجوته أن يذهب لتوه إلى المستشفى العسكرى لإخراج أخيه منه وعلاجه حيث تريد العائلة».

وجاء بجريدة لوموند، فى افتتاحية لها بتاريخ ٩ جويلية ١٩٨٦، على إثر عزلى، مع صورة كاريكاتورية بإمضاء «بلانتو» ظهر فيها قيصر وهو يطعن بخنجر ظهر ابنه بروتوس، ما يلى: «إن عزل السيد مزالى فى هذه الظروف له معنى رمزى. ذلك أن رجل الانفتاح والديمقراطية رسم صورة لنفسه اعتبرها بورقيبة اليوم غير صالحة. إذ أن خصوم الوزير الأول أخذوه على ما اعتبروه تهاونا. لأن الديمقراطية عند بعض الدكتاتوريين تعد تهاونا. ذلك أن ساعة أصحاب القبضة الحديدية قد دقت، ولا شك أن السيد مزالى قد دفع ثمن اضطرابات الخبز التى وقعت فى جانفى ١٩٨٤، ويبدو أن هذا الوزير الأول ذا السجية الطيبة، والمتفتح، والحريص على أن تكون علاقاته مع الجميع على أحسن حال قد انتهى به الأمر فى آخر المطاف إلى استعداء الكثيرين... فأخذته المعارضة فى النقابات والأحزاب السياسية على قرارات فوقية نفذها رغم أنفه».

ومن المفيد أن نذكر هنا تعليق فولد سميث مراسل وكالة أسوسايت براس بتونس، قال: «إن تونس، البلد الأكثر تأثرا بالغرب فى العالم العربى، توشك أن تدخل مرحلة طويلة وخطيرة من الحيرة، بعد القرار المفاجئ الذى اتخذه الحبيب بورقيبة، الرئيس مدى الحياة، والقاضى بعزل محمد مزالى الوزير الأول وخليفته، وهو فى الواحد والستين من العمر. لقد استطاع الوزير الأول مزالى، فيما بين ١٩٨٠ و١٩٨٦ أن يبعد أخطار الفوضى والتخريب التى كان يدبرها الجار الليبى معمر القذافى. واستطاع أن يقود تونس فى جو من الكساد الاقتصادى خطير، وتحت تأثير «ثورة» الخبز الدموية، وفى ظل التحدى الذى فرضه الإسلاميون الأصوليون، ومنذ يوم الثلاثاء لم تقل أية صحيفة يومية وطنية كلمة استحسان تصف بها الجهد الذى بذله مزالى منذ سنة ١٩٨٠ . والإشارة الوحيدة التى تعلقت بالوزير الأول الأسبق كانت فى البلاغ الحكومى المقتضب الذى أعلن بدون أبسط شرح عن تعيين السيد بورقيبة لرشيد صفر وزير الاقتصاد، عوضا عن محمد مزالى فى منصب الوزير الأول، وخليفة بورقيبة، والأمين العام للحزب الاشتراكى الدستورى الحاكم.

«ولقد أطنبت وسائل الإعلام التونسية من صحف، وتلفزة، وإذاعة، فى كيل المدح لرشيد صفر البالغ من العمر ٥٣ عاما، وفى التنويه بأمانته، وفعاليته، غير أنها أمسكت عن نقد أو شكر سلفه، وكأنه لم يوجد أبدا.

«ويدل هذا التغيير الحكومى الهام، إن كان هناك حاجة للبرهان، على أن شعبا يعد ٧ ملايين نسمة انقاد انقيادا أعمى لإحدى نزوات رئيسه، البالغ من العمر ٨٢ عاما، والمصاب بداء تصلب الشرايين، والذى لا يقدر على الكلام والحركة إلا بالمساعدة.

إن السيدة سعيدة ساسى، وعمرها ستون سنة، تسكن القصر الرئاسى بضاحية قرطاج بصورة مستمرة. وعلى الرغم من كونها تبدو غير مطلعة على الشؤون السياسية، فإن العديد من الدبلوماسيين يعتقدون أن لها تأثيرا على بورقيبة فى خصوص تكييف الحكومة وسياستها حسب مشيئتها. وفى شهر جانفى الماضى، حدث شجار بينها وبين وسيلة زوجة الرئيس، وانتهى بخروج وسيلة من القصر، وإعلان بورقيبة عن عزمه على طلاقها».

وطرأ حادث ثالث جاء ليؤكد مسعى المتآمرين الحثيث للمضى قدما فى مكائدهم. لقد أقنعوا بورقيبة بتجاوز صلاحياته القانونية، وعدم الاقتصار على تعيين أعضاء الديوان السياسى، كما كان يفعل ذلك منذ الاستقلال، وحثوه على أن يعين أيضا التسعين عضوا المكونين للجنة المركزية. وكان المفروض، حسب النظام الداخلى للحزب، انتخابهم من المؤتمر نفسه. وكانت النتيجة طبعا أن اختفى من هذه القائمة أسماء العديد من أصدقائى.

وعندما أعلمنى بورقيبة بأنه سيقوم بنفسه بإعداد قائمة أعضاء اللجنة المركزية اضطربت. وفكرت حتى فى القيام بعمل مشهود والإعلان عن استقالتى أمام كافة المؤتمرين. ولئن لم أفعل ذلك فلأننى كنت متوقعا أن بورقيبة قادر على تدارك الأمر، ومراجعة أخطائه كما فعل ذلك أكثر من مرة فى الماضى. غير أنى أخطأت فى تقديرى للموقف. وما زلت إلى حد اليوم نادما على تفريطى فى فرصة ثمينة كنت أتمكن بها من الخروج من لعبة مغشوشة، مرفوع الرأس، موفور الكرامة، بقطع النظر عن الإجراءات الانتقامية التى كان من المتوقع أن تنالنى. وتنال أفراد عائلتى.

كنت أعلم أن شرعيتى متأتية من بورقيبة، ومن بورقيبة وحده. وكنت أحدث نفسى بأنه إذا أراد إعفائى من مسؤولياتى، لسبب من الأسباب، فلا شك أنه سيفاتحنى فى ذلك، ولربما يكون من الأفضل أن تجرى الأمور على هذا النسق. فأتفرغ عند ذلك لعائلتى، ومجلتى، واللجنة الدولية الأولمبية كما سبق أن قلت. ذلك أنه بالنسبة إلى، أن أكون وزيرا أو وزيرا أول، فإنما هى فرصة تتاح لى لخدمة بلادى. وكنت أقول فيما بينى وبين نفسى إنه ما دامت تونس، من خلال بورقيبة الذى يجسمها آنذاك، فى حاجة إلى، فإنى لن أتأخر عن الاستجابة لندائها، غير متردد مهما كانت التضحيات. طالما أن خدمة بلادى هى عندى أكثر من واجب، هى ضرب من التعبد.

ولكن عندما تنتهى رسالتى، فسأمضى وشأنى، لا ألوى على شىء، منشرح الصدر، مرتاح الضمير. غير أن المشكلة تكمن - كما كان الأمر، ولا شك، بالنسبة إلى من سبقنى - فى أن عزلى هو نتيجة دسائس دنيئة قامت بها حاشية بائسة، لا نتيجة معقولة لمهمة حان وقت انتهائها، أو بداية وجهة سياسة جديدة من الحتمى تطبيقها. بينما تم عزلى بعد ثلاثة أسابيع من تثبيتى فى مسؤوليتى على مشهد من الجميع، وتبين من ذلك مدى ما وصل إليه نظام الحكم آنذاك من خضوع لمناورات الحاشية، ولنزوات شيخ تلاعبت به الأهواء، ولطموحات رهط من الطفيليين بلعموه بلعمة. ومهما كان الأمر، ورغم ما كنت أشعر به من حزن أمام انهيار رجل كان بالنسبة إلى معلما فإن الإحساس الذى تملكنى حينذاك هو الارتياح.

وبعد أيام من لقائى الرئيس صدر بلاغ من

النجاحات العالمية شحذت غيرة عدد من حاشية بورقيبة، فهاج بهم داء الحسد وهو أقدم الأدواء، وأثارت كوامن خشيتهم من أن أحوز القامة التى تخول لى أن أكون الخليفة






الرئاسة يعلن ما يلى: «أعفى السيد محمد مزالى من كل نشاط داخل الحزب».

كنت أمينا عاما للحزب؛ ووددت لو بقيت عضوا باللجنة المركزية، أو مجرد مناضل بسيط فى إحدى الخلايا القاعدية، ولكن قرارا من الرئيس حرمنى، تعسفا، حتى من ذلك، والحال أننى بدأت النضال فى صفوفه وسنى ١٣ أو ١٤ عاما.

لم يشفع هذا القرار بأى تعليل وتبرير، ولا كان أيضا تنفيذا لتوصية صدرت عن أية هيئة حزبية راجعة إلى هيكله، بينما كان يقتضى الأمر أن تقرر ذلك، حسب النظام الداخلى للحزب، هيئة تأديبية تسمى لجنة النظام.




وفى مناسبة أخرى قال بورقيبة متعجبا، وقد ضاع رشده: «لقد دقت الساعة التاسعة صباحا، ومحمد مزالى لم يأت كعادته، ماذا جرى له؟». وأحيانا يحاول القوم تأليبه على، مؤكدين أننى أسأت التصرف، ولكنه كان يقول مشمئزا: «محمد لا يفعل ما تقولون، إنه نزيه ومستقيم». وهذا نقله لى أكثر من شاهد.

وفى يوم من الأيام، صاح بذلك القول، أمام تربته بالمنستير، فى وجه سعيدة بصوت عال سمعه حتى السواق وأعوان الأمن.

ولما رأى المتآمرون أن ألوان الانتقام التى سلطت على ابنى لم تأت أكلها، سرعان ما انتقلوا إلى السيناريو الثانى المبرمج. فألقوا القبض على صهرى، الدكتور رفعت الدالى، فى أوت، بينما كان ابنى قابعا فى السجن، وسيبقى هناك سنة ونصفا. وتعرض رفعت إلى الاستنطاق العنيف فى مقر وزارة الداخلية. والتهمة الموجهة إليه هى أننى اشتركت معه، ومع أربعة من أساتذة الطب، فى إعداد خطة لتنحية بورقيبة من الحكم، بحجة أنه لم يعد قادرا على الاضطلاع بمهامه. وكأن ذلك كان تنبؤا بما سيتم ثمانية عشر شهرا بعد ذلك!

ونال صهرى من التعنيف أشده حتى يعترف بأنه حاك مؤامرة ضد بورقيبة، وهو أمر يدعو إلى الغرابة! ونجح هذا السيناريو أكثر من سابقه. ذلك أن بورقيبة الذى كان يظهر شيئا من التسامح فى العديد من المواقف، لا يرحم من ينال، أو يريد النيل، من سلطته. لذا دعا الوكيل العام للجمهورية، سيئ الذكر الهاشمى الزمال وقال له ما معناه، حسبما أعلمت به فيما بعد: «مزالى أراد تنحيتى. يجب إيقافه، والحكم عليه بالإعدام، ثم التنفيذ عليه شنقا قبل ٣١ ديسمبر ١٩٨٦».

وأردف: «أعلم أن عددا من البلدان العربية والأوروبية ستتدخل، ولكننى سأثبت على موقفى، ويجب شنق محمد مزالى كما وقع لعلى بوتو فى الباكستان».

إن هذه المعلومة دفعتنى إلى التفكير فى الهروب من تونس. وهذا القرار ليست له أية صلة بالشعور بالذنب. ولكن، بما أنى رأيت بعينى رأسى كيف عامل بورقيبة بشدة كل من حاولوا النيل من سلطته، فإننى لم أكن لآمل أن أحاكم محاكمة عادلة، ولا رحيمة. فلا يحق لى، إذن، أن أسمح لنفسى بأن أقاد إلى المشنقة، مكتفيا بإعلان براءتى. ولو فعلت ذلك لكانت المأساة لشخصى ولعائلتى، ولكان ذلك انتصارا للماكرين والأفاكين، وهزيمة للاستقامة والتضحية.

وهكذا قررت أن أترك الجلاد ينتظر وهو يمسك بالحبل الذى أعد لشنقى.

ولم يكن فى مقدورى أن أتحمل المصير نفسه الذى تحمله قبلى الوزراء الأول، فألحق بقائمة المنبوذين، والملعونين الطويلة. فقررت، إذن، أن أغادر بلادى، خلسة، فى أقرب فرصة تتاح لى.

وتذكرت بيت أبى العلاء:

«من لى أن أقيم فى بلد
أذكر فيه بغير ما يجب»!

وقد عبر عدد من الأصدقاء والملاحظين عن شكهم فى هذه الرواية، وربما لا يزال بعضهم يعتقدون أن بورقيبة لم يأمر أبدا بالحكم على بالإعدام. ويرون أننى كنت ضحية مناورة، وتضليل، حتى أغادر التراب التونسى. ولكنى لست على يقين بصحة هذا الرأى! أولا لأن مصدر الخبر الذى تلقيته موثوق به، ثم لأن الزمال أكد عمليا هذا السيناريو عندما امتنع مرتين عن تكذيب الأمر.

ففى شهر مارس ١٩٨٨، استقبلت بباريس رئيس تحرير جريدة تونسية مرموقة، وسألنى عن أسباب هروبى من البلاد. فأكدت له أنى فعلت ذلك لإنقاذ حياتى، والدفاع عن أبنائى الذين زج بهم فى غياهب السجون... وبعد ذلك بأسابيع قليلة، زارنى بدوره مساعد رئيس تحرير الجريدة نفسها، وأعلمنى أنه، حرصا منه على مواصلة التحقيق، بعث صحفيا شابا، نسيت اسمه، إلى الزمال يستجليه الأمر. سأله:

«إنك قرأت تصريحات مزالى بخصوص أسباب هربه؟ ما رأيك؟

- كنا أربعة مسؤولين حول الرئيس، لماذا اخترتنى أنا بالذات لأجيبك؟...»

وجاء فى عنوان بصحيفة «تونس هبدو» فى عددها الصادر يوم ١٧ أفريل ١٩٨٨، وبالصفحة الأولى ما يلى: هل خطط بورقيبة لشنق مزالى؟ وشرحت الجريدة، ودائما بالصفحة الأولى، قائلة: «إن مزالى كشف عن واقعة تقول بأن بورقيبة استدعى مساء الهاشمى الزمال، الوكيل العام للجمهورية (وهى خطة حذفتها سنة ١٩٨٠ حال تعيينى وزيرا أول، ورجع العمل بها فى جويلية ١٩٨٦ بعد عزلى، ثم حذفت من جديد، بعد السابع من نوفمبر ١٩٨٧)، وليبين له أنه عليه إلقاء القبض على مزالى، فى آخر أكتوبر، مع نهاية المدة النيابية، وإحالته على المحكمة هو وصهره و«المتآمرين» الآخرين، والحكم عليه بالإعدام». وواصلت الأسبوعية قائلة: «وكان السبب الذى قدمه بورقيبة ليسلط على «عضده الأيمن» عقوبة الإعدام هو أن مزالى كون ملفا طبيا يظهر بالحجة أن بورقيبة لم يعد قادرا على حكم البلاد. وأردف مزالى أن بورقيبة طلب من الهاشمى الزمال ما يلى: «أريد أن يغلق الملف قبل ٣١ ديسمبر. وأعرف أنه ستقع تدخلات لفائدته. ولكننى سأثبت على موقفى. وسيشنق مزالى كما شنق على بوتو بالباكستان». وتواصل تونس هبدو قائلة: «ورغبة منا فى إطلاع الرأى العام على هذه الاتهامات التى تكتسى خطورة كبيرة هتفت تونس هبدو للزمال، وهو لا يزال إلى اليوم ينتمى إلى سلك القضاء، لكن كمحام!، واستجوبته حول الموضوع. فالتزم الصمت. وخير الهاشمى الزمال الإمساك عن التبسط فى الموضوع. وبما أنه ملتزم بالحفاظ على سر الدولة، فقد رجانا تفهم وضعه...». ولو كانت هذه التصريحات لا أساس لها من الصحة، لكان من السهل على الهاشمى الزمال تكذيبها!

وهناك حجة أخرى وجدتها فى كتاب الدكتور أحمد القديدى «ذكرياتى من السلطة إلى المنفى». فقد جاء فى الصفحة ٣٩ قوله: «كنت مؤجرا منزلى بالمنزه الخامس لأحد أصدقاء الهاشمى الزمال الوكيل العام للجمهورية آنذاك. وقد أسر هذا الأخير فى إحدى جلساته مع صديقه بأن الرئيس أمره أن يحاكم مزالى وأن يصدر عليه حكما بالإعدام! ....».



أريد هنا، رجوعا شيئا ما إلى الماضى، أن أذكر ببعض القرارات المؤسفة التى اتخذها بورقيبة قبل أشهر من زوال حظوتى عنده. ففى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٥ صرح فى اختتام اجتماع اللجنة المركزية: «أريد أن أقول لكم أننى سأخصص بقية حياتى لردع الفساد... لقد لاحظتم أننى أمرت بإلقاء القبض على شخص ارتكب جريمة اختلاس لأموال الدولة. ولكن هناك أمر أحزننى عند القيام بهذه الإيقافات، هو أنه تمت تدخلات من طرف أشخاص لم أكن أعتقد أنهم سيرضون

كنت أمينا عاما للحزب؛ ووددت لو بقيت عضوا باللجنة المركزية، أو مجرد مناضل بسيط فى إحدى الخلايا القاعدية، ولكن قرارا من الرئيس حرمنى، تعسفا، حتى من ذلك



بترك أناس غير نزهاء ينهبون خزينة الدولة».

ذلك أنه نكاية فى زوجة الرئيس سعت سعيدة ساسى بالرئيس والمدير العام لتونس الجوية السيد محمد بلحاج الذى جرى اعتقاله يوم ٧ جانفى، بدون سبق استشارة، بإلباسه تهمة الفساد المالى فى إدارة الشركة، إذ أوغرت «بنت الأخت» صدر الرئيس ضدها، وعبأته على خلفية وجود علاقة مشبوهة بينها وبين السيد بلحاج. وفى هذا الجو المشحون رأى السيد وزير العدل رضا بن على بوصفه رجل قانون إحالة الملف إلى لجنة من سامى القضاة تتركب من السادة عبد السلام المحجوب الرئيس الأول لدى محكمة التعقيب، والبشير عرفة وكيل الدولة العام بها، ورؤساء محكمة الاستئناف بتونس، والهاشمى زمال وكيل الدولة العام لدى تلك المحكمة. كما ضمت اللجنة ثلة من سامى القضاة الملحقين بوزارة العدل. وجرى نقاش فى ضوء الوثائق المتاحة. وبعد الدراسة المعمقة للملف وتداوله أجمع الحاضرون على أن الاتهامات الموجهة إلى المشتبه به باطلة، لا أساس لها، وعارية عن الصحة، وأوصوا بحفظ التتبعات الجارية ضد المعنى بالأمر، وحرروا تقريرا فى ذلك، أمهروه بالتوقيع عليه بيدهم. على أنه فى خضم هذا التحرك المحموم، قام أحد أعضاء اللجنة القضائية، وهو الهاشمى زمال، أحد موقعى التقرير، لما له من علاقة وطيدة بسعيدة ساسى، ولحاجة فى نفسه، قام بتسريب محتوى التقرير إليها، فسارعت بإبلاغ الأمر إلى الرئيس بزعم أن السيد رضا بن على وزير العدل قام بهذا العمل التبريرى دفاعا عن محمد بلحاج. فما كان من الرئيس من رد إلا أن اتخذ قراره المتسارع فى لحظة انفعالية بإقالته من منصبه الوزارى يوم ١٢ فيفرى ١٩٨٦، وتعيين السيد محمد الصالح العيارى مكانه، رغم محاولاتى الفاشلة لإثنائه عن قراره، أو على الأقل حمله على التريث، فى انتظار ما سيستجد فى هذا الباب من أحداث، بما يجعله عندئذ فى حل لاتخاذ الإجراء الذى يتراءى له. ذلك ما جرى حبكه وتخطيطه وتنفيذه فى تلك الحقبة المتأزمة، والمؤلمة من تاريخ تونس، والتى كانت مثقلة بالنذر الفاصلة، والمنهية لنظامه.

أما عن التدخل الذى أشار إليه بورقيبة، فهو يتعلق بنجله بورقيبة الابن نفسه. إذ صدر، بعد ذلك بأيام قليلة، بلاغ من الرئاسة «فى أسلوب جاف كجفاء الصحراء» حسب عبارة برنار كوهين، يعلن عن إنهاء مهام الحبيب الابن كمستشار خاص لرئيس الجمهورية.

وفى ٢٤ جويلية ١٩٨٥ دعانى بورقيبة على الساعة الخامسة إلى قصر سقانص بالمنستير. وما أن دخلت مكتبه حتى رأيته يستجوب علالة العويتى، فحضرت بذلك مشهدا مؤلما.

قال له بورقيبة: «قيل لى إنك تستعمل سيارتين؟».

أجاب العويتى: «نعم، سيدى الرئيس.

- لماذا؟

- سيارة لى وسيارة أخرى تستعملها زوجتى فى قضاء شؤونها».

وطفق بورقيبة يصيح فى وجه الرجل بكل ما أعطاه الله من حبال صوتية، ويثقل كاهله بكل العيوب، ثم أمره بتسليم كل الوثائق الرسمية التى فى حوزته إلى محمود بلحسين، وأصدر بلاغا بمقتضاه «يفسخ العقد الذى انتدب بموجبه علالة العويتى بصفته مكلفا بمهمة لدى رئيس الجمهورية».

وللتذكير فإن المعنى بالأمر بقى منذ الثلاثينات يباشر مهمة كاتب خاص للرئيس. لقد كان موضع ثقته، وحافظ أسراره، ومدبر شؤونه اليومية، والممرض، والمتلقى لسورات غضبه، ومثال الوفاء له.

وتعليقا على هذه التصرفات العبثية كتبت فرانسواز شيبو فى صحيفة «لوموند» ما يلى: «إن جميع الأنظار تحولت إلى منصور السخيرى الذى شكل مع سعيدة ساسى مجموعة الحرس الجديد المقرب إلى الرئيس التونسى، البالغ من العمر خمسة وثمانين عاما...» وختمت تعليقها قائلة: «بين رئيس دائم الحضور لكنه خاضع بازدياد إلى تأثيرات دائرته المحيطة به، ووزير أول مضطر إلى عدم الحركة، لأنه فى أغلب الحالات مكبل بأواصر قرطاج السلطوية، وبرغبة الانتقام التى تؤجج صدور البعض، وتفتح شاهية الآخرين السياسية... أصبح التونسيون أكثر إحباطا...».

وكلمة مكبل هى أقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد!

وهكذا نجحت العصابة المكونة، بالخصوص، من منصور السخيرى وسعيدة ساسى فى إبعاد بورقيبة الابن، وعلالة العويتى، ووسيلة. وأصبح بورقيبة شيئا فشيئا فى عزلة. ثم جاء دورى فى ٨ جويلية ١٩٨٦. ■



العرب والفكر الأوروبى

عبدالرحمن بدوى

ليس هناك من يستطيع أن يتحدث بثقة وتمكن واقتدار عن دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى أكثر من الفيلسوف والمفكر عبدالرحمن بدوى (توفى فى ٢٥ يوليو ٢٠٠٢).

فقد تعمق الراحل الكبير فى ثقافة وفكر وفلسفة الغرب بقدر ما تعمق ودرس الفلسفة والفكر والثقافة العربية الإسلامية.

د. بدوى هو أحد أبرز المفكرين والفلاسفة المصريين والعرب فى القرن العشرين، بل هو أول فيلسوف وجودى مصرى، وقد حصل على دكتوراة الفلسفة عن أطروحة الزمان الوجودى عام ١٩٤٣ وهو فى سن السادسة والعشرين. وأشرف على المناقشة الدكتور طه حسين الذى علق قائلاً: لأول مرة لدينا فيلسوف مصرى. وقد أشاد عملاق الاستشراق ماسينون بعبدالرحمن بدوى وامتدحه أيضًا الفيلسوف الفرنسى الكبير أندريه لا لاند الذى كان أستاذًا له.

وألف بدوى عشرات الكتب ومئات المقالات العلمية بحيث أصبح صاحب مشروع فلسفى وفكرى حقيقى استفاد منه كل المهتمين من الناطقين بالعربية.

وفى سنواته الأخيرة وضع بدوى العديد من المؤلفات التى تظهر الوجه المشرف للحضارة العربية والإسلامية وتدافع عن القرآن والنبى محمد «صلى الله عليه وسلم» ضد منتقديه. وقد أعادت مكتبة الأسرة فى مصر نشر كتابه «دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى» عام ٢٠٠٤ ومجلة «وجهات نظر» تنشر مقتطفات من هذا الكتاب المهم.

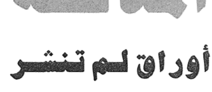




لاحظت فى سلوك «نازك» ظاهرتين مهمتين، الأولى: الأمومة، والأخرى: وضوح الرأى وصراحته. وقد يقول قائل: إن الأمومة أمر طبيعى فى المرأة، ولكن أمومة نازك كانت شيئًا مختلفًا فيما أرى



نازك الملائكة



أوراق لم تنشر



حلمى محمد القاعود

[١]

ذات مساء فى شارع قصر العينى عقب هزيمة ١٩٦٧، وفى دار الأدباء عرفت «نازك الملائكة»، عرفنى بها أخى وصديقى الشاعر والناقد الكبير «عبده بدوى». كانت ندوات جمعية دار الأدباء أيامئذ تموج بالحركة والنشاط، ويشارك فيها الأدباء العرب، فضلاً عن المصريين، من كل حدب وصوب، وكانت المناقشات جادة وقوية وعميقة، والتواصل بين الكبار والشباب ممتداً فى حنو واحترام وتوقير. وكان أصحاب التيارات الفكرية المتناقضة، يقدمون التوافق الإنسانى، والصداقة الحميمة فيما بينهم على أية خلافات ثقافية أو فلسفية أو أيديولوجية..

امتدت معرفتى بنازك وزوجها الدكتور عبدالهادى محبوبة - رحمهما الله - إلى بداية مرضها، حيث أصيبت بجلطة استمرت طويلاً، جعلت من عزلتها أمراً محتوماً، حتى الهاتف كانت لا تستطيع استخدامه إلا لضرورة، وكان خروجها من الكويت فى أواخر الثمانينيات متوافقاً مع بداية مرضها المزمن، وآثرت أن تكون مصر التى أحبتها منذ صباها، مستقراً لها، واختارت حى الحدائق (حدائق القبة)، لتكون فى معزل عن مواطن الحركة لرجال الصحافة والإعلام والفكر بصفة عامة، وكان ابنها «البراق» - وهو وحيدها - يتولى كثيراً من الشئون الخاصة بالثقافة التى تتعلق بها. وكان قد استقر فترة طويلة فى أمريكا، حيث حصل على درجة الدكتوراة فى «علم الاجتماع».

كان زوجها «عبدالهادى محبوبة» أستاذاً جامعياً، عمل فى جامعة الكويت لفترة طويلة، وهى معه، وكان يتسم بدماثة الخلق والرقة، وكانت معظم أحاديثه واهتماماته تدور حول العلم وقضاياه فى تخصصه الدقيق، وهى الدراسة الأدبية، وقد توفى منذ سنوات بالقاهرة، واهتم بأمره حينها الأديب الراحل المعروف «الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى»، حتى واراه الثرى مع عدد محدود من الناس، ونشرت بعد رحيله قصيدة حزينة فى «الأهرام»، كانت رثاء يعبر عن عمق الارتباط الروحى والنفسى بينهما.

تعلم عبدالهادى فى القاهرة، وكان زميلاً للدكتورة «سهير القلماوى» - رحمها الله - وغالباً ما كانت تزورهما - هو وزوجه - عندما يأتيان لقضاء الصيف كل عام فى القاهرة، وكنت أرى عمق المودة التى تربط بين الثلاثة، رحمهم الله جميعاً.

لاحظت فى سلوك «نازك» ظاهرتين مهمتين، الأولى: الأمومة، والأخرى: وضوح الرأى وصراحته. وقد يقول قائل: إن الأمومة أمر طبيعى فى المرأة، ولكن أمومة نازك كانت شيئاً مختلفاً فيما أرى، فقد كان حديثها عن «البراق» يعنى أن كيانها كله يموج بالحركة ويشتعل عند ذكر اسمه، وكانت فخورة به وهو صبى، وتذكر لى أنه يقرأ كثيراً، لدرجة أنه كان لا يترك الكتاب وهو يدخل المطبخ لإحضار كوب من الماء. كان «البراق» - ولعلها اختارت اسمه من البيت الشهير: «ألا ليت للبراق عيناً فترى...» - ذكياً، وقليل الكلام، وهو ما أهله لإحراز درجات عالية فى سنوات الدراسة وتأهله للحصول على الدكتوراه، كما سبقت الإشارة.

هل كان اشتعال الأمومة عند «نازك» لكونها لم تنجب غير «ولد واحد»؟ أظن أنه أكبر من ذلك بكثير، فقد كانت تملك مواصفات المرأة الرقيقة الرحيمة الحانية القادرة على العطاء، وهو ما يشى به كثير من شعرها.

أما بالنسبة لصراحتها فى آرائها، فقد كانت ناقدة إلى جانب كونها شاعرة، وقد يكفى أن أذكر موقفين، قد يفرضان المجاملة أحياناً، ولكنها لم تجامل، وأعلنت رأيها بصراحة قاطعة. فقد كنت أناقش معها بعض القضايا، ومر بنا الحديث على شعر صديقنا المشترك الراحل «عبده بدوى»، فقالت لى: إن شعره التفعيلى أقوى من شعره المنظوم على الطريقة الموروثة «الذى يسمى خطأ بالعمودى»، وأعدُّ ديوانه «كلمات غضبى» من أفضل دواوين الشعر الحديث عامة.

وحين كتب عنها «ماجد أحمد السامرائى» رسالة ماجستير قدمها إلى جامعة الأزهر حول شعرها ثم نشرها فى كتاب بعنوان: «نازك الملائكة: الموجة القلقة»، لم تسكت عما فيه من أخطاء منهجية وعلمية، وأرسلت إلىّ نسخة من هذا الكتاب الذى يفترض أن تفرح به وتسعد، كما يفرح الأدباء والشعراء ويسعدون عندما يكتب عنهم النقاد والدارسون، ويخصصون لهم كتباً كاملة، يطالعونها فى حياتهم وقبل الممات.

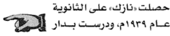
لقد كتبت آراءها فى القضايا الجزئية على جزازات بخط يدها أمام السطور التى رأت فيها مخالفة للمنهج أو المعلومات، ثم سجلت ملاحظاتها العامة فى عدة صفحات يراها القارئ بعد قليل إن شاء الله فى نهاية الموضوع. وأظن هذا الموقف يكشف لنا عن طبيعتها التى لا تحب المداهنة أو لا تسكت عن الخطأ.

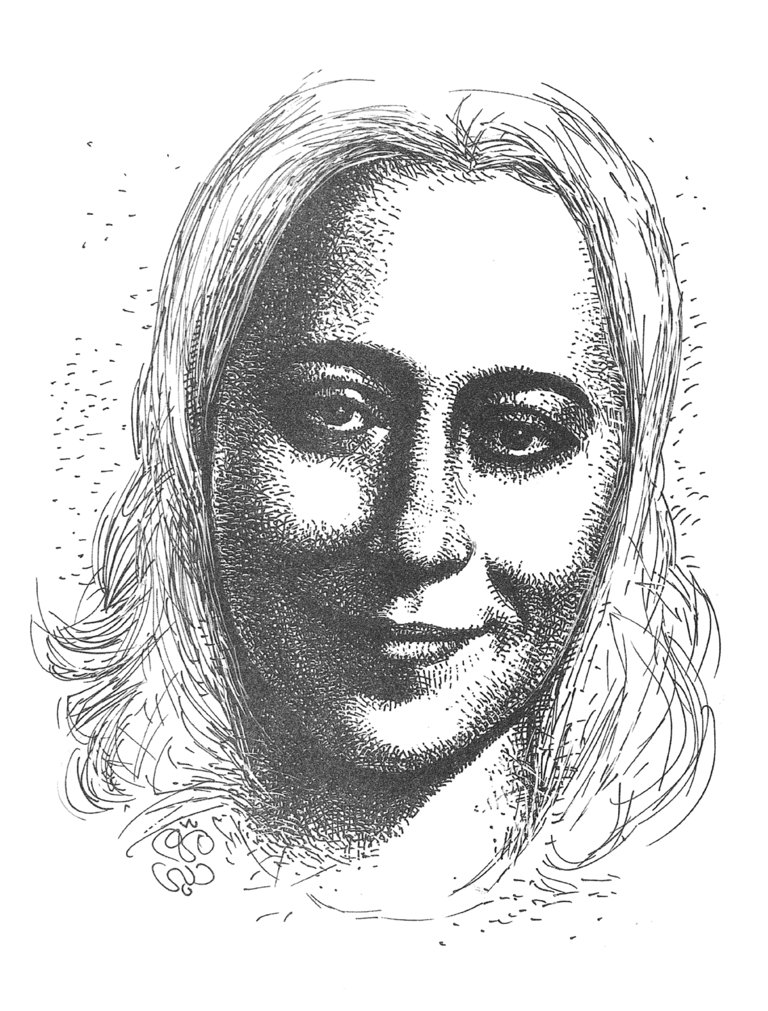
لقد أحزننى أن يودعها نفر قليل فى عاصمة الثقافة العربية، وأن تكتفى الصحيفة التى ذكرت نبأ رحيلها بأربعة سطور فى ذيل الصفحة، مع أنها كبيرة الشعراء - وليس الشاعرات - فى عصرنا المنكوب بالويلات والاضطرابات، وكانت لها - على كل حال - مواقفها التى كانت فيها صوت الإنسان العربى فى آلامه - وما أكثرها - وأفراحه - وما أقلها - ولم تلجأ إلى المداهنة أو التملق أو النفاق أو إمساك العصا من الوسط، فعاشت كريمة على نفسها، حتى فى عز محنتها، وهى ترقد فى مستشفى «سنابل» بحدائق القبة، تنتظر الوصول إلى الشاطئ الذى تستقر عليه إلى يوم الدين.

وإذا كان الصديق «جمال بدوى» - الكاتب المعروف - قد نعى على مؤتمر الشعر العربى، الذى انعقد بالقاهرة فى شهر فبراير ٢٠٠٧م، عدم منحه جائزة الشعر لها، وهى فى أوج مرضها، فأنا لا أشاركه هذا الرأى، لأن «نازك الملائكة» اختارت الانحياز للهوية العربية وثقافة الأمة، وهى قبل ذلك وبعده كانت شاعرة كبيرة بكل المقاييس، سيقرأ الناس شعرها على امتداد الزمان والمكان، كما قرأوا ويقرأون شعر المتنبى وأبى العلاء وشوقى وغيرهم.

[٢]

فى بغداد، عاصمة الرشيد، ولدت «نازك صادق الملائكة» فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٣ لأسرة تهتم بالأدب والثقافة والفكر. وكانت الأسرة كلها تكتب الشعر كما أخبرتنى، على تفاوت، وكانت أمها تنشر أشعارها فى المجلات الأدبية والصحف العراقية باسم «أم نزار الملائكة»، وطبعت ديوانها «أنشودة المجد» عام ١٩٦٨م. وكان والدها «صادق الملائكة» أستاذاً للغة العربية وتخرج على يديه خيرة الأدباء فى العراق، وتعلمت «نازك» على يديه النحو وتفوقت فيه وترك موسوعة من عشرين مجلداً بعنوان «دائرة معارف». وقد حصلت «نازك» على الثانوية عام ١٩٣٩م، ودرست بدار





لم تصبر على ما فعله الانقلابيون بعدئذ من اضطهاد واستبداد فتركت العراق، وعاشت فى لبنان عامى ١٩٥٩ , ١٩٦٠م



المعلمين العليا - قسم اللغة العربية - ونالت درجة الليسانس عام ١٩٤٤م بمرتبة ممتاز.. وفى هذه المرحلة «الجامعية» بدأت بنشر أولى قصائدها فى الصحف العراقية، وإلقائها فى احتفالات الكلية وكانت فى عام ١٩٤٢ قد التحقت بمعهد الفنون الجميلة لدراسة العزف على العود لشدة حبها للموسيقى منذ طفولتها، وظلت تدرس الموسيقى فى المعهد ست سنوات وكانت تعزف لنفسها مصاحبة لإنشاد قصائدها الشعرية، ولم تعزف أمام الجمهور إلا فى الولايات المتحدة من خلال حفل أقامته جامعة «وسكونس» التى درست فيها عام ١٩٥٥م.

كانت نازك مولعة بدراسة اللغات الأجنبية، فالتمست من عميد دار المعلمين العليا أن تدرس اللاتينية - ولم تكن مطلوبة منها - فى صف غير صفها، وأكملت دراستها فى جامعة «برنستون» عندما سافرت إلى الولايات المتحدة، وقرأت الشاعر اللاتينى «كاتولوس» الذى أعجبت بشعره وحفظت منه الكثير.

كما بدأت دراسة الفرنسية عام ١٩٤٩، ودخلت المعهد العراقى عام ١٩٥٣ لتقرأ موباسان وموليير والفونس دوديه، وكونت مكتبة خاصة بها تضم الشعر الفرنسى وكتب النقد والقصص والفلسفة للعلماء والأدباء الفرنسيين.

واهتمت بالأدب الإنجليزى وهى طالبة فى دار المعلمين العليا، وقرأت شكسبير، وترجمت إلى العربية بعض مسرحياته وهى لاتزال طالبة، كما قرأت شعر «بايرون وشيلى»، وأتقنت الإنجليزية من خلال دورة بالمعهد البريطانى فى بغداد.

وقد أوفدتها مؤسسة روكفلر الأمريكية إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة، وهى جامعة رجالية، أو كانت كذلك، ولذا كان منظر الطالبة الوحيدة «نازك الملائكة» مثيراً للدهشة وسط الرجال، وقد درست النقد الأدبى على يد نقاد معروفين فى الولايات المتحدة من أساتذة الجامعة، من أمثال «ريتشارد بلاكمور» وألن داونسر، وديلور شوارتز، وهو ما جعلها بعد عودتها إلى العراق عام ١٩٥١ تتجه إلى الكتابة النقدية فى الصحف والمجلات العراقية، وإن لم تتخل عن نظم الشعر، ونشره فى مجلتى «الآداب» و«الأديب» البيروتيتين.

لقد ألقت محاضرة فى نادى الاتحاد النسائى عام ١٩٥٢ بعنوان «المرأة بين الطرفين: السلبية والأخلاق»، أثارت حينئذ ضجة كبيرة، وبدأت تتحقق لها شهرة كبيرة فى الأوساط الأدبية والثقافية.

بعد وفاة أمها عام ١٩٥٣، اهتز كيان نازك الملائكة، وكان من حسن حظها أن رشحت لبعثة لدراسة الأدب المقارن فى جامعة «وسكونس»، فابتعدت عن الجو الحزين المتوتر بعد وفاة الأم، وأفرغت همها فى الدراسة والبحث والاطلاع، واستطاعت أن تظفر بالماجستير من خلال مجموعة من الأبحاث فى موضوعات مختلفة.

كانت شهرتها قد انتشرت فى أرجاء العالم العربى، وخاصة من خلال محاولتها التجديدية فى الشعر، وعرفها الأدباء العرب فى المؤتمرات والندوات، فضلاً عن الصحف، وتفاعلت مع انقلاب ١٩٥٨ فى العراق الذى نادى بالقومية العربية، ولكنها لم تصبر على ما فعله الانقلابيون بعدئذ من اضطهاد واستبداد فتركت العراق، وعاشت فى لبنان عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠م.



عادت إلى بغداد عام ١٩٦٢، وتابعت عملها فى دار المعلمين العليا (التى صارت كلية التربية)، وكانت قد عينت فيها عقب تخرجها بامتياز، وتزوجت الدكتور عبدالهادى محبوبة زميلها فى قسم اللغة العربية، ثم انتقلت معه عام ١٩٦٤ للعمل فى جامعة البصرة التى شاركا فى تأسيسها، وصار زوجها رئيساً لها.

فى عام ١٩٦٥، ألقت بمعهد الدراسات والبحوث العربية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مجموعة من المحاضرات جمعتها فى كتاب بعنوان «شعر على محمود طه».. ثم ذهبت مع زوجها للتدريس فى جامعة الكويت حتى أحست بوادر المرض، فاستقالت، وجاءت إلى القاهرة، لتقضى مع زوجها بقية حياتهما، ويدفنا فى ثراها الطيب.. ويودعها الشعر والجمهور فى يوم الأربعاء ٢٠ من يونية ٢٠٠٧م.

وفى أثناء فترة مرضها بالقاهرة.. قام المجلس الأعلى للثقافة بمبادرة من بعض الأدباء فى إيجابية تحسب له، بنشر أعمالها النثرية والشعرية فى مجلدين كبيرين، كتب مقدمتهما الراحل «عبده بدوى» - يرحمه الله - وإن كان المجلس قد ضن عليه - كما حكى لى - بنسخة من هذين المجلدين، ليقرأ فيهما مقدمته أو دراسته على الأقل!

ومن مجموعة كتبها النثرية، وقد كتبت عن بعضها إبان صدوره:

- شعر على محمود طه، عام ١٩٦٥م.
- قضايا الشعر الحديث، عام ١٩٦٢م.
- التجزيئية فى المجتمع العربى، عام ١٩٧٤م.
- سيكولوجية الشعر، عام ١٩٩٢م.
- الشمس وراء القمة (مجموعة قصصية)، عام ١٩٩٧م.

أما مجموعتها الشعرية، فمنها:

- عاشقة الليل، ١٩٤٧م.
- شظايا ورماد، ١٩٥٧م.
- قرارة الموجه، ١٩٥٧م.
- شجرة القمر، ١٩٦٥م.
- يغير ألوانه البحر، ١٩٧٧م.
- للصلاة والثورة، ١٩٧٨م.
- أما «مأساة الحياة»، و«أغنية للإنسان»، فهى مطولة نشرت ١٩٤٩ وتكرر نشرها فيما بعد، ويبدو أنها حاولت إعادة صياغتها، ولم تقتنع بالصياغة الجديدة، وإن كانت قد دافعت عنها لأسباب سترد فيما بعد.

وقد أحسنت جائزة البابطين إذ منحتها جائزتها عام ١٩٩٦، وهى فى معتزلها ومعركتها مع المرض، فرفعت بعض الحرج عن المؤسسات الثقافية الرسمية فى العواصم العربية (ولا أقول القاهرة وبغداد وحدهما)، لأنها كانت تستحق العديد من الجوائز التى تكافئ دورها، ولكن يبدو أن هناك من أراد أن يعاقبها على جهدها، الذى أثبتت فيه أن الوزن العربى الموروث أكثر كفاءة من وزن التفعيلة الذى كانت من أوائل المبشرين به!

[٣]

سوف أسجل فى هذه الفقرة ملاحظات «نازك الملائكة» على بعض ما ورد فى كتاب «ماجد أحمد السامرائى» الصادر عن وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٥، وقد كتبته بخط يدها، ولم يطلع عليه الناس، ومع أنها أرسلت إلىّ الكتاب حال صدوره، فقد لاحظت أنها لم تكتب إلىّ إهداء كعادتها عندما كانت تهدينى كتبها أو دواوينها، سواء فى طبعتها الأولى أو الطبعة الجديدة، مما يعنى أنها لم تكن مستريحة إلى الكتاب بصفة عامة.

وسوف أبدأ بالملاحظات الجزئية، مع الإشارة إلى ما كتبه المؤلف، ليكون تعليقها مفهوماً للقارئ وتتبع أهمية هذه التعليقات فى أنها تزيل الأحكام العامة أو المغلوطة التى تناقلها بعض الكتاب أو الصحفيين عن مسيرة الشاعرة والشعر.

١ - تعلق على ما كتبه المؤلف فى (ص١٧) إحصاء لقصائد ديوانها «عاشقة الليل»، حيث يضم - حسب قوله - ٣٩ قصيدة منها ٢٩ على الطريقة القديمة، و٨ على الطريقة الحديثة، واثنتان مترجمتان. ويضم «شظايا ورماد» ٣٢ قصيدة منها ٦ على الطريقة القديمة و٢٦ على الطريقة الحديثة.

فتقول نازك: «ماذا تراه يقصد بالطريقة القديمة والحديثة. أما إذا كانت «الحديثة» تعنى الشعر الحر، فليس فى عاشقة الليل أى شعر حر على الإطلاق. وحكمه على «شظايا ورماد» غالط أيضاً.

أرجو الرجوع إلى مجموعاتى الشعرية وتصحيح هذه الأخطاء».

٢ - ينسب إليها المؤلف فى ص ١٩:

«يا حزن لم تستعد أناشيد شجيه
من لسان فجيع
لتهبها فى أمسية شاحبة إلى البلبل الغرير
وتسمعها ممزوجة بالندى الرطيب»

فتعلق قائلة:

«ليس هذا الكلام لى، وهو نثر وليس شعراً. نازك».

٣ - يقرر المؤلف أن الواقع الاجتماعى

كنت منذ صغرى شديدة الحساسية فى شأن كل ما يتعلق بالمرأة، وبقيت طيلة حياتى مجادلة عنيفة حول مختلف قضايا المرأة.. نازك الملائكة

لنازك يمنع عليها التصدى المباشر لمظاهر المجتمع، لأنها لا تستطيع أن تعيش الانهزامية الاجتماعية والتشرد، فهذا يؤدى بسمعة أسرتها، كما أنها لا تريد التخلى عن أحاسيسها ومشاعرها ومطامحها.. لهذا أصبحت عندها حالة من التأزم أثرت بشكل بارز على عواطفها وأحاسيسها وعلى شعرها أيضاً..» ص ٢٥.

تعلق نازك على ذلك وما ورد مشابهاً له بقولها:

«وقع المؤلف فى وهم غالط عندما ظن أن فى حياتى «هزيمة عاطفية»، وأنا أدرى أنه ليس فى حياتى أية هزيمة عاطفية. ولو رجع المؤلف إلى نصوص شعرى نفسها وقرأها قراءة تمحيص، وبحث ووقف عند كل نص متأملاً لوجد الكثير مما يدحض نظريته هذه. وعندما أعلن أننى لم أعرف ما سماه بالهزيمة العاطفية، فإن ذلك يفرض على الناقد أن يبحث عن أسباب أخرى لأحزانى الواردة فى شعرى. إن من السهل أن يصوغ الدارس نظرية، أما الصعب فهو تأييدها وإسنادها بالشواهد، وإقناع القارئ المطلع على شعرى اطلاعاً كافياً».

٤ ـ يشير المؤلف أن الشاعرة قد تناولت مسألة «حفار القبور» وما يعنيه هذا الشخص من تصور للصراع الحاد بين الحياة والموت، أنها جمعت شخصين فى هذه المهنة، وأطلقت لهما العنان وهما منهمكان فى الكسب من أجل الحياة، فتقول:

«طالما حفرا فى التراب
حفرا فى الضباب
ربما حفر فى شحوب الخريف
أو عبوس الشتاء المخيف
طالما شوهدا يحفران
يحفران.. يظلان فى لهفة يحفران
وهما الآن فوق الثرى ميتان» ص ٤٢.

وتقرر نازك تعليقاً على هذا الحكم أن المؤلف وقع «فى خطأ وهو يحاول تفسير قصيدتى «يحكى أن حفارين» ـ فقد ظن أن الحفارين كانا يحفران القبور ـ ولو قرأ القصيدة قراءة واحدة متعمقة لعرف أن الحفارين كانا هما الشاعرة وحبيبها، وأنهما لم يكونا يحفران قبراً.. على العكس كانا يحفران ليستخرجا إنساناً دفيناً فى التراب لأنه حى وليس ميتاً، لقد دفن حياً، والشاعرة وصديقها يحفران ليل نهار فى ذلة وحزن ليخرجا هذا «الميت الحى». وهذا كله واضح فى نص القصيدة، ولكن هذا المؤلف مستعجل ويكتب أى شئ يخطر له دون أن يكلف نفسه بقراءة النصوص».

٥ ـ يقول المؤلف: «ويبدو أن نازك الملائكة قد تناولت بعض المسائل الاجتماعية فى شعرها، وخاصة نظرة المجتمع إلى المرأة، إلا أن ذلك قد جاء بشكل سطحى والسبب هو عدم اكتراث نازك بقضايا الآخرين بقدر اهتمامها بذاتها وتأملاتها..» ص ٧٩.



وتعلق نازك:

«خطأ فادح، فقد كنت منذ صغرى شديدة الحساسية فى شأن كل ما يتعلق بالمرأة، وبقيت طيلة حياتى مجادلة عنيفة حول مختلف قضايا المرأة، ولو سمع ماجد ـ تقصد المؤلف ـ آرائى حول هذه الأمور لعرف أنه ما من امرأة فى العالم كله أشد منى ثورية وجرأة فى مناقشة قضايا المرأة. وتثبت هذا أبحاثى (المرأة بين الطرفين: السلبية والأخلاق) و(مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية) و(التجزيئية فى المجتمع العربى).

ثم إن أحد أسباب حزنى فى المرحلة الأولى من حياتى يرجع إلى ازدراء المجتمع العربى للمرأة وحجبه لها وإساءته الظن بها».

٦ ـ يتعرض المؤلف لما كتبته الشاعرة فى مأساة الحياة وأغنية الإنسان فيرى أنها اهتمت بالشكل دون الاهتمام بالمضمون الداخلى للموضوع.. ص ٨٧.

وتقول نازك تعليقاً على ذلك:

«لم يتحدث عن الفصل الطويل عن الحرب العالمية الثانية، والدعوة إلى السلام، وتصوير القتلى وعيونهم المفتوحة، وهو شديد الأهمية بالنسبة لما يقول».

٧ ـ وفى سياق تناول المؤلف لمأساة الحياة، يشير إلى أنها فى عام ١٩٦٥ قامت بنظم القصيدة مجدداً، لم تحاول أن تقدم شيئاً جديداً لبكر ولادتها (مأساة الحياة عام ١٩٤٥) فأتت بكامل قصيدتها الأولى سوى بعض التحويرات البسيطة وغير الخفية من بعض أبياتها، وثبتت لها عنوان: «أغنية للإنسان» حتى إن عدد أبياتها هو (٥٨ بيتاً) وهو نفس عدد أبيات قصيدة المرحلة الأولى.. ص ٨٩.

ويلاحظ أن نازك وضعت خطوطاً تحت كلام المؤلف، وأكثر من علامة X، فضلاً عن علامتى الاستفهام والتعجب، وجملة «خطأ فادح».

أما التعليق فتضع له عنواناً: «حول مأساة الحياة وأغنية للإنسان».

ثم تقول:

«لم يلاحظ المؤلف تطور الأسلوب والصور، واللغة، وكان هذا هو الذى جعلنى أعيد نظم القصيدة، لأننى لم أعد راضية عن مستواها الفنى.

والصورة الثانية منظومة سنة ١٩٥٠، وكنت إذ ذاك ملحدة تماماً.

أما الصورة الثالثة فى المطولة فقد تغير فيها الفكر تغييراً ملحوظاً لأننى أصبحت متفائلة بسبب إيمانى بالله، واتساع ثقافتى ونضجى، وبسبب انتصارات القومية العربية، وإعجابى بشخصية جمال عبدالناصر وأشياء أخرى.

ويبدو هذا التطور الفكرى واضحاً لو دقق ماجد.. لو دقق فقط!

ويبدو من تعليق الكاتب أنه لم يقرأ الصورة الثالثة، وإنما حكم عليها دون أن ينظر فيها. لقد لاح له أننى لم أغير فيها إلا قليلاً لمجرد أنه قرأ أولها ووقف هناك. ولو رجع إلى مقدمتى لعرف لماذا لم أغير أولها».

ويلاحظ أن الشاعرة تملك جرأة غير عادية حيث تعلن عن تحولاتها الاعتقادية، دون خوف أو وجل، فهى تشير إلى أنها كتبت الصورة الثانية لمأساة الحياة وهى «ملحدة تماماً».. ثم كتبت الصورة الثالثة، وقد تغيرت وأصبحت متفائلة بسبب إيمانها بالله وعوامل أخرى.. وهو ما يدل على صدقها مع نفسها وإخلاصها فى البحث عن الحقيقة.

٨ ـ وحول مأساة الحياة يشير المؤلف إلى ضعف قيمتها، مما ألجأ الشاعرة إلى التكرار، وأضعف التجربة وأبردها، وأبهت لون اللوحة التى أرادت الشاعرة رسمها.

وتعلق نازك:

«يجب أن يميز الناقد الخلفية الزمنية للقصائد الثلاث. وما يراه من عناصر عدم الاكتمال اللغوى والفكرى لدى شاعرة عمرها اثنان وعشرون عاماً مبرر، وكان ينبغى له أن ينص عليه. فإن (مأساة الحياة) منظومة قبل مجموعتى الأولى (عاشقة الليل)، ولذلك ثرت عليها، ولم أنشرها، ثم حاولت إعادة صياغتها مرتين. ولم أتم أية صورة لها بعد ذلك. وسرعان ما هجرتها نهائياً، كل هذا ينبغى ملاحظة ما وراءه من معان تثير التأمل لو أتيح لها ناقد يتأمل».

٩ ـ يتعرض المؤلف لتناول الشاعرة حياة الفقراء والأغنياء، ويرى أنها تنطق بلسان الكادحين وهى الإنسانة الأرستقراطية، تعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم، وترى كيف تأتى الأموال إلى جيوب الأغنياء من كدح الفلاح وتعبه.. ص ٩٦.

وترد نازك على هذا الحكم بقولها:

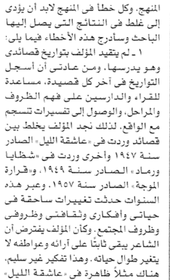
«يزعم أننى أنتمى إلى أسرة أرستقراطية، مع أننا ـ ونحن سبعة أبناء وأبوان وعمة ـ لم نكن نملك من حطام الدنيا سوى راتب أبى، الذى كان يبلغ أيام صباى خمسة وعشرين ديناراً شهرياً، ولم يكن لنا أى مورد على الإطلاق سوى راتب أبى هذا، فهل هذا هو معنى الأرستقراطية؟ وقد مات أبى عام ١٩٦٩ وكان راتبه يبلغ آنذاك اثنين وستين ديناراً.

وفى عام ١٩٤٤ أكملت ليسانس اللغة العربية وعينت مدرسة براتب قدره ثمانية عشر ديناراً فأصبحت أعين أبى فى نفقات المعيشة».

١٠ ـ يتناول المؤلف نظرية نازك العروضية بالنسبة للشعر الحر، ويأخذ عليها مآخذ كثيرة ص ١٠٦، وترد الشاعرة على ذلك بالقول:

«اقتصر المؤلف على إحصاء مآخذه على نظريتى العروضية دون إحصاء ما يوافقنى عليه منها، وهو كثير، مع أن المصطلحات التى وضعتها أصبحت كلها على ألسنة الأدباء والنقاد، وكثير من القواعد التى قررتها قد شاعت وقبلها الشعراء كلهم. وهذا موقف غير مقبول من الناقد الذى

عندما يخطئ الناقد



وقعت في هذا الكتاب أخطاء في المنهج، وكل خطأ في المنهج لابد أن يؤدي إلى غلط في النتائج التي يصل إليها الباحث وسأدرج هذه الأخطاء فيما يلي:

١ ـ لم يتقيد المؤلف بتواريخ قصائدي وهو يدرسها، ومن عادتي أن أسجل التواريخ في آخر كل قصيدة، مساعدة للقراء والدارسين على فهم الظروف والمراحل، والوصول إلى تفسيرات تنسجم مع الواقع. لذلك نجد المؤلف يخلط بين قصائد وردت في «عاشقة الليل» الصادر سنة ١٩٤٧ وأخرى وردت في «شظايا ورماد» الصادر سنة ١٩٤٩، و«قرارة الموجة» الصادر سنة ١٩٥٧. وعبر هذه السنوات حدثت تغييرات ساحقة في حياتي وأفكاري وثقافتي وظروفي وظروف المجتمع. وكأن المؤلف يفترض أن الشاعر يبقى ثابتًا على آرائه وعواطفه لا يتغير طوال حياته. وهذا تفكير غير سليم، هناك مثلاً ظاهرة في «عاشقة الليل» ورحلتي الرومانسية، يحاول المؤلف أن يستشهد لها بأبيات من «قرارة الموجة» رحلتي الرمزية الفلسفية. وقد أدى به هذا إلى أخطاء بالغة أحيانًا.

٢ ـ صاغ المؤلف، حول حياتي العاطفية، نظرية متحمسة مندفعة بناها على قراءة سريعة غير متأملة ولا فاحصة، ولا دقيقة لقصائد الحب في مجموعاتي الشعرية الخمس. وقد انتهى حكمه إلى أن في حياتي هزيمة عاطفية هدمت نفسيتي وسببت لي الأحزان والرجات الروحية وقد جعله هذا يقع في خطأين خطيرين.

(أ) أنه خالف وقائع حياتي. فأنا لم أعرف شيئًا اسمه هزيمة عاطفية يومًا، وهذه الحقيقة لو خطرت على بال المؤلف، لغيرت تفسيراته النقدية لقصائدي تغييرًا كبيرًا، لأن تبدل الفرض ينتهي حتمًا إلى تبدل النتائج.

(ب) إنه ـ عندما أوقع نفسه في خطأ الإيمان المطلق بفرضية الهزيمة العاطفية ـ أغلق على نفسه باب النظر في النصوص الكثيرة التي تدحض نظريته تلك، وهي مثبتة في مجموعاتي الشعرية. ولذلك مرت تلك النصوص أمامه دون أن يلخصها أو يقف عندها. كان ذهنه مندفعًا جامحًا ـ خلافًا لما ينبغي للناقد ـ فسد ذلك عليه أبواب التعليل الرصين وأوقعه في متاهات أحكام غالطة غلطًا مؤسفًا.

ولم يسئ المؤلف إليّ في شيء بهذه النظرية وإنما أساء إلى القيمة النقدية الموضوعية لكتابه.



٣ ـ لم يحاول المؤلف أن يقرأ شعري قراءة تعمق واتساع ومثل هذا الموقف لا ينتج دراسة نقدية مطلقًا. لذلك يمكن الرد على آراء «ماجد أحمد السامرائي» بنصوص كثيرة في شعري نفسه تدحض نظريته دحضًا كاملاً. والنقد الجيد لأية قصيدة يقتضي أن يقرأها الناقد قراءات متعددة ويلاحظ كل لفظ فيها وكل صورة وكل رمز. حتى إذا صاغ حولها فرضًا، أو وضع حكمًا كان ذلك مسندًا بكل شطر فيها. وإذا ما ورد شطر واحد يتعارض مع ذلك الفرض فإنه لا يعود كافيًا لتفسير القصيدة. أما قراءة الشعر مرة واحدة، أو مطالعة حزازات عابرة في بعض القصائد ثم دفع الشاعر بنظرية كاملة، فهو ليس من الدراسة الجادة في شيء، وإنما هو ارتجال وبعد عن المنهج الموضوعي. لو رجع المؤلف إلى دراستي للشاعر علي محمود طه وتعقب منهجي لرآني وأنا أكتب قد وقفت عند كل كلمة في شعر الشاعر، فأنا لم أكتب إلا بعد أن عرفت شعره ظاهرًا وباطنًا، لا بل حفظت أكثره غيبًا. فكنت أجد الشاهد فور حاجتي إليه. ومع هذا كله رفضت أن أستنتج وقائع حياته من شعره واحترزت وتحفظت وأبلغت القارئ أن استنتاجي قد يكون معارضًا لحياة الشاعر. وليس من حقي ـ باعتباري دارسة وناقدة ـ أن أستنتج وقائع حياة من مجرد نصوص شعرية وإنما اضطررت إلى القليل القليل في الفروض لأنني عجزت عن الحصول على سيرة مفصلة للشاعر، وبذلك كله تركت للقارئ فرصة كاملة لرفض استنتاجاتي، وهو الموقف السليم الذي يرعى حقوق شاعر لا معرفة لي بحياته وليس من حقي أن أخوض في سيرته.

٤ ـ لم يحاول المؤلف أن يلاحظ أبرز ظاهرة في شعري وهي الجانب الفكري، فإن ثلاثة أرباع كآبتي وحزني كانت نتيجة لتطلعات فلسفية، وضيق بالجانب الحيواني في الإنسان (بسبب مثاليتي المشار إليها سابقًا) وثورة على الأحوال الاجتماعية والتخلف في الوطن العربي، كما أن ظروف الاستعمار البريطاني في العراق، وفشل الثورات القومية المتعاقبة كان أحد أسباب أحزاني. ويبدو الاتجاه الفكري حتى في شعري الأول (مطولة مأساة الحياة) و(عاشقة الليل) مع أن عمري عند نظم هذين الأثرين كان بين الثانية والعشرين والخامسة والعشرين، وهي سن طرية ينصرف فيها الشبان عادة إلى العواطف المضطرمة، أما أنا فقد بقيت أتساءل في وله وحرارة عن أسرار الموت والحياة ومصير البشرية، وإمكانيات السعادة والشقاء، ومضامين الحق والباطل، والخير والشر، وحرية الإرادة، وسوى ذلك مما هو مبثوث في شعر تلك المرحلة، فكيف عجز المؤلف عن ملاحظة هذا؟

٥ ـ لم يستطع المؤلف أن يلحظ ظاهرة من أبرز ظواهر شعري وهي الثورة والتمرد والرفض. ومن ذلك (الإلحاد) الذي سيطر على تفكيري ما بين ١٩٤٧ و١٩٥٦، عندما كنت كافرة بوجود الله كفرًا كاملاً، أنادي بأن القرآن من إنشاء محمد الذي لم يكن نبيًا وإنما كان مثقفًا عربيًا يملك قدرات قيادية غير عادية. وهذا الإلحاد كان له أثر عميق في نفسيتي لأنه سبب لي ضياعًا فكريًا بلا حدود وأعطاني الحزن واليأس. وكل دراسة لا تميز هذا الإلحاد، دراسة ناقصة.

٦ ـ افترض المؤلف أنني نكصت متراجعة عن الشعر الحر، وهو بهذا ينساق مع الزعم السطحي الشائع، دون أن يرجع إلى شعري المنشور ليتأكد من صحة الشائعة. كما أنه ـ لو كان يريد الإنصاف ـ لقرأ في كتابي (قضايا الشعر المعاصر) الصادر سنة ١٩٦٢ حرصي على الشعر الحر وهو يتجلى في عنايتي الشاقة بوضع عروض مفصل له. فضلاً عن أني انتقدت شعر الشطرين الخليلي (الشكل القديم) انتقادًا شديدًا وبينت عيوبه ومساوئه ـ بالنسبة لنظرة هذا العصر ـ في فصل طويل عنوانه (الجذور الاجتماعية لحركة الشعر الحر)، فإذا كنت متراجعة ـ كما يزعم ـ فكيف أكتب هذا الفصل؟ ولماذا أتعب نفسي بوضع عروض كاملة لشعر تراجعت عنه ولم أعد أؤمن به كما يزعم؟

٧ ـ فات المؤلف أن يلاحظ ملاحظة مهمة هي أن الشعر يستعمل الرموز والصور الضبابية، والتهويمات، وترد فيه استعارات وإيماءات موسيقية بحيث يغيب المعنى وراء غلالات وحجب كثيفة أحيانًا، وكثيرًا ما تعطي القصيدة إيماء بفكرة ظاهرية مخالفة لقصد الشاعر، فالشاعر يحلم ويهوم ويبالغ مبالغات عاطفية شديدة، ويغرق في الخيالات، وكل هذا يجعل من عدم الموضوعية أن نستنتج حياته من شعره. وإنما نحتاج إلى أن تكون بين أيدينا وثائق ورسائل ووقائع ثابتة مؤرخة، أما من كان مثل المؤلف، لا يملك أية معلومات صلدة عن حياتي، فليس من مصلحته ـ كناقد ـ أن يصوغ نظريات وفرضيات عن حياتي ويعطيها للقارئ على أنها وقائع كما في الفصل المعنون «العاطفة المهزومة أو خيبة الأمل».

نازك الملائكة

نازك الملائكة
الموجة القلقة
ماجد أحمد السامرائي
بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧٥

يجب أن ينص على المزايا والمآخذ معًا مع الموضوعية والدقة والإنصاف».

١١ ـ يشير المؤلف وهو يعرض لنظرية نازك العروضية إلى بعض القيود التي تفرض على حرية الشاعر في زيادة التفاعيل.. ص ١١١ .

وتقول نازك:

«لم يطلع المؤلف على مقدمة الطبعة الرابعة من (قضايا الشعر المعاصر)، وفيها أوضحت تطور سمعي منذ عام ١٩٦٢، ولذلك أضفت هوامش عروضية شديدة الأهمية على القواعد التي كنت أقبلها من قبل».

١٢ ـ يرى المؤلف أن البيت المثالي عند نازك هو الذي تطابق كلماته اللغوية وتفاعيله العروضية تطابقًا تامًا.. معتمدًا على تحليل للدكتور محمد النويهي لما طرحته نازك.. ص ١١٦ .



وتجيب على ذلك قائلة:

«لو رجع المؤلف إلى كتابي «قضايا الشعر المعاصر» الذي ناقشه د. النويهي، لوجد أنني لم أقل هذا المنسوب إليّ. فضلاً عن أن شعري المنشور يخرج عليه بكل تفعيلة فيه.

والمؤسف أن «محمد النويهي» لم يكن موضوعيًا في طائفة من مناقشاته، وإنما انساق مع عواطفه وهذا لا يصح للناقد. وقد وصف ناقد مصري رصين هو د. عبده بدوي مناقشة النويهي بأنها كانت «خناقة زاعقة»، وذلك في مجلة الثقافة بالقاهرة. وكل موضوعية تتعارض مع «الخناقة» ومع «الزعيق».

١٣ ـ اعترض المؤلف على رؤية الشاعرة نازك الملائكة من قضية «التدوير» ويراه خطرًا في التجربة الشعرية وقعت فيه الشاعرة نفسها في قصيدتها «الأفعوان» التي نظمتها سنة ١٩٤٧ في الموضعين التاليين:

١ ـ اسمع الصوت
سيري فهذا طريق عميق
٢ ـ لن يجئ
واسمع قهقهة حاقدة.. ص ١١٨، ١١٩.

ونازك الملائكة تنفي أولاً أن يكون في هذا النص أي تدوير، فكل منهما شطر واحد. ثم تقول:

«لم يفهم المؤلف حكمي في قضية التدوير مطلقًا، ويلوح لي أنه يخلط بين «التضمين» الذي هو استقلال البيت الواحد عما يليه نحويًا، وبين «التدوير».

ويبدو أن الكاتب لا يميز بين البيت والشطر (ص ١١٩). وقد زعم أنني

استعملت التدوير فى قصيدتى الحرة (الأفعوان)، وهو زعم باطل فما أورده مثالاً لم يكن فيه تدوير ما لم يرد التدوير فى أى موضع من شعرى الحر طيلة حياتى.. فلا يتعب ماجد نفسه.

١٤ - يتهم المؤلف الشاعرة مع تمردها على رتابة العروض القديم، فإنها تدخل فى رتابة جديدة هى نفس الأولى ولكن بشكل جديد.. ص ١٢٢.

وترد نازك على ذلك بالقول:

«يقول إن القواعد التى وضعتها تدخل الرتابة على الشعر الحر. مع أننى قد استعملتها كلها، وليس فى شعرى رتابة باتفاق النقاد والدارسين. والواضح أن المؤلف يتحدث فى قضايا لم يدرسها وليست من اختصاصه».

١٥ - يرى المؤلف أن نازك أصبحت فى عام ١٩٦٨، لا تملك الحماسة وأصبحت تنظر إلى مسائل الشعر الحر ببصيرة وتعقل الناقد الهادئ بعيداً عن عواطفها كشاعرة. ويورد قولها الذى تعلن فيه عن أسفها أنها فى شعرها الحر لم تعلن عن عناية أكبر بالقافية، فكانت تغير القافية سريعاً وتتناول غيرها.. ص ١٢٧.

وتعد نازك ما يراه السامرائى فرية: لا أكون منفعلة وعاطفية عندما أمارس قرض الشعر وأكون متعقلة وهادئة وموضوعية حين أكتب النقد. وهل يريد منى المؤلف أن أكتب نقداً عاطفياً كله تهويمات وغيبوبات؟

مازلت أستعمل القافية المنوعة فى شعرى كله، ولست من أنصار القافية الموحدة، ولكننى أدعو إلى إبراز موسيقية الشعر الحر بقواف أكثر، خاصة أن كثيراً من الشعراء الشبان (فى ذلك الوقت طبعاً)، قد نبذوا القافية نبذاً تاماً، وذلك عندما ينقص من موسيقية الشعر الحر ويبعثره».

١٦ - يتهم المؤلف الشاعرة بأنها استسلمت للواقع وأصبحت تجربتها تسير نحو النهاية، ورحلت عنها الثورة والتمرد مع ذهاب شبابها، وأصبحت تشتاق إلى الوزن الواحد.. ص ١٢٨.

وتتساءل نازك:

ما معنى قوله: «أصبحت نازك تشتاق إلى الوزن الواحد»؟.

يقول إن الثورة والتمرد رحلت عنى برحيل شبابى، وأقول: ذهب شبابى وجاء نضجى الروحى والعاطفى والفكرى وشباب ذهنى. وقد استمر برنارد شو يبدع حتى الثالثة والتسعين. وبين يدى الآن للطبع ثلاث مجموعات شعرية جديدة نظمتها بين ١٩٧٣ - ١٩٧٥. وهذه المجموعات ليست مجرد «كم». إن فيها تجديداً وإبداعاً، وهل من الموضوعية الحكم على شاعرة حية بأنها انتهت؟

أما الإنسانية فلنتركها جانباً.

كل هذا ليس من النقد فى شىء، ومن ألف كتاباً عن شاعر، فينبغى له أن يحبه أولاً، لكى تنفتح له أبواب المعانى، وما أسهل الهجوم والسباب على من لا يحاسب نفسه على ما يقول».

....

هكذا تنتهى الملاحظات الجزئية التى سجلتها فى جزازات؛ وأرسلتها إلىّ قبل ربع قرن أو يزيد، ولحسن الحظ أننى احتفظت بها، لتكشف عن منهجية نقدية واضحة كانت نتاجاً لدراسة النقد الأدبى فى الولايات المتحدة مع التخصص فى الأدب المقارن. وما سجلته هنا ليس قضايا شخصية، بقدر ما يمثل قضايا علمية أساسية فى مجال البحث والدرس النقدى.

[٤]

وهى لم تكتف بالملاحظات الجزئية التى توقفت عند بعض الآراء والأحكام والمعلومات، ولكنها كتبت ما يمكن أن نطلق عليه دراسة قصيرة لكتاب «ماجد أحمد السامرائى»، طرحت من خلاله قضايا عامة كشفت قصور الباحث المنهجى مما أوقعه فى أخطاء لم تتوقف عند الجزئيات، وإنما انسحبت على النتائج التى توصل إليها فى بحثه بصفة عامة، فقد أهمل تواريخ قصائدها، وأصدر أحكاماً دون دليل على حياتها الخاصة، وكان عَجِلاً فى قراءته فلم يتعمق مطالعة النصوص بحيث تكشف له عن طبيعتها، ولم يلاحظ الجانب المهم فى شعر نازك، وهو الجانب الفكرى وتحولاته، كما لم يلاحظ الجانب المهم الآخر، وهو الثورة والتمرد والرفض، وتصور أنها نكصت عن الشعر الحر وتراجعت، ولم يلتفت إلى الجانب المجازى فى البناء الشعرى، وكل ذلك أوقعه فى استنتاجات غالطة وغير علمية.

وأترك للقارئ أن يطالع ما كتبته الشاعرة بخط يدها، وأعتقد أن أحداً غيرى لم يطلع عليه، اللهم إلا نفر من خاصة خاصتها.. وفيه بلا شك، ما يغير كثيراً من الأحكام والتصورات التى أصدرها البعض أو رآها حول شعر الشاعرة.. فمعرفة ما كتبته يؤسس لنظرة جديدة ورؤية مغايرة، فضلاً عن دلالاته الأخرى التى تحتاج إلى بحث مستفيض. ■

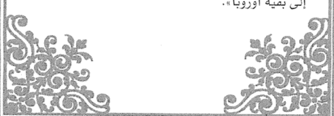


العرب والشعر الأوروبى

عبدالرحمن بدوى

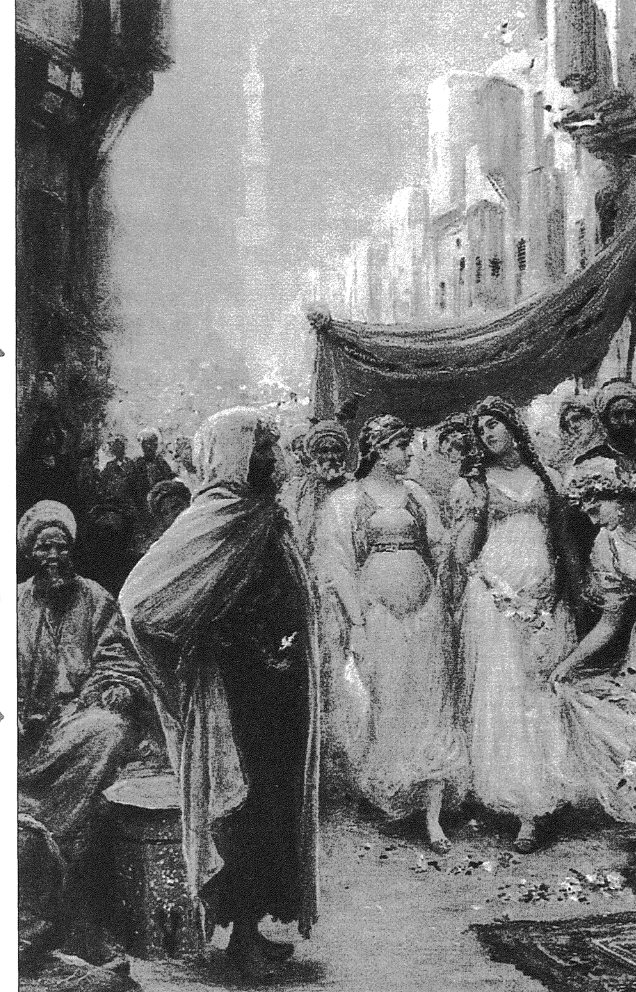
مسألة تأثير الشعر الأندلسى فى نشأة الشعر الأوروبى الحديث فى إسبانيا وجنوبى فرنسا من المسائل التى تشغل كثيراً بال الباحثين المعاصرين. خصوصاً ومواد عديدة جديدة تضاف كل يوم لتؤكد هذا التأثير، بل ولتثبت أن الشعر العربى الأندلسى فى الموشحات والزجل قد انطوى على المرحلة الأولى لنشأة الشعر الإسبانى نفسه. وذلك فى الخرجة التى تكتب عادة بلغة أجنبية، وكانت فى الزجل الأندلسى تكتب باللغة الإسبانية الدارجة الرومانسية. فإذا جعلنا من الخرجة أبياتاً إسبانية كانت بمثابة النموذج الأول للشعر الإسبانى، وبهذا يكسب الشعر الإسبانى أكثر من قرنين من الزمان.

هذان النوعان من النظم «الموشح والزجل» اللذان ابتكرهما أهل الأندلس، هما اللذان أثرا فى نشأة الشعر الأوروبى. وأول من قال بهذه النظرية هو «خليان ريبيرا» المستشرق الإسبانى الكبير الذى عكف على دراسة موسيقى الأغانى الإسبانية ودواوين الشعراء «التروبادور» و«التروفير» وهم الشعراء الجوالة فى العصر الوسيط فى أوروبا والمنيسنجر Minnesanger وهم شعراء الغرام، فانتهى من دراساته المستفيضة هذه إلى أن الموشح والزجل هما «المفتاح العجيب الذى يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التى صبت فيها الطرز الشعرية التى ظهرت فى العالم المتحضر إبان العصر الوسيط» وأثبت انتقال بحور الشعر الأندلسى فضلاً عن الموسيقى العربية، إلى أوروبا «عن نفس الطريق الذى انتقل به الكثير من علوم القدماء وفنونهم - لا يدرى كيف - من بلاد الإغريق إلى روما، ومن روما إلى بيزنطة، ومن هذه إلى فارس وبغداد والأندلس، ومن ثم إلى بقية أوروبا».





عالم «كلوت بك»



عالم «كلوت بك»

محمد المهدى



كلوت بك يلبس العمامة والملابس المصرية حتى تتيح له أن يخرج من حى الأرستقراطية «الأزبكية آنذاك» ويدخل الحوارى والبيوت والقرى والكفور، ويحكى عن كل شىء فى مصر



■■ قبض شيخ البلد على عجوز فى قرية الزقازيق، وأصر على حلق لحيته المهيبة، حتى يبدو صغيرًا فيقدمه للجندية. الحيلة انكشفت فانتحى العجوز بالمأمور جانبًا وشكا له سوء تصرف شيخ البلد الذى أودى بلحيته مصدر هيبته فى بلده وأمام ناسه. تحول المأمور بنظره للقاضى وكان حاضرًا وسامعًا وسأله الرأى. بدت من هزات القاضى واصطناعه الوقار ملامح تواطؤ صامت مع شيخ البلد فالتفت قائلاً: لم يأت فى القرآن الكريم أن اللحية باللحية.. وأحس المأمور بملامح التآمر متبادلة مع شيخ البلد والقاضى فقال: أما والأمر كذلك فمن حقى أن أحلق ذقن القاضى دون عقاب.. وهم بالتنفيذ.

تراجع القاضى ممسكًا بذقنه وتراجعت أيضًا الأحكام على لسانه، وأعلن أن شيخ البلد مذنب.. وانتهت الأزمة كما يرويها كلوت بك فى ذكرياته عام ١٨٣٤ بأن قبل العجوز ستين قرشًا تعويضًا عن لحيته، إلا أنه أصر على عدم العودة لقريته إلا بعد أن تعود لحيته مهيبة.

يروى انطوان كلوت (بك) Antoine Bertelemy Klot هذا الحادث معجبًا بتمسك المصريين بمظاهر الشرف عندهم من ذقون وأشناب. ولكن هذا الإعجاب لم يمنعه من بيع ذقنه لمحمد على بثمن كان المقدم منه تعيينه عام ١٨٢٥ رئيسًا للجراحين فى الجيش المصرى. ظل سلطانه يرتفع فى مصر لمدة خمسة عشر عامًا، بهرته مظاهر العظمة التى حصل عليها فضاع حينما قرر الكتابة عن مصر، وجاءت أحكامه سريعة ومتضاربة فى كتابه (لمحة عامة عن مصر).

العين الزجاجية

لم يفعل كلوت بك كما فعل الفلاح المصرى الذى أصر على إخفاء ذقنه عن أهل بلده إلى أن تنبت من جديد، فقد كشف الطبيب الفرنسى أنطوان كلوت عن ذقنه حليقة الكرامة من البداية. يقول فى مقدمة ما كتبه عن مصر إنه يعتذر بخضوع شديد للأمير الخطير محمد على لأنه لم يأخذ منه إذنًا بالكتابة، فإنه إن فعل فقد يفسر بأنه تكليف من السيد العظيم، وأيضًا يعفى سيده من لوم الناقدين لكتابه القاصر لأن سيده لم يعرف القصور. وفى النهاية يرجو العفو عن «أصدق الخدام ولاءً واحترامًا لكم.. كلوت بك».

كلوت بك يلبس العمامة والملابس المصرية حتى تتيح له أن يخرج من حى الأرستقراطية «الأزبكية آنذاك» ويدخل الحوارى والبيوت والقرى والكفور، ويحكى عن كل شىء فى مصر.. النباتات والحيوانات والطيور والأسماك والزراعة والتجارة والصناعة والمواصلات والسكان من عربان ومسلمين وأقباط ويهود ويونان وأهل الشام وأحباش وأوروبيين. يصف المنازل من الداخل والخارج والرجل والمرأة والأطفال والرقيق والملابس والأثاث والعادات والموسيقى والرقص والضرائب والجيش والبحرية والتجنيد والتعليم والأمراض ثم ينتهى بالآثار.. ولا يفوته طبعًا أن يتأمل الأحوال السياسية من وجهة نظر سيده وولى نعمته.



كل هذا الكم الهائل من موضوعات الدراسة تشعر أنه يتناولها بالبحث من خلال حوض زجاجى لا حس فيه. يظل يصف ويصف فى تفاصيل لا حصر لها ولكن فى برودة تسجيلية، وحينما يتجرأ فيصدر حكمًا على ظاهرة اجتماعية لا يكلف نفسه مد يده داخل الحوض ليتبين ملمس الأجسام، أو يمد بصره ليدرك فروق الألوان. تأمل مثلاً برودة تسجيله ظاهرة مسخ الآدمى فى القرن قبل الماضى بخصيه. حيث كانت كل من مدينتى أسيوط وجرجا مصدر توريد الخصيان «ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده، بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به، ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئًا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول، وبعد إلقاء الزيت يذرون على مكان الجرح مسحوق الحناء، ثم يدفنون الفتى فى الأرض إلى ما فوق البطن، وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعًا وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من الطين والزيت».

ثم يبدأ فى سرد العلامات المميزة للخصيان، ومكانتهم الاجتماعية وكيفية صعودهم فى الحياة الاجتماعية رغم ما أصابهم من تشويه. وينتهى بأن يلقى درسًا فاترًا عن بشاعة هذه الظاهرة. وحينما يعدل كلوت بك عمامته وينوى الدخول إلى البيت المصرى ذى الطراز العربى لا يرفع عن عينيه الحاجز الزجاجى. يجمع التفاصيل عن مدخل البيت، يصف



الباب والنوافذ والسطوح وصحن الدار والحريم.. ولفرط استغراقه فى جمع التفاصيل تصيبه النظرة الممزقة فلا يعرف قيمة معمارية لهندسة البيت العربى فى القرن قبل الماضى. فالمظهر الخارجى للبيت يراه عديم التناسق، بل وقبيحاً، ومن الداخل غير منسق فيه اتساعات وارتفاعات وانخفاضات بلا معنى. أما الزخارف العربية المنتشرة فى أنحاء البيت فلا تعدو أن تكون أشياء ظريفة.

البيت والمرأة

وإذا قارنت هذه النظرة السطحية بنظرة المستشرق «بريس دافين» الفرنسى، الذى عاش طويلاً فى مصر. رسم وسجل العديد من الآثار العربية بها وطبعت فى كتابه «الفن العربى».. تجد دافين يتأمل ويسجل بحسه الفنى البيت فى نفس الفترة من خلال وعيه بقيمة العمارة الإسلامية والفن الإسلامى، يرى التناغم بين مدخل البيت ومكوناته الداخلية متوافراً. يرى التكوينات التجريدية الإسلامية التى أبدع الفنان المجهول توزيعها على مكان عبادته تحيط به أيضاً فى مكان إقامته.

ولكنك تستطيع أن تعثر لكلوت بك فى حجرة الحريم على تأملات طريفة. فرغم حرصه على تذكيرنا دائماً بتمسكه بالفضائل وتجنب وصف التفاصيل المخلة، إلا أن عينه تلتقط نهود المصريات بهذا الوصف «وأثداؤهن جيدة التكوين، حسنة الوضع، وافية فى صلابة تحت الصدور عريضة لا قبل لها بالحيل الضارة التى تلجأ إليها السيدات الأوروبيات». أو قوله عن حديث السيدات المصريات: «فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «يا عينى» «يا روحى»، «يا قلبى». ثم لا يتحرج من الدخول معهن الحمام فيصف عملية الختان، أو إزالة الشعر والتدليك والضحك والرقص وخلافه لعروس فى اليوم السابق للدخلة، ويتتبعها وهى ترتدى ملابسها الداخلية ويصعد معها إلى الحريم، ثم ينزل ليصعد مع العريس ويشرح عادة فض البكارة باليد وإعلان النتيجة على منديل أبيض. ولا تتوقف تجارب كلوت بك عند هذا الحد فيقول عن النساء المصريات بعد الزواج «فلهن ميل شديد إلى المضاجعة لأنهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة».. ولو خبر كلوت نساء الريف وهن الغالبية فى مصر لتعلم درساً فى العمل الشاق موصولاً على مدار العام.

كلوت بك يبدأ فى التضارب والتناقض أو السطحية، حينما يشرع فى التحليل وإصدار الأحكام.. فالمرأة المصرية فى صفحة راضية تماماً عن وضعها، بل وترثى للمرأة الأوروبية.. وفى الصفحة التى تليها يعرض سخط المرأة المصرية حينما قدمت بعض النسوة احتجاجاً لنابليون يطلبن المساواة بزوجة «مينو» المصرية التى يعاملها معاملة متحضرة. أما كأحكام عامة، فهو يرى صواب رأى «مونتيسكيو» فى أسباب تعدد الزوجات فى الشرق. ويرى مونتيسكيو أن نضج المرأة الشرقية، بأسرع من المرأة الغربية أدى إلى زواجها صغيرة أو فى فترة لا تتوفر لديها سوى ميزة الجمال دون العقل، وإذا تزوجها الرجل كبيرة فلن تتوفر لديها سوى ميزة العقل دون الجمال، ويدعوه هذا إلى أن يعدد زيجاته!! أو نرى كلوت يقول أيضاً إن تعدد الزوجات هو الذى جر على مصر الانحطاط والتعرض للغزو الخارجى واستعمار أوروبا لأرضها. أو أن اللواط منتشر فى الشرق نتيجة لقلة النساء بالنسبة للرجال بسبب امتلاك بعض الرجال لأكثر من امرأة. أو أن الرقص الشرقى امتداد للرقص المصرى القديم (الرقص الشرقى أصله رقصة المخاض أو البطن ومن وسط آسيا).

صورة نادرة

على أنه يذكر لكلوت رأيه فى الرق الشرقى فهو بالمقارنة بالرق الذى عرفه الغرب، أو عرفته أمريكا شىء يستحق الإعجاب. الرق فى الشرق نوع من التبنى، يصير الصبى أو الصبية بعد الشراء كفرد من الأسرة، ويقوم السيد بتعليمه القراءة والكتابة. وقد يصير (شبكجيا) أى يعد الشبك (الأرجيلة) أو قهوجياً أو فراشاً، وربما صار خازنداراً أو كاتباً أو سلحداراً أو كيخيا، وربما

كلوت بك يبدأ فى والتناقض أو السطحية، حينما يشرع فى التحليل وإصدار الأحكام

تزوج فى النهاية من إحدى بنات سيده.

أما الصورة النادرة التى يسجلها ولا نمتلك الآن سوى تخيلها، صورة آداب تقديم القهوة أو إعداد الشبك للتدخين. والشبك تختلف صورته آنذاك عما نعرفه الآن، فقد كان يتكون من فم وأنبوبة ثم الجوزة أو الحجر، أو ما يشبه الغليون الآن ولكن بأنبوبة طويلة تمتد من فم المدخن وتنتهى مرتكزة على الأرض. وهناك خادم خاص لتقديمه بعد إعداده. وتقتضى التقاليد أن يمسك الخادم الشبك من الأنبوبة ويتقدم من الضيف ويركز حجر الشبك على الأرض فى مسافة أمامه، بحيث يصل فم الشبك فم الضيف باستدارة بسيطة. وعلى الضيف الأقل مقامًا من المضيف أن يراعى إبعاد الدخان عنه، وأن يظل يسند شبكه على ركبته بين كل نفس وآخر.

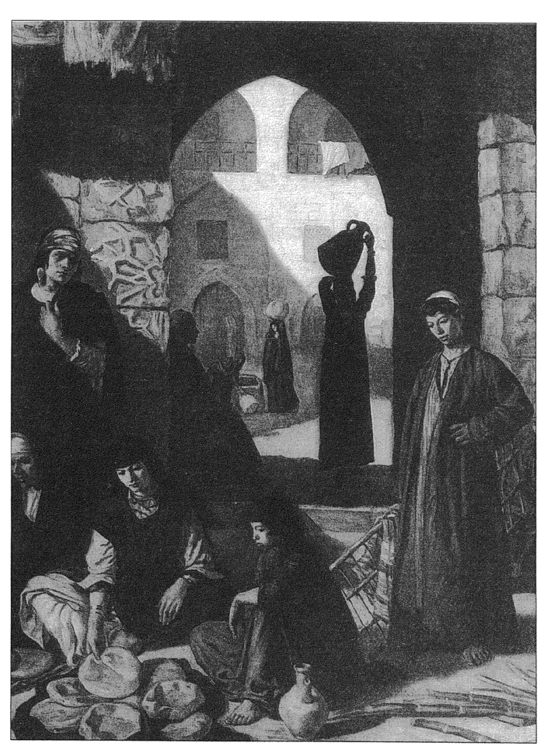
وكذلك صورة الحمام العمومى بما فيه من أدوار التدليك، والتكبيس، وفرقعة الأطراف، وحك الكعبين وباطن القدمين. وصورة الحلاق، حيث تتدلى فوق رأس الزبون آنية معدنية مملوءة بالماء ومعلقة فى السقف يصب منها عند الحاجة فى طشت أسفل ذقنه، ثم يأخذ الحلاق رأس الزبون على ركبته اليمنى ويبدأ عمله، ولا يمنع ذلك من توقف العمل بين الحين والآخر، لأخذ نفس من الشبك أو رشفة قهوة أو دردشة أو دخول زبون جديد يستوجب الترحيب. وصورة مواصلات ذاك الزمان من جمال وبغال وحمير. الجمال للأعراب، والبغال للعلماء، أما الحمير فغالبًا للنساء، ببردعة خاصة عالية، بحيث تركب السيدة من جانب واحد، ويسندها من الجانب الآخر شيخ كبير أو خصى.

ويقول كلوت إن المصريين فى جلسة المزاج يفضلون الحشيش لأنه يعطيهم حدة فى التصور لشعب يجيد النكتة، بينما يفضل التركى الأفيون لأنه يعطيه رخاوة وسكونا يوافق مزاجه.

صور كثيرة يسجلها كلوت بك فى قليل منها سخونة، وفى كثير منها أكثر من برودة.. أما آراؤه السياسية فقد أبعدته عن إدراك الحقائق، قلة معلوماته عن التاريخ المصرى وبرود حسه، وضيق أفقه فى تحليل الظواهر الاجتماعية، ثم ارتباطه بالسلطة بما كان يفرض عليه نوعًا من الكذب أو التلفيق. فالمصريون عنده «مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم». والسبب أنهم لم يندمجوا بغزاتهم كالشعوب الأوروبية. وقد تناول الدكتور حسين فوزى فى كتابه «سندباد مصرى» هذه النقطة بالشرح والتحليل والإحصاء وانتهى إلى الآتى: «فإنك واصل معى إلى أن مصر التى يقدر تاريخها بحوالى خمسة آلاف سنة تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة، حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسر مصرية، ونحو ألف سنة حكمتها أسر أجنبية، أمة تحيا خمسة آلاف عام تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة، أى ما يعادل سبعين بالمائة من تاريخها، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رؤوس الشباب؟».

.. ما وراء العمامة

ويسجل كلوت بك هذه اللمحة عن طبيعة العناد عند المصرى تجاه السلطة فيقول: «التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين. فإنك ترى فيهم من



يقول كلوت إن المصريين يفضلون الحشيش لأنه يعطيهم حدة فى التصور لشعب يجيد النكتة

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة».

وواضح من تأمل كلوت لهذه الظاهرة أن ظل السلطة يخيم على عقله، فهو يعتبر التعنت هذا نقيضه، والأسوأ اعتباره «الضرائب الزهيدة» حقًا من حقوق السلطة، رغم اعترافه فى كثير من المواضيع بما عاناه الشعب المصرى من تعنت السلطة نفسها، وحجب عنه الكابوس الجاثم على عقله إدراك معنى قبول الفلاح الجلد مائتى جلدة على الخضوع لأوامر سلطة ظالمة. وإذا كان المصرى لا يليق بمزاج كلوت فى احتجاجه السلبى بقبول الجلد، فهو أيضًا لا يعجبه فى ثوراته العنيفة، فالعلماء حينما قادوا الثورة ضد الحملة الفرنسية كان كل ما فعلوه هو جمع «شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها». وطبيعى بعد ذلك أن يؤيد سيده محمد على فى استيلائه على أموال العلماء وكسر شوكتهم، وطبيعى أيضًا أن تكون من صفات المصريين الجشع والحسد والكسل والتعصب وصلابة الرأس والميل إلى المجون. ومن صفات العثمانيين قلة الذكاء ومحدودية الأفق والكبرياء والصلف بدون مبرر والتعصب. ومن صفات المماليك قلة الذكاء والحكمة والتصلب والعناد والغدر، ومن صفات الأرناؤوط العناد والشغب والجشع.. أما محمد على «فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الأوهام الفاسدة».

قد يذكر لكلوت بك أنه أنشأ مدرسة الطب بمصر عام ١٨٢٧ فى منطقة «أبوزعبل» لخدمة الجيش وانتهت إلى قصر العينى ومستشفى آخر بالأزبكية. ولكن لم يكن هذا مبررًا ليخوض فى حياة المصريين طولاً وعرضًا، تسجيلاً من السرير إلى الصراع الدولى، وتحليلاً ضعيفًا يفسر الظاهرة من خلال طبقة أو زمان أو مكان، ثم يجد نقيضها فى طبقة أو زمان أو مكان آخر. فتأتى تفسيراته متضاربة، وتشعر من محاولته تحديد المعالم أن لا معالم لمصر ولا للمصريين. وليست هناك معالم واضحة يحرص على تسجيلها دائمًا سوى معالم ذلك الرجل القصير ذي العينين الكستنائيتين والأيدى الصغيرة المفتولة الأصابع والعمامة المنحرفة إلى اليسار.. محمد على. وحينما جاء الكاتب الفرنسى «جيراردى نرفال» إلى مصر عام ١٨٤٣ ذهب لمقابلة القنصل الفرنسى، ووجد عنده الحديث يدور ساخنًا حول محاولة إنقاذ فرنسى وزوجته يودان اعتناق الإسلام ويفكر القنصل فى اختطافهما ويعلق نرفال:

ـ ولكن لو فرض أن لديهما عقيدة دينية راسخة.

❖ القنصل: أتعتقد ذلك؟ هل يتحول الفرنسى إلى تركى؟

ـ جيرار: أمامك هنا بعض الأوروبيين الذين ارتدوا العمامة.

❖ القنصل: لا شك أنهم من كبار موظفى الباشا، ولم يكونوا ليصلوا إلى الدرجة التى حصلوا عليها، أو ليلزموا المسلمين بطاعتهم لولا هذه الطريقة.

ـ جيرار: بودى أن أعتقد أن تغييرًا حقًا قد طرأ على أكثريتهم. وإلا لما رأيت فى الأمر إلا مبررات مادية.

وكان كلوت بك واحدًا من هؤلاء، الذين قال رائدهم عاكسًا قول بن جلا قصار: «إذا وضعت العمامة فلن تعرفونى». ■



محمــود عبــدالــوهــاب

كل هـــذا الطــرب!



■ ■ من بين كل أنواع الفنون ليس هناك ما هو أكثر تحريكًا للقلب وإثارة للشجن وارتقاء بالوجدان ودفعًا لغلالة دمع للعيون من الغناء وتجليات الطرب. والغناء منطقة إبداع شديدة الحساسية والتأثر بما يدور فى العصر الذى ينشأ فيه ازدهارًا أو هبوطًا وتراجعًا.

وفى وقتنا المعاصر لم يعد هناك من يقدم هذا الغناء الذى يتفجر طربًا سوى فريدة محمد مطربة المقام العراقى وصباح فخرى وكلاهما فضلاً عما يقدمه من إبداع فى الأداء، فإنهما يمثلان حالة حماية وحفاظ ونشر لتراث من الإبداع الغنائى العربى المعاصر، فضلاً عن السيدة فيروز التى أثرت الاحتجاب الإرادى.

المثلث السحرى

لم يتفق جمهور الذين كتبوا فى الغناء على تعريف للطرب ولكن ثمة أوصافًا لحالة الطرب، فهو نشوة تحرك الوجدان وتبعث فى المتلقى مشاعر من الرقة والتسامح مع العالم وشجن عميق يحرك الروح ويسمو بها.

نشوة رائعة لا يصنعها فن آخر ولا أى من المحسوسات المادية، والغناء الذى يطرب لابد أن تكتمل فيه وتتناسق الكلمة واللحن والصوت، أو ما أسميه المثلث السحرى، فكل ما فيه جميل ومؤثر الكلمة واللحن والصوت واكتمالها معًا يصنع حالة الطرب.

ويحفل كتاب الأغانى - السجل الوافى لتاريخ الغناء - بوقائع كثيرة عن هذا المزج، خاصة فى مجالس الخلفاء، أو الأثرياء إذ ينشد أحدهم شعراً من نظمه أو سمعه، أو يعزف أحد الموسيقيين لحناً فيتنادى الجالسون فى من يضع للحن نظماً، ثم يتنافس المغنون والقيان فى من يحظى بالأداء.

ولمع نجوم مثل إبراهيم وإسحاق الموصلى وزرياب ومعبد وابن جامع ونصيب وابن سريج وابن محرز ولبيد وسلافة ولبابة وحكم الوادى وغيرهم كثير. وهؤلاء وغيرهم هم الذين أشاعوا حالة الطرب وكان عبدالله بن جعفر وهو من هو يقول عندما يهزه الطرب: «لو لقيت لأبليت ولو سئلت لأعطيت ولو حكمت لعفوت». ولا يختلف أحد فى أن ظهور واستقرار الدولة العربية الإسلامية أسهم فى تطور وازدهار الغناء وظهور حالة التسابق على اكتشاف المواهب أصواتًا وملحنين وشعراء، فالغناء فن مدينى يزدهر

في المدن ومع الاستقرار، فقد عرف العرب مثلاً الغناء قبل التاريخ المكتوب، ولكنه اقتصر على شكلين الحداء والتعديد، الأول يمارسه حادي القوافل طيلة الطريق لجمع الابل وعدم شرودها والإبل يزداد نشاطها وقوتها بالحداء وللتسرية على المسافرين. تجاراً أو مرتحلين. في الوقت نفسه. والتعديد هو البكاء على الموتى قتلى غزوات أو موت القضاء، وكان غناء مؤثراً يسهم في المواساة وتخفيف المصاب. والواقعة المتفق عليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد.. والمدينة كلها تعيش لحظات حزن وتنعى شهداءها.. فقال الرسول الأكرم بأسى «إلاحمزة لا بواكي له» قاصداً عمه حمزة بن عبدالمطلب الذي قتل في غزوة أحد بتربص من العبد «وحشي» وبتحريض من هند بنت عتبة، فقام نفر من الأنصار وأتوا بنسائهن ووقفن بباب المسجد يندبن حمزة سيد الشهداء حتى قال الرسول الأكرم: «غفر الله لكم ولهن مروهن فليعدن إلى دورهن».

ولم يتطور الغناء وتتعدد وظائفه إلا مع تطور المجتمع وتحوله إلى مجتمع مديني مستقر. وتعددت وتنوعت وظائف الغناء والموسيقى، وأسهمت الفتوحات في انتقال وتداخل الثقافات المختلفة من البلدان الجديدة التي من الله بها على العرب فاطلعوا على غنائهم وموسيقاهم وإيقاعاتهم وتأثروا، تماماً كما تأثر العرب الذين فتحوا الأندلس بموسيقى الأندلس وإنشاد المنشدين فظهر نمط من الموسيقى هو الأندلسيات الذي يختلف عن غناء أهل المشرق، واختلف العرب حول الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز، مشترطين ألا يلهي عن ذكر الله أو ألا يكون فيه أمر محرم ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة، ويدللون على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستنكر استقبال أهل المدينة له بالغناء، ولم ينكر على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها استماعها لدف الحبش بل وأسبل عليها رداءه الشريف.

وتميزت مرحلة الاستقرار التي ازدهر فيها الغناء بشعراء فحول أو مجيدين أمثال جرير والفرزدق وأبوالعتاهية والبحتري وفي الغزليات عمر بن أبي ربيعة الذي كانت تهديه النساء الهدايا كي يذكرهن في شعره فتعم شهرتهن ويبقى ذكرهن، وقيس بن الملوح، وقيس لبنى وكثير عزة وعديد من الشعراء الذين بقيت لهم قصيدتان أو ثلاث وكلهم تحول شعرهم أو بعضه إلى غناء، وفي الأندلس لمع ابن زيدون ولسان الدين الخطيب وابن عبادة وولادة بنت المستكفي وكثيرون.

غناء الاختيار

قلائل الذين حافظوا على هذا التراث الجميل من الغناء والطرب، ولم يكن سهلاً أبداً ولا ميسراً اختيار الكلمة وهي ركن أساسي في المثلث السحري، وإذا كان الموسيقار محمد عبدالوهاب قد ساعده وجود أمير الشعراء أحمد شوقي بجواره والذي أسهم في تثقيفه وهداه إلى عيون الشعر العربي واختار معه من الدواوين المطبوعة لـ «مهيار الديلمي» قصيدة «أعجبت بي» ومن ديوان صفي الدين الحلي قصيدة «قالت» فإن المهمة ـ الرسالة ـ كانت أصعب عند صباح فخري والأخوين الرحباني وأكثر عناء وجهداً. وحتى شهر مضى كان صباح فخري ـ متعه الله بالصحة ومد في عمره ـ يغني كموال افتتاحي هذه الأبيات:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو
وحملوها وسارت بالدمى الإبل
وقلبت بخلال السجف ناظرها
يرنو إليّ ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانه علم
ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادي العيس عرج كي أودعهم
يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقض مودتهم
يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

ويقال إن هذه الأبيات من الشعر القديم ـ وهذا صحيح ـ ولكن لا أحد يعرف الشاعر ولا الديوان، ليس عن تقصير، ولكن لأن الشاعر، رجل مجنون أو به لوثة ـ إن شئنا الدقة ـ وذكرت الأبيات في موضعين فقط هما الأغاني (ج ١)، والثاني هو «المستطرف في كل فن مستظرف» لشهاب الدين بن أحمد بن أبي الفتح الأبشيهي الذي طبع أكثر من خمس عشرة طبعة، وروى الأبشيهي قصة الأبيات في صدر حديثه عن الاغتراب والفراق يقول الأبشيهي: «حكى بعضهم قال دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك ينشد شعراً فقلنا له أحسنت فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وأقسم علينا أن نسمعه وأنشدنا.. (الأبيات) أما صاحب الأغاني فأورد ثلاثة أبيات منها فقط في ذكره لمجالس هارون الرشيد.

وقصة الأبيات تؤكد فضل صباح فخري سواء كان قد سمع لأحد تغنى بها ـ وهو أمر غير مؤكد ـ وهو هنا له فضل حارس الطرب والتراث، أو عثر عليها هو في بحثه وتنقيبه وهو فضل لا يقل عن فضل الحارس فمثل هذه الأبيات والكلمات لا يطرق الأبواب بها مؤلف معاصر.

أما الأخوان الرحباني فقد بذلا جهداً مضنياً في البحث عن الكلمة ولم يكتفيا بأن غنيا لابن الخطيب «جادك الغيث» ولابن الملوح «أحب من الأسماء» و«لي فؤاد» ولا الثنائية البديعة من غناء زرياب في مرحلته الأندلسية أداها مع السيدة فيروز «كارم محمود» بل وصلا حتى شاعر أموي من الفحول، ولكنه لا يحظى بشهرة معاصريه ومن بعدهم.



وانتقى الأخوان الرحباني مقاطع من قصيدة له كي تغنيها السيدة فيروز في ثنائية جميلة مع نصري شمس الدين، أما الشاعر فهو الصمة بن عبدالله القشيري وهو شاعر بدوي من العصر الأموي وأحد أصحاب قصص الحب العذري، فقد أحب «ريا» ابنة عمه إلا أن أباها رفض تزويجها له واشترط عليه في المهر وزوجها لغيره. فتعذب كثيراً، ثم ترك مرابع الأهل وسافر إلى طبرستان حيث مات قهراً وغربة وشوقاً. وقال هناك هذه القصيدة التي أتقن وتفنن الرحبانية في اختيار ما يصلح منها للغناء، ومن أبياتها:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى
وما أحسن المصطاف والمتربعا
واذكر أيام الحمى ثم انثنى
على كبدي من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع
عليك ولكن خل عينيك تدمعا
كأنما خلقنا للنوى وكأنما
حرام على الأيام أن نتجمعا

ما تبقى لنا

لا خلاف على أن حفظ تراث الغناء القديم والموشحات بأشعارها الرائعة كان وراءه جهد لا ينكر لناظم الغزالي وصباح فخري، دون إنكار لإسهامات من كامل الخلعي ومحمد عثمان وسيد درويش، ولكنه إسهام المقل. فسيد درويش قدم موشح «صحت وجداً يا ندامى» و«يا شادي الألحان» الذي اختلط على البعض ونسبوه لأبي خليل القباني، وقدم موشح «العذارى المائسات» وكذلك «عذيب المرشف» و«منيتي عز اصطباري»، ومحمد عثمان قدم «ملا الكاسات» و«اسقني من الراح» و«فتنا مطرب الحي»، والشيخ زكريا أحمد قدم موشح «بنت كرم»، وصفر على موشح «محيي غرام المشتاق». الشاهد أن هناك جهوداً ولكنها جهود المقل ـ كما أسلفنا ـ وحتى أمير الشعراء أحمد شوقي أدلى بدلوه فكتب موشحين أحدهما هو الذي عارض فيه موشحاً أندلسياً قديماً وهو «مضناك جفاه مرقده» والذي غناه محمد عبدالوهاب.

وأهمية إنجاز ناظم الغزالي وصباح فخري هو تدوينهما لأكبر عدد من الموشحات على النوتة بدلاً من أن تظل سماعيا وتتعرض للسقوط من الذاكرة، فضلاً عن الأداء الغنائي لهذه الموشحات، فظلت حية في الذاكرة والوجدان.

وابتكر ناظم الغزالي ونهج على نهجه صباح فخري نمطاً في الغناء، بحيث يبدآن بالمفتتح بموال من الغناء القديم، ثم يقدمون غناء يقارب روح العصر لكنه لم يصل أبداً إلى الإسفاف أو الرخص. فقدم ناظم الغزالي مثلاً (سمراء من قوم عيسى) و(عيرتني

كان العصر العباسي هو العصر الذهبي للغناء، وظهر موسيقيون عظام مثل إبراهيم الموصلي واسحق الموصلي ومعبد وزرياب وشاع ذكر المغنين والمغنيات مثل سكينة ولبابة وغيرهن كثيرات



بالمسيب) و(طالعة من بيت أبوها) و(على جسر المسيب)، ومن التراث العراقى (يا عمى يا بياع الورد)، و(تلفان بيها شامة ودقة على الحنك مين يشتريها) ، و... و.....

وتميز غناء ناظم الغزالى بمساحة من الحزن والشجن وهو موروث الثقافة المتراكمة فى العراق، ولظروفه الخاصة، فهو ولد فى ذروة ثورة العشرين وذاق اليتم مبكراً وشاهد موت الأقارب والجيران فى الثورة، وموروث الثقافة الشعبية، فأهل العراق عانوا من افتقاد العدل وتمايز شديد بين الأغنياء والفقراء، وتوارثو جيلاً عن جيل أن آل البيت لقوا مصرعهم بين ظهرانيهم وأنهم خذلوهم من الإمام على إلى الإمام الحسين.

أما صباح فخرى فقد طور فى نمط أداء ناظم الغزالى واجتهد كثيراً وبحث ونقب للوصول إلى الشعر القديم الذى كان يغنى فى الموشحات ليغنى منه مواويل افتتاح أغانيه، فغنى «حبيبى على الدنيا إذا غبت وحشة»، و«لما أناخوا العيس وحملوها وسارت بها الإبل» ومن شعر عمر بن الفارض فى العشق الإلهى غنى:

لو صادف نوح دمع عينى غرقا
أو جرب لوعتى الخليل احترقا
أو حملت الجبال ما أحمله
صارت دكا وخر موسى صعقا

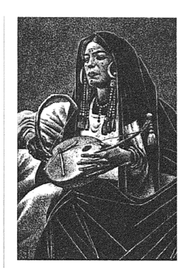
ومع هذه المواويل المنتقاة من الشعر القديم العباسى والأندلسى والصوفى غنى صباح فخرى «خمرة الحب»، «مالك يا حلوة مالك»، «الفل والياسمين والورد»، «اسقى العطاش»، «قدك المياس»، «فوق النخل»، «قل للمليحة»، «يا مال الشام»، «ابعت لى جواب»، وصيد العصارى».

وغنى قصائد كاملة من الشعر الأندلسى مثل قصيدة «لسان الدين» لأبى عبدالله بن الخطيب، والتى غنتها فيروز أيضاً:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً
فى الكرى أو خلسة المختلس
فى ليال كتمت سر الهوى
بالدجى لولا شموس الغرر

وغنى لابن الملوح وفيروز أيضاً:

أحب من الأسماء ما وافق اسمها
وأشبهه أو كان منه مدانيا





تميز غناء ناظم الغزالى بمساحة من الحزن والشجن وهو موروث الثقافة المتراكمة فى العراق، ولظروفه الخاصة



النبع والغصون

منذ أن جهر «طويس» بالغناء فى المدينة المنورة كما يقول صاحب الأغانى تسارع تطور الغناء وانتشاره فى أرجاء الدولة الإسلامية خاصة مع تطورها وازدهارها، وتنافس الخلفاء والولاة والأثرياء فى اجتذاب المغنين والمغنيات إلى بلاطهم والسعى لإغراء الموسيقيين وشراء الجوارى والقيان وتعليمهن الغناء. وكان العصر العباسى هو العصر الذهبى للغناء، وظهر موسيقيون عظام مثل إبراهيم الموصلى واسحق الموصلى ومعبد وزرياب وشاع ذكر المغنين والمغنيات مثل سكينة ولبابة وغيرهن كثيرات. ومع اتساع الدولة العباسية دخل فى الإسلام كثير من أبناء الأمم والشعوب الأخرى وتداخلت الثقافات وحاول أبناء هذه الأمم الاندماج فى الدولة الجديدة، ولأن الغناء لا يمكن أن يتم دون نص شعرى، فقد توسع المغنون فى البحث عن نصوص شعرية تصلح للغناء، ووجد بعضهم بغيتهم فى الشعراء من أبناء هذه الأمم، لأنهم نظموا الشعر بلغة عربية ومعان أعجمية ومن أشهر من تغنى لهم المغنون «صفى الدين الحلى» والذى يغنى له محمد عبدالوهاب قصيدة (قالت)، و«مهيار الديلمى» الذى يغنى له أيضاً محمد عبدالوهاب قصيدة «أعجبت بى».



أما التطور النوعى فى الغناء العربى وظهور ما عرف بالغناء الأندلسى والموشحات وهى التى بقيت ووصلت إلينا من الغناء العربى القديم، فقد حدث مع تمكن آخر أمراء بنى أمية عبدالرحمن بن معاوية والمعروف بـ «عبدالرحمن الداخل، صقر قريش» من الاستقرار فى الأندلس واتخذ من مدينة «قرطبة» عاصمة لملكه وبنى بها القصور وحولها الحدائق وأخذ يجلب كل ما كان فى بلاد الشرق «دمشق» من ترف، ويقلد ما كان فيها، وبدأ يستدعى المغنين والقيان، وانتقل كثير منهم بإرادته إلى الدولة الوليدة.

ومن أشهر من انتقل من بغداد إلى الأندلس «زرياب» والذى أسس مدرسة له يعلم فيها الموسيقى والغناء، وساهم الاستقرار الذى استمر طيلة حكم عبدالرحمن الداخل وخلفائه من بعده، وحتى عصر ملوك الطوائف فى تطور الغناء الشرقى ليظهر غناء خاص بالأندلس هو الموشحات التى لا يوجد اتفاق علمى على نشأتها وهل هى غناء أندلسى أم هى تأثير الغناء الأندلسى على الغناء العربى، أم هى نتاج تأثير إنشاد كنسى على الغناء العربى، أم هى نتاج التبادل الموسيقى بين الموسيقى الأندلسية وموسيقى الشرق والتى كانت متأثرة بموسيقى وألحان الأمم الأخرى. وارتبط بالموسيقى الشعراء الذين كانوا يكتبون لها وأشهرهم ابن سناء الملك وابن الخطيب وعبادة القزاز.

ونظم الشعر للموشحات يختلف كثيراً عن نظم الشعر العادى من حيث تكرار أبيات وترتيبها. ويعد الأباء المؤسسون للموشحات عبادة القزاز، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد كما يقول ابن خلدون وشاعت الموشحات لجدة ألحانها والتطريب فى موسيقاها ورقة المعانى وإحكام صورها ودقتها.

أين نحن الآن؟

رغم كل هذا التراث الرائع والجميل، إلا أنه لم يؤسس لحالة غنائية مستمرة رغم أن بدايات القرن الماضى وحتى الأربعينيات شهدت محاولات من مطربين وملحنين خاصة فى «الأدوار» التى ذاعت وانتشرت مثل «يا حليوة يا مسلينى» و«من الشباك» و«قمر له ليالى» و«على خده يا ناس». ومحاولات محمد عبدالوهاب وزكى ناصيف ورياض السنباطى والأخوان الرحبانى والإخوة سحاب (فيكتور وإلياس وسليم)، وتوفيق الباشا وفيلمون وهبى، إلا أن أقصى ما تحقق هو تخليص الغناء من التأثير العثمانى فى الأمان واللالى والتكرار، وإنشاء فرق لإنشاد الموسيقى العربية هنا وهناك، تقدم حفلاتها بمواسم. وأصاب الوجدان جفاف وغاب الشجن وماتت الأحاسيس والقلوب وأصبح الناس ضحايا لضجيج وعبث. ■







جائزة أحمد بهاء الدين السنوية العاشرة (٢٠٠٧)

جائزة الشباب العربى فى كل الوطن العربى

للشباب فى مختلف أنحاء العالم العربى دور رئيسى وهام فى صنع التغيير وفى التفاعل مع الأحداث الجسيمة التى يشهدها الوطن العربى. وموضوع مسابقة جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين هذا العام هو: **مشاركة الشباب العربى فى العمل السياسى والاجتماعى..**

كيف يمكن تقييمه؟ وكيف يمكن تطويره؟ وما هى العوامل التى تعيق تقديمه وزيادته؟

لقد اختارت جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين موضوعها **حول مشاركة الشباب** ليكون محور أنشطتها الثقافية للموسم الثقافى (٢٠٠٧ - ٢٠٠٨).

وفى هذا الإطار تعلن الجمعية عن مسابقتها السنوية العاشرة لتأليف كتاب باللغة العربية يتناول هذا الموضوع، برؤية تفصيلية شاملة وبحرية كاملة.

شروط التقدم للمسابقة



١ - الانتماء إلى بلد عربى.

٢ - عدم تجاوز سن الأربعين عند إقفال باب الاشتراك (٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧).

٣ - تقديم ما يلى من أصل مطبوع وصورة واحدة.

- السيرة الذاتية.
- خطة البحث فى حدود صفحتين.
- فصل من الكتاب أو جزء منه لا يزيد عن خمسة آلاف كلمة.

٤ - أن يكون العمل جديدا ولم يسبق تقديمه لأية جهة أخرى.

إجراءات المسابقة ومنح الجائزة

المرحلة الأولى

١) يقوم المشترك بتسليم أو إرسال الأوراق المطلوبة فى موعد غايته ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٧ على عنوان الجمعية برقم ٩٣ شارع قصر العينى، شقة ٣٣، القاهرة، أو ص.ب ١٨٦ الدواوين (أو الاتصال ٢٧٩٢٤٠٣٢ / ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧).

٢) يتم عرض المشاريع المقدمة على لجنة تحكيم تختار من بينها ما يستحق الحصول على منحة بحثية قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لمتابعة الكتابة. وللجنة أن تطلب من مقدمى المشاريع الحضور لمقابلة أعضائها.

٣) تنظم الجمعية أمسية ثقافية يدعى إليها الفائزون بالمنح البحثية وأعضاء الجمعية ونخبة من الكتاب والناشرين والمفكرين، ويقوم كل من الفائزين بعرض موضوعه.

المرحلة الثانية

خلال العام التالى للفوز بالمنح البحثية يقدم كل من الفائزين بهذه المنح مسودة كاملة لكتابه فى موعد تحدده الجمعية.

وتختار لجنة التحكيم أفضل عمل كامل ليفوز صاحبه بجائزة أحمد بهاء الدين السنوية وقدرها عشرة آلاف جنيه مصرى بجانب قيام الجمعية بالمساهمة فى نشر كتابه.

المركز الرئيسى ٩٣ شارع قصر العينى، الطابق الخامس، شقة ٣٣، القاهرة
بريد: جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين ص.ب ١٨٦، الدواوين، القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٧٩٢٤٠٣٢ موبايل ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧

Email : fabdsociety@hotmail.com
info@ahmedbahaaeldin.com
www.ahmedbahaaeldin.com

زمـــــن ابن خـــــلـدون..



حـــوار مـــع تيمـــورلـــنـك

بـيـن الكلمـــة والســـيف!

رافيـــــل بـالـنـــسـيا

ترجمة: أحمد نبيل

■ كان اللقاء الأول بين عبدالرحمن ابن خلدون وتيمورلنك سلطان المغول على أطراف دمشق فى ١٠ يناير سنة ١٤٠١، وحدثت هذه المقابلة قبل موتهما مباشرة، وتشير عدة مصادر من هذه الفترة، بالإضافة إلى السيرة الذاتية لابن خلدون، إلى أن المقابلة الأولى والمقابلات التالية لها اختتمت فى ٢٦ فبراير.

استقر المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) فى القاهرة، وعاش سنواته الخمس الأخيرة فى الشرق، وقام بأداء الحج فى سنة ١٣٨٧، وعاد للعاصمة المصرية فى العام التالى، وفى القاهرة قضى أكثر من عقد، عمل خلالها بالتدريس فقط حتى ٢٢ مايو سنة ١٣٩٩، حيث تم تعيينه قاضياً فى هذا التاريخ، ثم طرد من هذا المنصب فى سبتمبر سنة ١٤٠٠، وبعد شهرين استدعاه السلطان المملوكى الناصر فرج (١٣٩٩ - ١٤٠٥ و١٤٠٥ - ١٤١٢) لينضم لحملته المتوجهة إلى سوريا، ولقد قادته الظروف المختلفة ليصاحب نفس

❝ كان العصر الذى عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون - القرن الرابع عشر - واحدا من أكثر القرون فى حياة البشرية تحولاً وانتقالاً. تحول وانتقال نحو التفكك والاضمحلال فى العالم العربى.. وتحول وازدهار نحو النهوض والانبعاث فى العالم الغربى، أى تحول وانتقال بين ضفتى البحر المتوسط، المكان والمجال الذى تنقل من خلاله ابن خلدون ما بين تونس والمغرب والأندلس ومصر.

حول عصر ابن خلدون وبمناسبة مرور ستمائة عام على رحيله، وفى إطار احتفالية رعاها الملك خوان كارلوس، كتب مجموعة من البحاثة «الخلدونيين»، عدداً من المقالات والدراسات، وصفًا وتحليلاً لعصر الفيلسوف العربى/ العالمى. تنشر ترجمتها العربية قريبًا فى كتاب يصدر عن مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع عدد من الهيئات الثقافية من بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والتراث فى قطر ومؤسسة التراث الأندلسى فى إسبانيا.

وتبدأ «وجهات نظر» فى هذا العدد نشر بعض من تلك المقالات، مدركين حقيقة أن الاهتمام الفكرى العالمى بالرجل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لما احتوته مقدمته من مقولات ونظريات يصلح جانب كبير منها لأن يطبق على الواقع الإنسانى فى عموميته وشموله. ■

❝ المحـــرر ❞

السلطان صاحب المقام الرفيع فى رحلة ثمانية أشهر قبل ذلك إلى دمشق، والقدس، وبيت لحم، والخليل، وكان الهدف فى هذه المرة تحديداً مساعدة العاصمة السورية ضد هجمات تيمورلنك الذى احتل حلب، قبل ذلك.

وكانت قد اكتملت أغلب كتابات ابن خلدون فى هذه الفترة، وحقق ابن خلدون فهماً عميقًا فى الطبيعة الإنسانية، بالإضافة للسياسة فى عصره، وانعكست هذه الحقيقة فى الأوضاع التى افترضها والآراء التى عبر عنها فى المقابلة محل البحث.

أما عن القائد المغولى تيمورلنك (١٣٣٩ - ١٤٠٥) فهو ينتمى للشعب الشاغاتاى، وهو فرع من الشعوب التى عاشت فى السهول الصينية، وتمت تسميته على اسم أحد أبناء جنكيزخان (١١٦٧ - ١٢٢٧)، وأقام تيمورلنك - سلالة التيموريين - فى المشرق العربى السلالة التى قضت على حكم الأليخانيين، الأسرة التى أسسها هولاكو خان، الذى غزا بغداد



السلطان العثماني بايـزيد مقتادا كأسير أمام تيمور لنك بعد معركة أنقرة في سنة ١٤٠٢، المكتبة البريطانية - لندن

العباسية فى سنة ١٢٥٨، وكان تحول المغول الشاغاتاى للإسلام بعد العقد الثالث من القرن الرابع عشر، ولكنه سرعان ما توغل فى نزاع داخلى انتهى بسيادة تيمورلنك، وبسط سيطرته على مساحة واسعة ممتدة من الصين إلى سوريا، ومن أذربيجان للهند، وقد تناقضت الأسطورة الشائعة عنه كحاكم بلا رحمة مع إنشائه العديد من المساجد والمبانى الأخرى فى سمرقند وأصفهان.

وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٤٠٠، بدأ ابن خلدون الإقامة فى المدرسة العادلية عند وصوله إلى دمشق، وقد كانت المدينة تحت تهديد حصار قوات المغول، وفى بداية يناير بعد عدة معارك غير ناجحة مع تيمورلنك، وتصديق شائعات عن بروز مؤامرات فى غياب السلطان المملوكى، عاد الأخير إلى القاهرة، وانسحبت معظم القوات المملوكية، وزار برهان الدين والقاضى الحنبلى فى دمشق معسكر تيمورلنك فى ٧ يناير ليتفاوضوا على استسلام يحفظ ماء الوجه فى مواجهة هزيمة حتمية، وحدث كل ذلك فى ظل اندهاش أهل دمشق، وعاد برهان الدين فى اليوم التالى مصحوباً هذه المرة بنبلاء من دمشق لمعسكر التتار، وانضم ابن خلدون لهذه المجموعة فى ١٠ يناير.

وكانت قد جرت المحادثات بين الشخصين. ابن خلدون وتيمورلنك. على مدار أيام متتالية، وبدأت المحادثات يخرج من حساباتها موقف المدينة كمدينة تحت الحصار بعد ١٤ يناير، يحاول قادتها التفاوض على الاستسلام، وكان تاريخ الاستسلام الرسمى ٤ فبراير، على الرغم من أن قوات تيمورلنك لم تدخل قلعة دمشق حتى الخامس والعشرين، وشهد اليوم التالى المقابلات الأخيرة بين تيمورلنك وابن خلدون، وكان المؤرخ ابن خلدون قد غادر منطقة دمشق فى ٢٧ فبراير، مما مكنه من أن يشهد طرد قوات المغول من دمشق، وعلى الرغم من الثمن الباهظ - مليون دينار طبقاً لبعض المصادر - الذى سلمته السلطات المحلية لتأمين احتلال مسالم دون عنف، إلا أنه عندما وصل ابن خلدون إلى القاهرة فى ١٧ مارس كانت العاصمة السورية مشتعلة حتى سقف المسجد الأموى.

على الرغم من أن المقابلات بين ابن خلدون وتيمورلنك تكشف معلومات عن مميزاتهما، افترض القائد المغولى بوضوح أنه فى موقع المسيطر على الشخص البارز المشهور بنزعته كدبلوماسى ابن خلدون الذى تم تعيينه ليستخلص شروط استسلام إيجابية لدمشق، وأجريت المقابلة الأولى فى مبادرة سواء كانت من ابن خلدون أو شاه ملك القائد الشاغاتاى المسئول عن احتلال المدينة، وكان هدف تيمورلنك الاستمرار فى غزواته فى شمال أفريقيا ويبدو ذلك جلياً من النقاش الذى دار بينه وبين ابن خلدون، كما أكد الأخير ذلك فى سيرته الذاتية:

«فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلىّ فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبدالجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألنى من أين جئت من المغرب، ولم جئت؟، فقلت: جئت من بلادى لقضاء الفرض، ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارها لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لى: وما فعل معك؟، قلت كل خير، بر مقدمى، وأرغد قراى، وزودنى للحج، ولما رجعت وفر جرايتى، وأقمت فى ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضى المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بى المقام المحمود فى القيام بالوظيفة، وتحرى العدل والحق، والإعراض عن الجاه، فولانى مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكانى، فأدالونى

يتحدث تيمور لنك على عرشه، منمنمة من القرن الثامن عشر، المكتبة الوطنية - باريس



منها بغيرى جزاهم الله. فقال لى: وأين ولدك؟ فقلت بالمغرب الجوانى كاتب للملك الأعظم هنالك. فقال وما معنى الجوانى فى وصف المغرب؟ فقلت هى فى عرف خطابهم معناه الداخلى، أى الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشمالى من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وأفريقية، والمغرب الأوسط. تلمسان وبلاد زناتة. والأقصى. فاس ومراكش. وهو معنى الجوانى. فقال لى: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلت: فى الزاوية التى بين البحر والمحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامى، فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو عشرين ميلاً. فقال وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهى فى وسط التلول. وكرسى ملوك المغرب من بنى مرين. فقال: وسجلماسة؟ قلت: فى الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعنى هذا، وأحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها، قاصيها ودانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأنى أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك».



وتشير العديد من الكتابات لهذه الأحداث التى حدثت فى المفاوضات وتركها لنا ابن خلدون، نظراً لمعرفته بالمغول أو التتر. كما فضل أن يسميهم فى كتاباته. فعلى سبيل المثال ساعد ابن خلدون وخبراء آخرون تيمورلنك باستمرار ليدحض الاعتراف بسليل خليفة بغداد، ذلك الاعتراف الذى حصل عليه الأخير من المملوك بيبرس، وفى فقرة أخرى من سيرته الذاتية فى رسالة خاطب فيها سلطان المرينيين، كتب ملخصًا حول معرفته عن تيمورلنك والمغول، بينما كان يعرض وصفًا مختصراً لتجاربه فى إقامته المؤقتة فى دمشق أثناء الشهر الذى قضاه مع تيمورلنك قبل أن يسمح له بالعودة لمصر، ويشهد العديد من الكتاب على معرفة ابن خلدون الموسوعية الكبيرة للمغول، وكانت الإشارات للمغول والتتار متكررة أكثر فى سيرته الذاتية من المقدمة، حيث أعطى ابن خلدون للتتار أهمية أقل فى الأخيرة: فتكلم عنهم من حيث دورهم فى إسقاط القوة العباسية وقوة السلاجقة فى بغداد، كذلك عن أن هناك جيلاً واحداً فقط يفصل بين هجرتهم من السهول الصينية وظهورهم فى بلاد ما بين النهرين، أو إنشاؤهم لقاعدة راسخة للحكم وضعت نهاية للنزاعات بين الحنابلة والشيعة فى العراق، وهذه الإشارة الأخيرة هى موضوع واحدة من أكثر الإشارات تميزًا فى السيرة الذاتية:

«فوقع فى نفسى لأجل الوجل الذى كنت فيه أن أفاوضه فى شىء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به منى، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لى الترجمان عبدالجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف، فإنى من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول: إن الملك إنما يكون بالعصبية، وكثرتها يكون قدر الملك، واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد أن أكثر أمم البشر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا فى دينهم على نبيهم، وأما الترك ففى مزاحمتهم لملوك الفرس وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابهم من الملك. ولا يساويهم فى عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر، أما كسرى فكبير الفرس ومليكهم، وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك؟، وأما بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط، وأين هؤلاء من الترك، وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته فى هذا الملك».

بدا فى هذه المرحلة من حياة ابن خلدون عندما قابل تيمورلنك تحديداً رؤية هذا المؤرخ التونسى الأندلسى الأصل عن المغول وقائدهم كرموز لقوة وسلطة الدولة القادرة على دعم القوة السياسية للمجتمع، لقد لاحظ ابن خلدون على مدار حياته هشاشة الهياكل السياسية فى العالم العربى لهذه الفترة، من الأندلس وشمال أفريقيا إلى الشرق، حيث كانت هذه الهياكل هشة مقارنة بالفترات السابقة، وترجع هذه الهشاشة إلى انقسام القوى السياسية، وعبر عن ذلك ابن خلدون فى عدم القدرة على تجديد العصبية أو شعور الجماعة بضرورة خلق دولة فعالة، فقد تمت إقامة دولة الإسلام بعد العرب بواسطة جماعة اجتماعية غير عربية، ويمكن القول إن الأتراك العثمانيين أيضاً سيأخذون هذا الطريق بعد ذلك كما هو مفهوم من سياق التحليل التاريخى لابن خلدون. ■



العرب وعلوم أوروبا

عبدالرحمن بدوى

أبرز دور للعرب فى تكوين الفكر الأوروبى هو فى العلم بمختلف فروعه: الطب، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، والتاريخ الطبيعى، والفلاحة.

أما فى الرياضيات فقد كان للعرب الفضل الأكبر لأنهم هم الذين أدخلوا النظام العشرى فى العدد، إذ كان اليونانيون إنما يستعملون فى العدد حروف الأبجدية للعد من ١ إلى ٩٩٩، ثم يستعملون الشرطة والشولة والنقطة للعد فيما بعد ذلك حتى آلاف الآلاف، وكان الرومان يستعملون سبعة أحرف من الأبجدية هى I - V - X - L - C - D - M وتدل على التوالى على ١ ـ ٥ ـ ١٠ ـ ٥٠ ـ ١٠٠ ـ ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ ثم يضعون فوقها شرطة أفقية تدل على أن العدد مضروب فى ١٠٠٠. وجاء الهنود فاخترعوا نظام العد العشرى وفيه تتوقف قيمة العدد على موضعه، فالعدد ٥ على يمين الواحد غيره على شماله وهكذا.

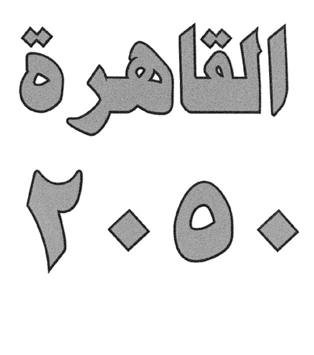
واستعملوا الصفر للدلالة على الخلو من الوحدة. وجاء العرب فاخترعوا طريقة لكتابة الأعداد هى طريقة «الغبار»، وهى التى انتشرت فى المغرب ومنه انتقلت إلى أوروبا ولا تزال تستعمل اليوم فيما نسميه نحن الأرقام الأفرنجية، وما يسميه الأوروبيون بالأرقام العربية، وهى فى الحقيقة عربية وليست أفرنجية، بينما ظل المشارقة من العرب يستعملون الطريقة الهندوستانية وهى التى لا نزال نكتب بها الأرقام فى المشرق العربى حتى اليوم.

وقد دخلت الرياضيات العربية أوروبا على يد «ليواردودى بيزا» Leonardo de Pisa فى القرن الثالث عشر.




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
...دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
...ادة صلى
www.maccarpet.com



دعـــــوة للحـــــوار

منذ إنشائها قبل أكثر من ألف عام، أصبحت القاهرة مركز الثقل التاريخى والسياسى والثقافى والاقتصادى والعمرانى لمصر. وعبر التاريخ أدى تركز السلطة وكافة الخدمات والمرافق الكبرى فيها إلى تضخمها بصورة كبيرة.

وتتمثل التحديات الحالية التى تواجهها القاهرة نتيجة الزيادة السكانية وغياب التخطيط فى كيفية التعامل مع التضخم الكبير الذى تم بصورة غير مخططة فى مساحة الإقليم وتخفيف الضغط الشديد على مرافقه وسرعة تحسين الوضع البيئى المتدهور وتحسين الحركة المرورية ومواجهة التأثيرات السلبية الواضحة على التنمية الاقتصادية.

كما أن هناك حقيقة تؤكد أن القاهرة كإقليم لا تمثل وحدة إدارية واحدة، لكنها مقسمة على ٣ محافظات و٩ وزارات و٤ هيئات اقتصادية، الأمر الذى له خصوصيته، كما أن له إشكالياته:

أيًا ما كان الأمر يبقى أن التخطيط لقاهرة المستقبل، ومع التسليم بأنه لا يصح بأن يكون حكرًا على جهة بعينها يطرح أمامنا (جميعًا) تحديات وأسئلة كثيرة.. ربما من أهمها:

١ ـ ما هو الحجم الذى ينبغى أن يتوقف عنده الإقليم؟

٢ ـ ما هى اتجاهات النمو التى ينبغى السماح بها؟

٣ ـ هل يتم التحكم فى نمو الكتلة العمرانية القائمة وعدم السماح بنموها أم يتم السماح بنموها حتى تلتحم بالمدن الجديدة؟

٤ ـ كيف تتم خلخلة الكتلة القائمة؟

٥ ـ هل من الأفضل التوسع فى المدن الجديدة وتنميتها؟

٦ ـ هل تتم إدارة الإقليم الكبير ككيان إدارى واحد؟

٧ ـ هل يتم إنشاء جهاز تنفيذى يضم مجلس إدارته المحافظين الثلاثة، أم يتم تقسيمه إلى عدد أكبر من المحافظات؟

٨ ـ ما هو الأسلوب الأمثل لتخصيص الأراضى داخل الإقليم ومراحل التنمية التى ينبغى الالتزام بها ونوعيات وبرامج الإسكان المراد توفيرها فى المناطق الجديدة، والإستراتيجية التى سيتم اتباعها للتعامل مع المناطق العشوائية القائمة؟

٩ ـ كيف يتم التعامل مع الواجهة النيلية ووضع الجزر النيلية؟ هل يتم الإبقاء عليها كما هى؟ أم يتم تحديد استعمالات أخرى لها (ترفيهية ـ مناطق مفتوحة ـ تنمية...)؟

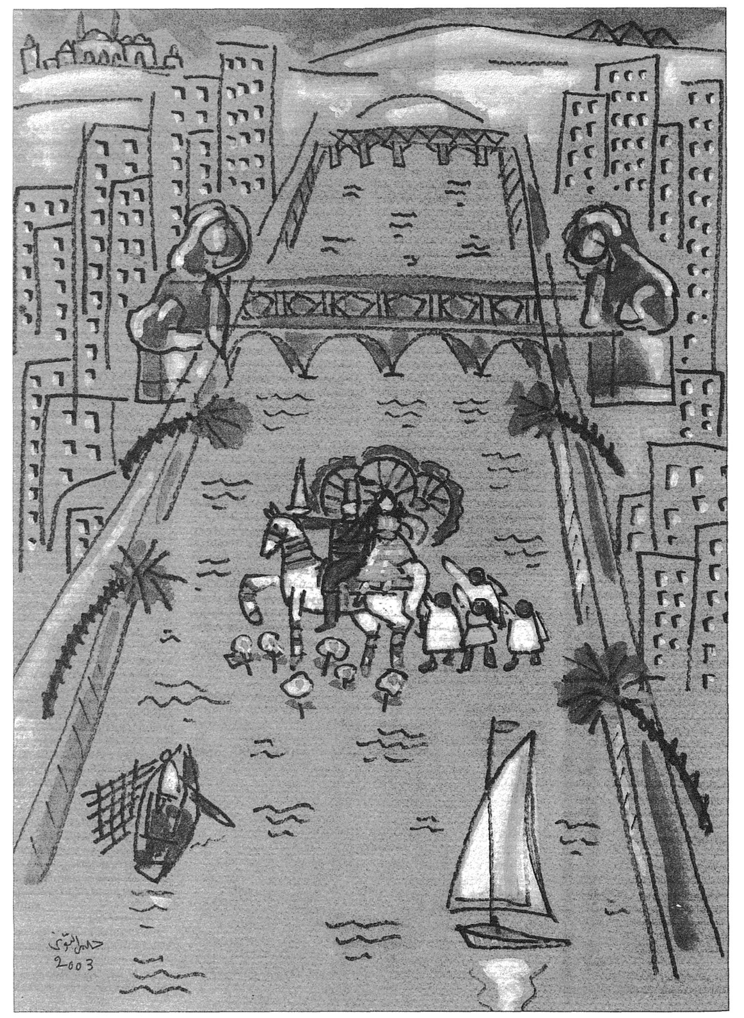
١٠ ـ كيف يتم التعامل مع المقابر الموجودة فى قلب الكتلة العمرانية؟

١١ ـ ما هى الوظيفة الاقتصادية التى ينبغى أن يكون عليها الإقليم لزيادة قدرته التنافسية على مستوى الشرق الأوسط والعالم؟

١٢ ـ وبعد كل ذلك كيف تضمن الحلول المقترحة للحفاظ على التراث الحضارى والتاريخى للقاهرة؟

وإذ نتفق جميعًا على أن الأرقام والمعلومات يمكن أن تشكل بداية جادة لحوار معمق وهادئ حول هذه القضية التى لا يمكن أن تستأثر حكومة بعينها بصلاحية وضع حلول نهائية لها، تدعو «وجهات نظر» المهتمين والمتخصصين فى هذا المجال إلى الكتابة إليها إثراءً للحوار.

المحـــرر


حلمي التوني
2003

كل الخيارات مفتوحة

أحمد المغربى

■■ سوف يقول البعض «لماذا ٢٠٥٠؟» أحد الآراء الطريفة التى سمعتها هو أن وزير الإسكان يحاول ضمان بقائه فى منصبه حتى عام ٢٠٥٠ . وحقيقة الأمر هى أننى أتطلع فقط إلى عام ٢٠٤٠، مما يؤكد عدم صحة هذا الرأى!

كانت القاهرة عاصمتنا طوال الألف سنة الماضية. وكل أنشطتنا - الاقتصادية والسياسية وسائر الأنشطة جميعاً - تتركز فى منطقة القاهرة الكبرى، وهو ما أدى إلى هذا النمو الضخم للقاهرة بمعدلات أعلى من معدلات زيادة عدد السكان لدينا. وفى عام ٢٠٠٤، أدركنا أن هناك مشكلة كبيرة فى تدهور بيئتنا العمرانية. وأحد أسباب ذلك قانون تجريم البناء على الأراضى الزراعية، وهو القانون الذى بدا عند تقديمه وكأنه شىء نشترك فيه جميعاً، وهو عدم السماح بمزيد من التنمية العمرانية على أرضنا الخضراء، أى أرضنا الزراعية. واليوم يمكننى أن أقول لكم إننا إذا قمنا بتحليل - ليس الأثر الأولى للقانون فحسب - بل كذلك الأثر اللاحق له، فسوف نجد أن القانون لم يكن جيداً بالقدر الذى بدا عليه فى أول الأمر. ويمكن أن نضيف ذلك إلى قانون آخر كان المجتمع سعيداً عندما جرى تقديمه لأول مرة، وهو القانون الذى حدد الإيجارات التى يمكن بها التعامل فى الشقق والبيوت فى السوق وثبّت تلك المعدلات. ومرة أخرى أصبح لدينا عجز فى الإسكان نتيجة لهذا القانون. فى أوائل الستينيات، سعدنا جداً لرؤية الإيجارات وهى تنخفض، ولكن إذا نظرنا إلى ما يحدث اليوم فأعتقد أننا جميعاً نتفق على أنه فى وقت ما فى مستقبل هذا البلد لا بد من محاكمة هذين القانونين ونسيان أن المجتمع وافق عليهما فى يوم من الأيام.

كما قلت من قبل، لا بد أولاً أن تكون لدينا رؤية ويجب أن نضع هذه الرؤية معاً. ولكن قبل أن ندخل فى الطريقة التى يتم بها وضع هذه الرؤية، سوف أتطرق إلى بعض الإستراتيجيات التى نتبعها الآن. لا أريد أن يكون لديكم إحساس بأننا ما دمنا نتحدث عن عام ٢٠٥٠ فمعنى هذا أننا سنوقف كل شىء وننتظر حتى عام ٢٠٥٠ قبل أن نبدأ فى معالجة الوضع. بل الواقع هو أننا نعمل الآن على مسارين. المسار الأول هو تحسين نوعية مناطقنا العمرانية فى الوقت الحالى. ونحن نضع لأول مرة خطط تطوير شاملة لمحافظات مصر ومناطقها المختلفة. ويجرى الشىء نفسه بالنسبة لكل مدن مصر. ولدينا حوالى ٢٢٢ مدينة. وكذلك بالنسبة للقرى، وهى المرة الأولى فى تاريخ البلاد التى يكون فيها أى نوع من المخططات العمرانية للقرى. إن لدينا ٤٦١٧ قرية ولأول مرة سوف يكون لدينا خطط لها. لم يسبق أن جرى تخطيط قطاعنا الريفى من قبل. ولا يمكن أن يصدق أحد على الإطلاق أنه فى عام ٢٠٠٠ لم يكن قد جرى أى تخطيط للمناطق الريفية. لقد خططه المواطنون تخطيطاً أهلياً ولم يكن هناك تخطيط علمى لهذا القطاع. هذا كله يتغير الآن. فنحن الآن فى منتصف الطريق تقريباً نحو الانتهاء من وضع خطة تنمية حضرية لكل قرانا. وقد تأخرنا فى ذلك حوالى ٥٠ أو ١٠٠ عام، غير أننا قد بدأنا على أقل تقدير.

المسار الثانى هو التعامل مع المناطق العشوائية القائمة بالفعل. حيث لدينا خطط لتحديث مجتمعاتنا الرسمية. ولا أريد أن أخلق تفاؤلاً هنا بأن أية حكومة، بما فى ذلك هذه الحكومة، سيكون باستطاعتها إحداث أى أثر كبير على إعادة تنمية تلك المناطق العمرانية المتدهورة.



الوزير أحمد المغربى

والتجارب التى لدينا اليوم فيما يتعلق بإعادة بناء تلك المناطق تعد إستراتيجية باهظة التكلفة لا يمكن لهذا البلد فى ظل أية ظروف أن يتحملها. وتجربتنا فى الوقت الراهن هى أن ذلك سوف يكلف حوالى ١٠٠ ألف جنيه مصرى لكل وحدة فى تلك المناطق المطورة. وعندما ترون بعض الصور التى تدل على أن معظم التطوير الذى جرى فى الخمسين سنة الماضية قد تم فى مناطق غير مخططة، سوف ترون أنه لا يمكن بحال من الأحوال المضى فى هذه الإستراتيجية. نحن نغير الإستراتيجية، ولدينا إستراتيجية تتوافق مع مواردنا الاقتصادية ولكنها سوف تستغرق زمناً طويلاً. وهدم المبنى أسهل بكثير من إقامة مبنى، وما نحاول عمله أن نبنى مبنى كبيراً.

كما أننا نقوم بإنشاء محاور جديدة مثل الطريق الجديد الذى يربط صعيد مصر بالبحر الأحمر. وهذه ليست مجرد طرق، بل إنها مناطق جديدة للتنمية وتجرى دراستها على هذا الأساس. ونأمل أن نتمكن من نقل السكان أو قدر كبير من الزيادة فى السكانية إلى تلك المناطق الجديدة. كما بدأنا برنامجاً لإقامة قرى جديدة بالقرب من القرى القديمة لوقف زحف المبانى على الأراضى الزراعية.

وبينما أتحدث إليكم، لدينا بالفعل ٢١ قرية كل منها قادرة على استيعاب ١٠ آلاف شخص على مر السنين، ونحن نستهدف بناء حوالى ٤٠٠ من تلك القرى لتستوعب حوالى ٤ ملايين شخص فى السنوات المقبلة حتى العام المستهدف وهو ٢٠٢٢. كما أننا نزيد المعدل الذى تنمو به المدن العمرانية الجديدة أو المجتمعات الجديدة كى نشجع الاستيطان هناك بمعدلات أسرع لتخفيف الضغط بشكل فعلى عن القاهرة.

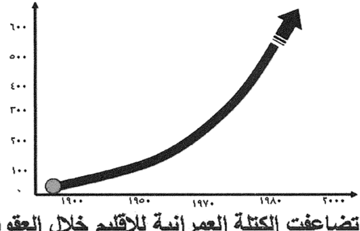
فيما يتعلق بتطور القاهرة على مدى التاريخ نجد أن مساحة القاهرة فى عام ١٩٠٠ اثنين وأربعين كيلومتراً مربعاً فقط وكانت تؤوى ١.٥ مليون نسمة.

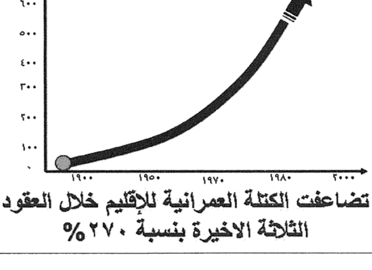
وبعد خمسين عاماً كانت ١٢٠ كيلومتراً مربعاً وتؤوى ٥ ملايين نسمة. وفى عام ٢٠٠٠ كنا نشغل مساحة مقدارها ٥٢٥ كيلومتراً مربعاً وكان لدينا ١٣.٥ مليون نسمة. وفى الوقت الحالى تؤوى القاهرة ٢٢٪ من إجمالى عدد السكان و٤٣٪ من عدد سكان المناطق العمرانية. ومن بين ٢٢٢ مدينة فى مصر، تؤوى مدينة واحدة ٣٣٪ من سكان المناطق الحضرية. وهذه أرقام مفزعة. ونحن نبحث أسباب ذلك. نجد أن ٥٥٪ من الأماكن بالجامعات موجودة فى القاهرة، و٤٦٪ من أسرة المستشفيات موجود فى القاهرة الكبرى، و٤٠٪ من الصيدليات موجود فى القاهرة الكبرى، و٤٣٪ من إجمالى الوظائف العامة والخاصة متوفر فى القاهرة الكبرى. وهذا رقم شديد الخطورة فى الوقت الراهن. وليس مستغرباً أن القاهرة الكبرى كانت ولا تزال منطقة جذب كبيرة بالنسبة لكل هؤلاء

محاضرة ألقاها وزير الإسكان المصرى باللغة الإنجليزية أمام غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة الشهر الماضى

ترجمة: أحمد محمود

تطور الكتلة العمرانية لإقليم القاهرة الكبرى





تضاعفت الكتلة العمرانية للإقليم خلال العقود الثلاثة الاخيرة بنسبة ٢٧٠%

المواطنين من كافة أنحاء البلاد. كل هذا التكدس يؤثر بالضرورة على البيئة العمرانية لعاصمة البلاد.



إذا تركنا الوضع على ما هو عليه، فمن المحتمل أن نعيش فى عام ٢٠٢٢ فى مدينة تضم ٢٨ مليون نسمة. أنتم تشكون اليوم، ولكن انتظروا حتى عام ٢٠٢٢ وسوف ترون كيف سيكون الحال. لا بد أن نفعل شيئًا، فهذا ليس خيارًا وليس شيئًا يمكن أن نصبر عليه، إذ لا بد أن نتحرك الآن لأننا سوف نواجه مشاكل شديدة الخطورة إن لم نفعل شيئًا. ومع ذلك فإن أهدافنا وخططنا متواضعة.

وأنا لا أقول إنه ينبغى علينا التحرك الآن لإبقاء عدد السكان عند معدل ١٦ مليونًا. بل إنى آمل فقط أن نتمكن من احتواء الزيادة فى عدد سكان القاهرة الكبرى ليصبح ٢٤ مليونًا بدلاً من ٢٨ مليونًا. وهذا رقم ضخم، ولكنه هدف جيد، وهدف يمكن التعامل معه ويمكن التخطيط لبلوغه.

فماذا عن النمو السرطانى للمناطق غير المخططة؟ هناك ضغط مبالغ فيه على البنية التحتية فى المناطق غير المخططة بما فى ذلك المرافق. وعندما يصل الناس إلى هناك نضطر إلى تزويدهم بخدمات مياه الشرب، والصرف الصحى، والطرق، وباقى الخدمات. وبالمناسبة، يدفع هذا المجتمع أربعة أضعاف تكلفة تلك الخدمات فى المناطق غير المخططة مقارنة بالمناطق المخططة. ولو كان تخطيطنا قد سبق البناء، لكانت تكلفة البنية التحتية التى يتحملها المجتمع لا تزيد على ٣٣٪ مما يتكلفه المجتمع الآن لتوفير البنية التحتية الضرورية فى تلك المناطق العشوائية.

والحكومة لا تدفع، بل أنتم من تدفعون. وأنتم الآن تدفعون ثلاثة أضعاف ما كان يمكن أن تكون عليه التكلفة لو أننا قمنا بالتخطيط قبل البناء. ولكن هذا لم يحدث للأسف. وبالنسبة للتدهور البيئى، فإننا جميعًا لدينا قصص مرعبة يمكن أن نحكيها. وبالنسبة للمرور وحده، أظن أننى سمعت ما يكفى من القصص المرعبة اليوم فقط بحيث إذا سمحنا لهذه القاعة بالحديث عن المرور فسوف نظل هنا حتى عام ٢٠٥٠ ولن نحرز أى تقدم بشأن هذه الخطة.

لقد صُدمنا جميعًا عند سماعنا عن الشركة الأمريكية الكبيرة التى قررت نقل مقرها الرئيسى من الولايات المتحدة إلى دبى. أنا شخصيًا صُدمت بعض الشىء. فقد كان يجب أن تكون مصر هى المكان الطبيعى لتلك التوسعات فى المنطقة. إننا بكل تأكيد نفقد موقعنا التنافسى. وهذه مسألة تتعلق بمستقبلنا المالى كمجتمع. فليس من الترف الحديث عن القاهرة الكبرى فى عام ٢٠٥٠ . ذلك أنه لم يعد بإمكاننا الانتظار حتى نرى الوضع التنافسى لمركز نشاطنا التنموى الرئيسى يتدهور إقليميًا ودوليًا. لا بد لنا من تصحيح هذا الوضع. إن لدينا أكبر الموارد البشرية فى هذه المنطقة، وربما مورد من أكبر الموارد البشرية على المستوى العالمى.

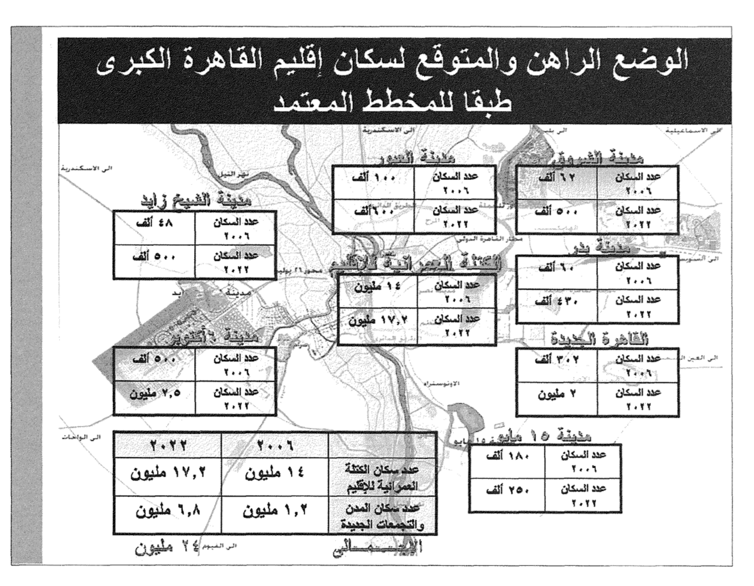
ولا بد لنا فى الواقع من الحصول على رأس المال لنستفيد من هذا المورد شديد الأهمية. ولا يقتصر الأمر على المال، بل يشمل كذلك مستويات المعيشة. وأظن أننا جميعًا لنا الحق فى الحياة فى مدينة نظيفة، ومدينة يتحرك فيها المرور بسرعة معقولة، ومدينة لا يوجد بها مستويات خطيرة من التلوث. هذا هو حق كل واحد منا. ومن واجبنا كذلك أن نفكر معًا فى طريقة لجعل الخطة تنجح.

عندما نتحدث عن عام ٢٠٥٠ هناك دائمًا احتمال، كما قلت من قبل، أن الحكومة قدمت هذه الخطة حتى إذا ما ذهبت لتتحدث معها عن المشكلة سوف تقول لك تعال وتحدث معى فى عام ٢٠٥٠ لأن لدى خطة طويلة الأمد. ولكن الأمر ليس كذلك. فأنا سوف أضع أمامكم عينة من بعض المشروعات التى يجرى تنفيذها فى القاهرة الكبرى الآن كى أعطيكم الثقة فى أن هذه ليست طريقة ذكية من الحكومة للهروب من مواجهة المشاكل الموجودة حاليًا والتى يجب علينا مواجهتها دون انتظار.

سمعتم جميعًا عن نقل الوزارات إلى خارج القاهرة. أخيرًا لدينا الموقع، وهو مقابل للقاهرة الجديدة. وهناك لجنة تعمل على تخطيط الموقع ومن المنتظر أن ينتهى بنا الحال بمدينة حكومية من الطراز الأول تتصل مباشرة بالقاهرة الجديدة. وسمعتم جميعًا مؤخرًا عن تطوير كامل لمنطقة شمال الجيزة. وتبين لكم الخرائط الفرق بين المناطق المخططة تخطيطًا سليمًا وتلك المخططة تخطيطًا أهليًا، فمنطقة المهندسين بالكامل كانت مخططة فى الخمسينيات بواسطة وزارة الأوقاف. وترون بعد خمسين عامًا أنها لا تزال تبدو منطقةً مناسبة إلى حد ما. والآن انظروا ماذا جرى للمنطقة المجاورة لها. منطقة شمال الجيزة أو منطقة إمبابة وما حولها.

وهذا أمر مخيف. ليس أمامنا طريق لدخول سيارات المطافئ إلى هؤلاء الناس، وليس أمامنا طريق لتوصيل خدمات الإنقاذ إليهم، وليس هناك طريق لإيصال وسائل المواصلات المناسبة. وليست هذه هى البيئة التى سوف يقبل مصريو القرن الحادى والعشرين أن يعيشوا فيها. ولا بد أن نعمل الآن لأن هذا ليس بالأمر الذى يظل هادئًا إلى الأبد.

لقد درسنا تجارب الدول الأخرى لتحديد إستراتيجيتنا لتنمية وتخطيط المناطق المتدهورة عمرانيًا، واكتشفنا أن الطريقة التى تناسب قدرتنا المالية هى دخول تلك المناطق الرئيسية وبعض تلك المناطق.



	٢٠٠٦	٢٠٢٢
عدد سكان الكتلة العمرانية للإقليم	١٤ مليون	١٧,٢ مليون
عدد سكان المدن والتجمعات الجديدة	١,٢ مليون	٦,٨ مليون

الوضع الراهن لإقليم القاهرة الكبرى عام ٢٠٠٦

عدد سكان الكتلة العمرانية للإقليم حاليا ١٤ مليون بالاضافة الى ١,٢ بالمدن الجديدة المحيطة

يضم الاقليم ٢٢% من اجمالى سكان مصر
يضم الاقليم ٤٣% من اجمالى سكان الحضر

يتمركز بالإقليم:

- ٥٥% من أماكن التعليم الجامعى
- ٤٦% من اجمالى أسرة المستشفيات
- ٤٠% من الصيدليات
- ٤٣% من فرص العمل بالقطاع العام
- ٤٠% من فرص العمل بالقطاع الخاص

الرئيسية من بين أكبر المناطق فى العالم. فمنطقة شمال الجيزة وحدها تؤوى حوالى ٨٠٠ ألف نسمة على مساحة ٣ آلاف فدان. وتقوم الإستراتيجية الجديدة على فتح طرق فى تلك المناطق وترك الأمر للمجتمعات المحلية نفسها كى تعيد تطوير تلك العقارات التى تزداد قيمتها مع إدخالنا الخدمات.

أما بالنسبة لميدان الجيزة: ففيه مشاكل كبيرة ولذلك بدأنا العمل فيه. وقد أنجزنا جزءاً من العمل ونقوم حالياً بتنفيذ الجزء الآخر من مداخل القاهرة من المدخل الغربى. ولدينا مشروع يجرى تنفيذه الآن لإغلاق الجزء المتبقى من الطريق الدائرى حول القاهرة بحيث يكون لدينا بالفعل طريق دائرى حول القاهرة. وقد بدأ المشروع وتتذكرون أن اليونيسكو رفض أن يمر الجزء الجنوبى من هذا الطريق الرئيسى بجوار الأهرام. وليس لدى أى اعتراض على قرارهم. فهذه منطقة محمية دولياً، وهكذا، نقلنا إكمال الطريق إلى فوق ترعة المريوطية. وقد بدأ البناء ونأمل أن يكون لدينا طريق دائرى خلال الأربعة والعشرين شهراً المقبلة.

هناك أيضاً محور السادس والعشرين من يوليو. فهذا الطريق لم يُشق ليتحمل المرور الموجود عليه الآن، ولم يكن مخططاً للتعامل مع السرعات التى تجرى هناك، وهو بالتأكيد لم يكن مخططاً لكى يتعامل مع سلوكيات القيادة التى تُمارَس على الطريق. فمن بين ١٠٠ ألف مركبة تمر هناك كل يوم، هناك ١٥ ألفاً أو أكثر من الميكروباصات. الناس منزعجة من عدد الحوادث. وبأمانة شديدة أنا مندهش من قلة عدد الحوادث. فأنتم تعرفون أن لدينا ظاهرة على الطرق نمارسها لم يسمع عنها أحد فى أنحاء العالم. فأنا لم أرَ فى أى مكان من العالم محطة أتوبيس على طريق سريع. نحن فى مصر أدخلنا محطات الأتوبيس على الطرق الرئيسية. وبذلك لا يقع اللوم على جودة الطريق وحدها.

بعد أن قلنا هذا كله، فإننا نعمل بكل طاقتنا كما وعدنا. قلنا إننا بدأنا فى تحديث هذا الطريق الشهير وإذا مررتم من هناك اليوم ستجدون أننا أوفينا بالوعد حرفياً وفى الموعد المحدد. والآن سوف تبدأون بالشكوى للحكومة لأننا نغلق الطريق، ولذلك فنحن نُهاجَم إذا أغلقنا الطريق، أو إذا لم نغلق الطريق، ولكننا مستعدون لذلك وهو لا يزعجنا.

نعود إلى الخطة المتكاملة لإقليم القاهرة الكبرى. كيف نتوصل إلى خطة عمرانية لهذا الإقليم؟ أهم شىء بالنسبة لهذه الخطة هو أن نبدأ، وأن تكون لدينا رؤية. ولا ينبغى أن تكون الرؤية خاصة بالحكومة أو أى قطاع من قطاعات المجتمع، بل يجب أن تكون خطة نابعة منا جميعاً. وهذا هو السبب فى أنه من المهم جداً أن نفكر جميعاً فيما نريده من القاهرة فى عام ٢٠٥٠. هل نريد فقط مدينة تكون عاصمة عالمية للثقافة؟ هل نريد مدينة تكون العاصمة المالية للمنطقة؟ هل نريد مدينة تكون مدينة صناعية كبيرة فى المنطقة؟ ما الذى نريده؟ سوف يتطلب كل اختيار من تلك الاختيارات خطة تنمية مختلفة. وما إن نشرع فى تنفيذ تلك الخطة حتى يكون قد فات الأوان بالنسبة لتغيير رأينا. ولذلك يجب أن نفكر الآن ونتخذ القرارات قبل أن نضع الخطة موضع التنفيذ الفعلى. فهذه مسائل شديدة الصعوبة وسوف أعرض عليكم بعضاً من النماذج الأكثر تفصيلاً.

ما إن تكون لدينا الرؤية حتى يصبح ما بعد ذلك سهلاً. وما بعد ذلك هو الأمور الفنية وسوف نستفيد من أفضل الخبرات المتاحة فى العالم للمساعدة فى تنفيذ الخطة. بحيث يكون لدينا خطة تتناسب مع مكانة عاصمة مصر. ونظن أنه يمكننا عمل ذلك كله خلال ٢٤ شهراً، ولكن الأكثر أهمية هو أن نتوصل سوياً إلى رؤية مشتركة. لا تتركوا هذه الرؤية لأى وزير أو وزارة أو حكومة. فهذه ينبغى أن تكون رؤية هذا المجتمع ولا تتخلوا عن هذا الحق لأى إنسان آخر. أريد من كل إنسان قادر على المشاركة فى تشكيل هذه الرؤية أن يتقدم برأيه بالفعل وأن يكون واضحاً بشأن ما يريد أن يراه. أعلنوه الآن، ذلك أنه ما إن تبدأوا السير فى الطريق حتى يصبح من الصعب جداً والمكلف جداً أن نغير الاتجاه. سوف نستفيد بشكل واضح من مساعدة الكثير من المنظمات الدولية وسوف نستفيد من أفضل ما هو متاح.



ولكن ما هى القضايا التى تؤثر على هذه الرؤية؟ هناك تلك المجموعة من القضايا المتصلة بالاتجاهات الاقتصادية. وأنا أطرح عليكم تلك الأسئلة كى تبدأوا فى رؤية نمط المسائل التى ينبغى أن يناقشها المجتمع الآن كى يصل إلى نتيجة ما. ماذا ينبغى أن يكون الحجم الأمثل؟ هل ينبغى أن نجعل حده الأقصى ١٦ مليوناً أم ٢٤ مليوناً أم ٣٠ مليوناً؟ هل ينبغى أن نتركه يزيد بالسرعة التى يريدها ويمضى إلى حيثما يرغب؟ هذه هى الأسئلة التى لا بد أن نجيب عليها.

إلى أين نسمح للتطوير أن يمضى وفى أى اتجاه؟ هل ينبغى تقييد تطوير المنطقة المبنية بالفعل أم توسعتها لتلتحم بالمدن الجديدة؟ نحن الآن نرى توسعاً فى اتجاه المدن الجديدة. هل ينبغى أن نترك ذلك يستمر وهل ينبغى أن نسمح للمدن الجديدة بأن تتصل مباشرةً بالقاهرة؟ كل هذه النوعيات من الأسئلة تقليدية ولا بد لنا من الإجابة عنها.



نحن محظوظون أن لدينا جزرا فى وسط القاهرة. إن أعظم أصول مدينة نيويورك هى جزيرة مانهاتن الصغيرة. فهل ينبغى أن تكون لدينا مانهاتن فى القاهرة؟ نعم، فالجزر محمية، ولكننا كمجتمع لنا حق تقرير ما إذا كان ينبغى أن تظل جزرنا مناطق محمية أم ينبغى أن تكون لدينا مانهاتن على واحدة من تلك الجزر. من حقنا أن نحلم بأنه يمكننا أن تكون لدينا مانهاتن على واحدة من تلك الجزر. فليس هناك ما يمنعنا من أن نحلم وأن نحقق تلك الأحلام فى الحقيقة. إن جزءاً كبيراً من القاهرة تشغله مقابر أجدادنا.

فهل ينبغى أن يستمر هذا الوضع؟ نحن كمجتمع علينا أن نقرر ما إذا كان من الأفضل أن تكون لدينا مقابر فى وسط القاهرة ونبقى عليها فى أماكنها، أم أنه سيكون من الأفضل نقلها لإقامة منتزه كبير بدلاً من هذه المقابر كلها. ونقل المقابر ليس موضوعاً عادياً، ولكن ليس هناك موضوع مغلق تماماً فى المجتمع. فالقانون يسمح لنا باتخاذ هذا القرار ولا بد للمجتمع من مواجهة تلك القضايا واتخاذ بعض هذه القرارات. وأنا لا أقترح أى اتجاه من الاتجاهات أو أية إجابة من الإجابات لتلك الأسئلة. إنى أطرحها عليكم فحسب كمثال. وقضايا الإسكان والأراضى متصلة بالموضوع.

هناك أناس كثيرون يعدون جزءاً من القاهرة الكبرى. وهناك ثلاث محافظات، والعديد من الوزارات، وأربع هيئات لها أراض فى القاهرة الكبرى على نحو مباشر وغير مباشر. فما هى أنسب استفادة من الأراضى التى لا تزال متاحة؟ وماذا عن برامج الإسكان؟ وبالمناسبة، تتصل برامج الإسكان بنوعية المدينة التى سنقوم فيها بالتنمية. فإذا كانت رؤيتنا تتعلق بمدينة صناعية، فنحن بحاجة إلى نمط معين من الإسكان. وإذا كان ما نهدف إليه مركزاً مالياً، فلا بد أن نتخيل للمدينة نمطاً مختلفاً من الإسكان. وتلك أسئلة لا بد لنا من أن نجيب عنها.

فيما يتعلق بالنقل والبنية التحتية، هل ينبغى أن يكون هناك مطار دولى غرب القاهرة؟ لقد سمعتم جميعاً ما يقال عن ذلك. فهل ينبغى أن يكون هناك مطار آخر، وهل ينبغى أن يكون هذا المطار فى مكان المطار العسكرى الموجود حالياً؟ أم أنه مع التطوير والتحسين الكبيرين اللذين يجريان فى شبكة طرقنا ينبغى نقل المطار إلى شمال القاهرة فى وسط الدلتا لتخفيف حركة المرور أكثر؟ أم أنه بما أن متحفنا سوف يُنقل قريباً من تلك المنطقة فإن نقل المطار إلى منطقة أبعد قليلاً سيكون كذلك أحد الخيارات التى ينبغى أن ندرسها؟

خياراتنا كلها مفتوحة وينبغى علينا القيام بتلك الخيارات الآن. ينبغى أن نطرح الأسئلة الآن ونأمل فى الوصول إلى نتيجة ما. كيف سنُدير القاهرة الكبرى؟ هل ينبغى استمرار وجود ثلاث محافظات تضم القاهرة الكبرى؟ هل ينبغى أن تكون هناك إدارة منفصلة للمدن الجديدة؟ هل ينبغى أن تكون هناك محافظة واحدة، أم ينبغى إنشاء المزيد من المحافظات؟ هناك أجزاء معينة من القاهرة مؤهلة لأن تكون بالفعل محافظة جديدة. لنأخذ حلوان على سبيل المثال: فإن حجم السكان وحجم الأرض يسمح بأن تكون محافظة جديدة. هل ينبغى إقامة محافظة جديدة هناك؟ كيف سنُدير المدينة على المدى البعيد؟

هناك أسئلة لا بد أن يجيب المجتمع عنها الآن لاستكمال صياغة هذه الرؤية. وهذه الرؤية ليست الخطة العمرانية، بل إنها الأساس الذى سوف نتمكن من أن نضع عليه خطة عمرانية تعكس رؤيتكم. فنحن لا نريد أن نضع خطة عمرانية تعكس رؤية الحكومة فحسب، لأن تلك الخطة هى التى سوف يأمل شعب مصر فى عام ٢٠٥٠ أن تكون لديه. شكراً لكم على حسن استماعكم ونتطلع بالفعل إلى مشاركتكم فى صياغة رؤيتنا كى يبقى وزير الإسكان فى منصبه حتى عام ٢٠٥٠. ■

عاصمة جديدة؟

خطرت على بال مصر فكرة بناء عاصمة جديدة وأظن أن مدينة السادات كانت آخر ما خطر على بال مصر فيما يتعلق ببناء مدينة جديدة تماماً. وهذا اقتراح مكلف جداً. ونحن لا يمكننا تحمل تكاليفه. وما يمكننا تحمله هو نقل جزء من الوزارات التى تحدث اختناقاً وسط القاهرة. وليس كافياً أن نحلم. بل يجب أن تكون أحلامنا قابلة للتحقيق، وبناء عاصمة جديدة تماماً ليس خياراً أمام المجتمع الآن. الخيار هو ما نقوم به من نقل عدد كبير من تلك الوزارات إلى خارج القاهرة ونقلها على مسافة قريبة كى يكون الاستثمار محدوداً جداً بالفعل. ونحن نأمل أن نتمكن من تحقيق ذلك النقل بدون التعدى على ميزانية الاستثمار الخاصة بمصر، وسوف نتمكن من خلال المشروعات العقارية الذكية من بناء تلك الوزارات بدون التأثير على ميزانية الاستثمار فى مصر.

أ. م

مدينة المدن المغلقة!

إيريك دينيس

■■ لن يعطل المرور أحمد أشرف المنصورى كثيراً هذا المساء. فسائقه لا نظير له فى تخليصه من اضطراب وسط المدينة من خلال الطرق الملتوية. فبعد أن يطلق السائق العنان لسيارته ويغمز للشرطى، يصعد المطلع ويدخل فى الطريق الدائرى العلوى الجديد، يتجه بسرعة غرباً نحو المدينة الجديدة ذات البوابات فى مستوطنة السادس من أكتوبر التى كانت ثورية فى يوم من الأيام. وبدون إلقاء ولو حتى نظرة خاطفة، يمر السيد المنصورى فوق ذلك العالم غير المعروف الذى تجمع الفلاحون فى كون معقد للغاية من الطوب الأحمر والنفايات والمساكن التى بنوها بأنفسهم ومشروعات الإسكان القديمة التى أقامتها الدولة. وعندما يخطر بباله أن يدير رأسه، فإن ذلك يكون لتأكيد أنه قام بالاختيار الصحيح فى الانتقال بعيداً عما يظنه عالماً متخلفاً مازال عبئاً على مصر، ذلك العالم الذى يحط من قدر صورة القاهرة ويلوثها. فهو يعرف أنه التحق مرة أخرى بمستقبل مصر. ويظن أن هذا الجمع قد يتحول فى أية لحظة إلى حشد مثير للشغب يدفعه من يعرف ما الذى يجعل خطبة الشيخ الرنانة تحرك الناس.

لم تكن حرارة الجو أو ضجيج الشوارع شديدة الزحام يخترق سيارته مكيفة الهواء. ويفكر أحمد أشرف المنصورى فى جولة جولف، تتبعها مناقشة فى المبنى الاجتماعى بالنادى مع صديقه ياسين الذى يعمل بوزارة المالية، ثم تمشية قصيرة إلى البيت. ها هو ضغط يومه العصبى يخف بالفعل.

منذ الثامنة صباحاً بدأت الخيالات تنتاب أحمد وهو ينظر من خلال نوافذ الطابق الحادى عشر فى مركز التجارة العالمى المشرف على وزارة الخارجية ويطل على الكورنيش المحاذى لنهر النيل. إنه يمر بضائقة فى معاملاته التجارية. فهو لم يُمنح ذلك الاحتكار المهم للآيس كريم، وضاعت منه فرصة شراء إحدى العمارات السكنية. وتظل كلمة السر الخاصة به هى «المخاطر». ربما كان الأمر بسبب ذلك الانخفاض فى قيمة العملة الذى لا يعرف أحد منه مخرجاً، أو من جراء اختفاء العملة الصعبة. ومن حسن الحظ أنه حصل على عقد توزيع محترم مع سلسلة فنادق دولية لشراء كرتونات الحليب التى يعبئها فى مصنعه الصغير. وسوف يكون عليه الذهاب إلى هناك غداً لتسريع الإنتاج قبل الذهاب إلى المكتب. يكاد لا يكون لديه الوقت الكافى للاتصال بابنه الذى يدرس بالسنة الثالثة بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن. ولكن داخل سيارته تلاشى القلق وهو يبتعد عن وسط مدينة القاهرة ماراً بالأهرام إلى داخل الصحراء. ويصل السيد المنصورى بعد ذلك إلى بيته، حيث يعبر بوابات مجتمعه السكنى الجديد دريم لاند.

هناك يمر على أبى محمود، حامل أدواته المعتاد عند لعب الجولف؛ فقد أنهى يوم عمله وينتظر الميكروباص الذى يأخذه إلى شقته الصغيرة ذات الأربعين متراً مربعاً التى يشاركه فيها حوالى عشرة آخرين من الجرسونات والعمال الذين يقيمون فى أقدم أحياء مدينة السادس من أكتوبر، بعيداً جهة الغرب على هضبة صحراوية. وقد بقيت زوجته وأولاده الذين لم يهاجروا إلى العاصمة فى قريتهم بالقرب من المنصورة بالدلتا.

لم تذهب زوجة أحمد المنصورى إلى القاهرة منذ أكثر من أسبوعين. إنها تأتى فقط لزيارة ابنة عمها فى «يوتوبيا»، ذلك المجتمع القريب ذو البوابات. إنها تأتى متأخرة لأخذ أطفالها بعد الغارة التى تشنها على مركز التسوق. وها هم قد عادوا من قضاء فترة بعد الظهر فى مدينة الملاهى بصحبة ماريا الخادمة الحبشية. يلعب الأطفال الآن فى حمام السباحة فى حراسة محمود فرد الأمن. وتعرف ماريا، الخادمة الحبشية، أنها سوف تعود إلى غرفتها. وهى غرفة صغيرة بلا نوافذ خلف المطبخ. ولكن فى وقت لاحق من ذلك المساء. وها هم الضيوف؛ سوف يكون عليها المساعدة فى الطهى بعد وضع الأطفال فى أسرّتهم.

بهذا السرد الروائى نصل إلى الهضاب الصحراوية المحيطة بالمدينة وضواحى القاهرة. فناحية الشرق وناحية الغرب، ومنذ اثنتى عشرة سنة أو يزيد، أدى الترويج لإنشاء المبانى السكنية الخاصة إلى تملك مساحات شاسعة من الفضاء العام، بحيث باتت فى أيدى مقاولى التنمية العقارية. والواقع أن أكثر من مائة كيلومتر مربع تحت الإنشاء، أى أن مسطحاً مساوياً لما يزيد على ثلث المدينة والضواحى الحالية التى جرى تشكيلها وإعادة تشكيلها على امتداد ألف سنة. نشأت عشرات المجتمعات الفاخرة ذات البوابات التى تصاحبها ملاعب الجولف ومدن الملاهى والعيادات والجامعات الخاصة على الطريق الدائرى مثل أخواتها مراكز التسوق (المولات). على خلفية المنطقة الحضرية «العضوية» المدمجة بشدة، وضع ذلك النموذج للمدينة «الآسيوية» غير النمطية الكثيفة التى حللها الجغرافيون الشرقيون، جنباً إلى جنب أفق مدينة جديدة أشبه بلوس أنجلوس، تُقاس من الآن فصاعداً طبقاً لسرعة السيارة. ويتميز هذا البعد الجديد للقاهرة بهروب النخب الحضرية الأمر الذى جعل تخفيف اكتظاظ المركز الحضرى أكثر وضوحاً. ويتناغم إعادة التشكيل الجذرى هذا لمنظر العاصمة، الذى يدعونا من يروجون له إلى النظر إليه على أنه نهضة عمرانية، تناغماً تاماً مع مؤشرات التحرر الاقتصادى والتكيف الهيكلى الذى يحركه صندوق النقد الدولى.

ولكى تُباع المجتمعات ذات البوابات، فإنها تحيى الخرافة الشائعة الخاصة بالمدينة الكبيرة التى يمكن أن ينسى المرء فيها نفسه فى الهناء المنزلى المخصخص وتحقق تلك الخرافة. ويستغل المروجون أكثر وأكثر وصمة «الشارع» التى تنشرها وسائل الإعلام على مستوى عالمى، وأخيراً العاصمة العربية باعتبارها مصنعاً للمخاطر الإرهابية التى هى بالضرورة «إسلامية». وبالإضافة إلى كون الخطر الإسلاموى مرفوضاً، فالسلطات المصرية تستغله لنقض التحرر السياسى، بينما تشجع شكلاً بعينه من أشكال إعادة الهيكلة الاقتصادية. فالنظام الحالى يعيد توجيه إلحاح القانون ومصالح النخب المصرية المباشرة وينقلها من خلال تأكيد أنساق السوق والأنساق الأمنية، التى تعد المجتمعات ذات البوابات ملمحاً من ملامحها.

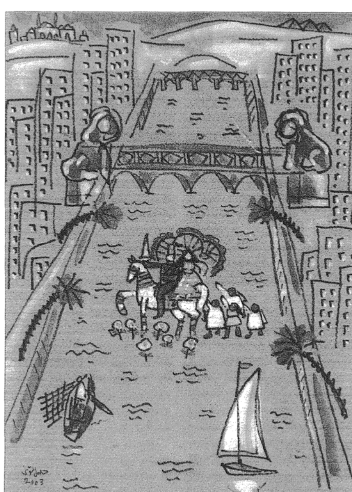
فى إطار هذا المنظور لابد أن تبدو المجتمعات ذات الأبواب نافذة مميزة على واقع التحرر فى مصر. ويسمح تحليل هذه المستوطنات بفهم الطريقة التى تفرض بها آليات التحكم فى المخاطر الاستبعاد الاجتماعى (الجانب العكسى للعولمة النخبوية) وكيفية تحديدها للمخاطر نفسها. فالبيئة الحضرية

من كتاب:

Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York

ترجمة: أحمد محمود

تجد العاصمة المصرية المعولمة نفسها الآن عند نقطة عدم استقرار، حيث تتأرجح بين المجتمع الذى تؤدى فيه النزعة القدرية واللعن دوراً مهماً فى إدارة الأزمات والكوارث، و«مجتمع المخاطرة» الذى يتميز بعدم اليقين



وأولويات الأمن تُعكَس لمصلحة مستعمرات الضواحى الصحراوية: فهى مواقع دفاعية حصينة فى مواجهة العاصمة الضائعة. وفى وسط هذا الانعكاس تتولى الشركات العقارية العالمية/المحلية والهيئات التابعة للدولة نقل السلطة إلى رجال الأعمال المرتبطين ببناء هجين جديد من أسلوب الحياة الأمريكى المتوسطى المعولَم.

فى وسط أسلوب الحياة الجديد هذا توجد النخب المصرية، وهى نفسها تربط أرخبيل مجتمعات المدن الصغرى التى يديرونها وكأنها إنجازات تجريبية كثيرة للديمقراطية الخاصة المقبلة. وتسمح المجتمعات ذات البوابات، شأنها شأن المخطط الفسيح، للنخب التى تعيش فيها بمواصلة المسيرة القسرية نحو التحرر الاقتصادى الاحتكارى، دون إعادة توزيع للثروة، بينما تحمى نفسها من كل آثاره الضارة ومخاطره. وبالطريقة نفسها، تنضم تلك النخب من جديد إلى النادى المتعدى للعواصم الخاص بالأرخبيل العالمى من الملاذات المسورة (كالديرا ٢٠٠٠). وحينئذ ينشأ القلق المحتمل المتسم بالشعور بالذنب ويرتبط بمعاناة سكان المدينة العاديين مختفياً تحت الرفض العالمى للمدينة، طبقاً لخطاب مضاد للنزعة الحضرية يدمج التلوث ويُطَبِّعه، حيث يربطه بالفقر والجريمة والاحتجاجات العنيفة ضد النظام. وفى هذا المنظور النخبوى، أصبحت القاهرة مجمعاً لمصادر الإزعاج لم يعد هناك ما يمكن عمله حياله سوى الهروب أو حماية المرء لنفسه بنفسه. كما أنه يعاد ترتيب المخاطرة الحضرية، ويعاد للسبب نفسه ترتيب البيئة الحضرية، بشكل جذرى.



سوف أتعقب فى بقية المقال التطور المادى للمجتمعات ذات البوابات، والترويج لها، وتملكها. وبعد ذلك سوف أعرِّف خطابات المخاطرة التى تخلق أساساً لإدارة المسافات الاجتماعية المتجددة وتمكين شرعنتها. غير أنه من المناسب أولاً أن أحدد ما نعنيه بالخوف والمخاطرة والخرافة والبيئة الحضرية.

يتعدى مجرد المصادفة فى أنه ظهرت فى مصر على وجه الدقة كلمة «عشوائيات»، المشتقة من الكلمة العربية «عشوائى»، وهو ما يدل على المصادفة، فى بداية التسعينيات من القرن العشرين لوصف الأحياء الفقيرة المزدحمة بالمساكن المتواضعة، ومدن الصفيح، ومدن الفقراء التابعة التى قامت بالجهد الذاتى، أى تلك الأحياء غير القانونية وغير المشروعة. وبحلول نهاية التسعينيات باتت هذه التسمية لا تصف الفضاءات فحسب، بل وسكان تلك الفضاءات كذلك، حيث يشمل ذلك ما يقارب أغلبية المدينة باعتبارهم أشخاصاً تحفهم المخاطر، و«خطرين»، وضالين. وصورة الشخص الضال هى أكثر ما يخيف هذا المجتمع الحضرى. فقد كان الفلاح، الذى يُنظر إليه على أنه الصورة مبهمة الملامح لذلك المهاجر القادم من الريف الذى كان بلا شك عاملاً زراعياً، ولا يزال يخيف المجتمع الحضرى.

ويحيى هذا التحديد كذلك التعارض الإسلامى التقليدى بين الفلاح والحضرى، وبين المجتمعات المستقرة والمجتمعات البادية.

تجد العاصمة المصرية المعولمة نفسها الآن عند نقطة عدم استقرار، حيث تتأرجح بين المجتمع الذى تؤدى فيه النزعة القدرية واللعن دوراً مهماً فى إدارة الأزمات والكوارث، و«مجتمع المخاطرة» الذى يتميز بعدم اليقين، ويصبح من المستحيل فيه أن يُعْزَى الشك إلى أسباب خارجية أو لا يمكن التحكم فيها. والواقع أن مستوى المخاطرة يتوقف على القرارات والاختيارات السياسية. فهى تُنتَج على نحو صناعى وعلى نحو اقتصادى، ولذلك تصبح انعكاسية من الناحية السياسية. غير أن مصر من منظور أورليك بك التحليلى تذكرنا بأن حلول التحديث لا يمكن الدفاع عنها، لأن التشدد الدينى والممارسات المستبدة تتزايد، ولكنها تُعزى باستمرار إلى التآمر الأجنبى، مع إنكار ظهور جمهور وطنى انعكاسى، ويصور المناقشات الداخلية (١٩٩٢). وفى هذا السياق تظل المخاطرة هدفاً متناقضاً ينتج معايير استبعادية. بينما يُستحوذ من جديد على خرافات الأسلاف ومعتقداتهم وتُعاد صناعتها من أجل السيطرة على الأشكال الحالية من الاحتكار السياسى واستقراره.

المجتمعات ذات البوابات أحد أكثر منتجات هذه البيئة الجديدة من المخاطرة واحتكار السياسة لفتاً للانتباه وكشفاً عن بواطن الأمور. فهى تكشف عمليات الإخلال بنظام أنماط المعيشة والمعاشرة فى المدينة، أى ديناميكيات إضفاء الطابع المكانى على «النظام الأخلاقى» الليبرالى الجديد وتبريره من خلال خطاب المخاطرة (بارك ١٩٢٦).

وقد أشعل تقديم الدولة لأسلوب حياة استبعادى جديد فتيل الانفجار. فمنذ عام ١٩٩٤، عندما بدأت وزارة الإسكان بيع قطع أراضٍ على نطاق واسع فى الصحراء المتاخمة للقاهرة، تجاوز عدد وحدات مشروعات الإسكان الفاخر قدرة السوق الاستيعابية بسرعة كبيرة. وتضم منطقة القاهرة الكبرى عدداً محدوداً من أسر الطبقة المتوسطة: ففى الوقت الراهن لا يتجاوز عدد الأسر التى تتجاوز نفقاتها ألفى جنيه (٣٣٠ دولاراً بأسعار ٢٠٠٥) شهرياً ٣١٥ ألف أسرة. وتبلغ نسبة هؤلاء ٩.٥ بالمائة من السكان الأكثر ثراء. ومع ذلك فإنه فى هذه السوق المحدودة، تملكت ٣٢٠ شركة الأراضى وأعلنت عن مشروعات يبلغ إجمالى عدد سكانها المحتملين ستمائة ألف ساكن. وفى السنوات التالية للانتعاش الاقتصادى أقيم أكثر من ثمانين مشروع مدينة ذات بوابات، حيث بيعت قطاعات كثيرة قبل إنشائها، واستقرت أوائل الأسر. وفى عام ٢٠٠٣ وحده طرحت تلك الشركات حوالى ستين ألف وحدة سكنية من الفيلات والشقق فى السوق. فمن أين ستأتى هذه الأسر الغنية كلها؟

يوتوبيا، مرتفعات القطامية، بيفرلى هيلز، بالم هيلز، بل فيل، مينا جاردن سيتى، دريم لاند: هذه بعض المجتمعات ذات البوابات

مدينة المدن المغلقة!



التى يجرى إنشاؤها. ويجرى تسويق هذه المشروعات العقارية باعتبارها الموقع الأفضل لأسلوب الحياة ما بعد العاصمية، حيث اختُرعت لتكون فى منطقة وسطى بين مدن «فورترس أميركا» الأخطبوطية ومدن أبارتهيد المخاطرة الجديدة فى جوهانسبرج (بلاكلى وسنايدر ١٩٩٧). ومع ذلك فإنه إذا كانت مجموعات الفيلات تستجيب استجابةً تامة للمفهوم الكونى الخاص بالمدينة المحمية، التى يحيط بها سور وتضمن الاستقلال الكامل، فليس هذا مجرد استجلاب لنمط عالمى. إذ يتضح كذلك تأثير ذوق مَلَكيات نفط دول الخليج الخاص بالمعيشة الفخمة. فأذواق الخليج ممثلة فى زخارف الباروك الفخمة من تذهيب وشرفات بارزة وأعمدة كلاسيكية جديدة. والأنماط المعمارية وأشكال التملك بواسطة المقيمين «مهجنة»، حيث تجمع بين التأثيرات المحلية والعربية، كما تتفق مع قيم من المدن العالمية (السعيد ٢٠٠١). وفكرة البحر المتوسط كذلك إطار دلالى أساسى بالنسبة لمصر باعتبارها بلداً يقع على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط، مما يثير فى الذهن موتيفات القرى اليونانية التى تضفى عليها صفة الكمال، والأسقف المنحدرة، وحدائق الصنوبر التوسكانية، أو ألوان منتجعات الريفييرا المتلألئة. لقد أبرز النموذج المتوسطى بالفعل خلال تجربة إنشاء الريفييرا المصرية على الساحل الواقع غرب الإسكندرية. وهذا النموذج الساحلى تبناه منذ ذلك الحين المشترون القاهريون المحتملون باعتباره امتداداً لمجتمع فى إجازة دائمة تحت الشمس. وهذه الصورة المتوسطية الإيجابية وأساليب الخليج العربى، التى تتسم بالبذخ، واضحة على أقل تقدير وضوح التأثيرات الأمريكية الغربية، حيث تعيد مصر التفاوض على هويتها الدولية، وتعيد صياغة هويتها الشرق أوسطية العربية الأساسية من خلال إضفاء الطابع التجارى سياحياً وسكنياً.

الاستبعاد كنهضة عمرانية

قبل أن نطمح فى اليوم الذى يصبح فيه المقطم (الهضبة القريبة من القاهرة) متنزهاً تتناثر فيه الفيلات ويربطه الترام بالقاهرة، كما طالب توسان كانيرى فى عام ١٩٠٥، هل يمكن أن نتمنى، على أقل تقدير، موقفاً أقل أنانيةً بين الطبقات الحاكمة؟ فإن ذلك من مصلحتها، إن لم تكن لديها الرغبة فى إعداد مجال اختيار أمام تجارب الغد الاجتماعية. كليرجيه ١٩٣٤؛ كانيرى ١٩٠٥

أدرك كليرجيه، وهو أول عالم جغرافيا حضرية فرنسى انتقد بعض المشروعات العقارية شرقية الطابع والسياسة الخديوية فى عصره، تلك التوترات والمخاطر الناشئة عن عمليات الإعمار الفاخر الحرة. فقد كان يخشى من أن يؤدى البناء خارج هوامش القاهرة إلى تمزق نسيج الفضاء الحضرى وإن كان هو نفسه بنى بعض المشروعات فى المناطق الجديدة. واليوم تشيع نظرة تتسم بالحنين إلى «العصر الليبرالى» فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الذى اختفى. وتدعونا هذه النظرة إلى رؤية الصلة بين عصر التحرر فى مصر الحديثة، وكذلك نتائج التطور الحضرى الخاصة بهما. وكانت أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين فترة إفراط عقارى ميزت تركيبة العاصمة حتى يومنا هذا (أرنو ١٩٩٨).



ويحب مروجو المجتمعات ذات البوابات العودة إلى الماضى فيما يتصل باستثمار مشروعاتهم بواسطة الصورة الإيجابية للعصر الليبرالى فى الزمن الجميل، أى عصر الخديو إسماعيل، وعصر الاحتلال البريطانى، وعصر الدَين الثقيل، والاستثمار الأجنبى والسيطرة الأجنبية، وكذلك المضاربة التى لا حد لها، والتشييد الفاخر العام والخاص. وتلك الحقبة الاستعمارية (المعروفة كذلك بالخديوية) يطلق عليها البعض «العصر الليبرالى المصرى» لأنها اتسمت كذلك بظهور بعض المؤسسات السياسية والثقافية الليبرالية ذات التوجه النخبوى التى يقيدها الاستعمار، ويتذكرها الناس لأنها شهدت مولد النزعة القومية الديمقراطية ذات الاتجاه الغربى فى عهد سعد زغلول.

اليوم لا يتردد الكثير من أصحاب شركات التنمية العقارية المصريين، مثل الراحل طلعت مصطفى، فى تقديم أنفسهم باعتبارهم ورثة البارون إمبان (كمال ١٩٩٨)، وهو وافد ومستثمر عاش فى مصر أسس فى عام ١٩٠٥ واحة هليوبوليس العمرانية الفاخرة، وكانت وقتها فى وسط الصحراء الواقعة شرق القاهرة، وربطها بوسط المدينة بخط ترام كان يمتلكه وحقق من ورائه الأرباح (البرت ١٩٨١؛ جاريه ٢٠٠١). ولقرب طلعت مصطفى من أسرة الرئيس أنور السادات، فقد كوّن ثروته ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين. وقد أقام مدينة كاملة هى الرحاب شرق القاهرة.

وبالمثل، فقد كان يُروَّج لمشروع «بل فيل»، وهو مجتمع كبير يتباهى بأنه يطل على أهرام الجيزة الواقعة غرب القاهرة. فى الصحافة اليومية والمجلات بصور فوتوغرافية تعقد مقارنات بين المكانة المعمارية التى لا يمكن استعادتها لوسط المدينة الإسماعيلى، الذى جرى تقسيمه منذ عام ١٨٧٠، وظهور المستقبل بناءً على صورة هذه الصفحة الجديدة من النزعة الحضرية الخاصة. وعُرضت «مينا جاردن» على التليفزيون فى أحد الإعلانات الذى جعل فيلات جاردن سيتى القديمة، وهى منطقة سكنية بوهيمية وأجنبية ظهرت فى أوائل القرن العشرين، تطير بعيداً تحملها الغرانيق القوية. وقد بُنيت جاردن سيتى القديمة فى بداية القرن العشرين على ضفاف نهر النيل على أطراف وسط المدينة الإسماعيلية، واعدةً سكانها بهدوء يشبه هدوء الواحة. والآن تزدهر جاردن سيتى المستقبل، بالمعنى الحرفى للكلمة، فى الصحراء النائية، بينما تغزو جاردن سيتى الإسماعيلية الأبراج شاهقة الارتفاع ونقاط التفتيش العسكرية التى تحمى بضعة سكان أجانب وسفارات لا يزالون مقيمين هناك. وفى أماكن أخرى، تتخذ الفيلات أسماء حكام مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فاروق وإسماعيل، الخ. بل إن حفيد البارون إمبان الأصلى نفسه أسهم فى الترويج لمشروع هليوبوبيس الجديدة.

إذا كانت إعادة كتابة الماضى هذه ممكنة من الآن فصاعدا، بل ويُستعان بها، فحينئذ يكون من الضرورى أن تسمح، شأنها فى ذلك شأن رد الاعتبار لأفراد الأسرة الملكية، بإضفاء المشروعية على المستثمرين الذى يقسِّمون الأراضى العامة فى الصحراء ويستولون عليها. وحينئذ تصبح تلك المشروعات ضرورية لخلق إرث قومى نخبوى جديد من ذلك النوع الذى ظهر فى بداية القرن العشرين. إنهم يسهمون فى خلق مظهر يوحى بالقدم، وهو ذلك المظهر المرتبط بالحنين للماضى القائم على الاستيلاء على إطار قديم، حيث يعطى المجتمعات ذات الأبواب سمة الإرث والتاريخية. ويعزز هذا المظهر الإحساس بالأصالة والحنين إلى الماضى (ماكاركين ١٩٨٨؛ أپادوراى ٢٠٠١). ولا تبدو الحياة المعاصرة وقد أُضفى عليها طابع تاريخى فحسب، بل كذلك كشىء ضاع بالفعل. وكما هو حال الموضة، التى هى ناتج تشابك العوالم وحكاية التداول المتسارع على النطاق العالمى، فإن المظهر الموحى بالقدَم يولد سرعة الزوال. فهذا المحو للحاضر من أجل غايات الترويج والاستهلاك التجارية شبيه بتخيل الخطر، من حيث إن كليهما يخلق عدم الاستقرار. كما يدعو كلاهما إلى حماية الذات، مما يؤدى إلى المطالبة بالحماية فى مواجهة عدم الأمان المتزايد، وإلى زعزعة الروتين والعلاقات.

عندما افتتح الرئيس حسنى مبارك، فى بث حى مباشر على التليفزيون فى مايو ١٩٩٧، ملعب الجولف وقال إنه رأى فيه رئة خضراء لأهل القاهرة، أعطى بذلك المشروعية لمشروع لا يمكن بأى حال من الأحوال اعتباره مشروعاً قومياً. وقد أقر استيلاء النخبة على الصحراء المملوكة لعامة الشعب، وإغلاقها لها وخصخصتها (والاستيلاء على الماء اللازم لريها) بينما أُسبغت عليها روح المشروعات العامة المفتوحة العظيمة التى تحققت من أجل المصلحة القومية (المشروع الجماعى).

وفى عملية مشابهة، تفرض الدولة رقابة مشددة على كل أشكال تمثيل الأحزاب السياسية للمواطنين.

وتزدهر المؤسسات التجارية واتحادات رجال الأعمال كتلك التى تعيد تجميع رجال أعمال من المناطق الصناعية بالمدن الجديدة. والتزاماً بـ«ميثاق الشرف» الوطنى الجديد الخاص بالليبرالية الجديدة والتكيف الهيكلى الذى يحظر التدخل المباشر من الدولة فى مجال التشييد، أُعيد تعريف التحالف بين المستثمرين وهؤلاء الموجودين فى خدمة الدولة: هؤلاء المقاولون العامون الذين

يوتوبيا، مرتفعات القطامية، بيفرلى هيلز، پالم هيلز، بِل فيل، مينا جاردن سيتى، دريم لاند: هذه بعض المجتمعات ذات البوابات التى يجرى إنشاؤها. ويجرى تسويق هذه المشروعات العقارية باعتبارها الموقع الأفضل لأسلوب الحياة ما بعد العاصمية.



كانوا يتولون من قبل تشييد الإسكان الشعبى، ككتلة واحدة، يعملون الآن كمقاولين شبه خاصين، حيث يبنون المنازل الفخمة بينما يستفيدون من القروض المقدمة من البنوك العامة، وهو ما يُقاس على أساس القيمة المتوقعة والمُبالَغ فيها للأراضى المشتراة بسعر رخيص جداً، حيث تخفض الدولة السعر لشركات التنمية العقارية.

وفى الوقت نفسه، يصبح البر والإحسان من جديد قيمة بورجوازية حضرية وطريقة لعرض الذات لابد منها لصورة المواطن الصالح والمسلم الصالح. وبشكل خاص، نجد أن مطاعم الفقراء الشعبية التى لم يكن لها وجود منذ عام ١٩٥٢، قد جرى إحياؤها، بينما خُفِّضت قائمة المنتجات المدعمة إلى أربعة أصناف (الزيت والسكر والدقيق والخبز)، ويتناقص مخزونها باستمرار (كُريِّم ٢٠٠١). وتعد موائد البر (موائد الرحمن) التى تتسم بالتظاهر والتباهى فى شهر رمضان، التى بدأت فى أواخر الثمانينيات، نتاجاً لإحياء التراث الإسلامى، وتزداد وضوحاً أكثر فأكثر. وهى تشكل الآن صورة رمزية للاتصال بين البورجوازية وأهل الحضر. كما أنها تجسد الاستعراض المشروع للثروة الذى يجرى من خلال الاهتمام بإقامة أكبر مائدة، وهى تلك التى توفر الطعام لمعظم الأماكن. كما أن هذه الموائد مَسْرَحَةٌ لهبة الفتات. فالممارسة الرسمية والدينية هنا، مثلها مثل إعادة كتابة التاريخ الوطنى للعصر الملكى الاستعمارى، تعطى الشرعية لكون التغير الليبرالى الجديد مناسباً لمقتضى الحال وتعكس «أفضل أوقات» الإصلاح الاجتماعى ومنظماته الخيرية. ويمكن كذلك قراءة مشهد الظلم الاجتماعى والصدقات هذا من ناحية المخاطرة، أى مخاطرة الارتقاء المشددة. فالعمل الخيرى مفروض باعتباره العلاقة الوحيدة مع الفقراء ووسيلتهم الوحيدة للنهوض الاجتماعى، بينما الشرطة هى المتراس الأخير. وليست هناك وسائل أخرى مسموح بها لإعادة توزيع ثمار التحرر.

يمحو هذا العمل المتسم بالتبعية للعالم الحضرى الجديد، المرتبط بالعصر الليبرالى ما قبل ١٩٥٢، فترة البناء الوطنى للتخطيط العام «الاشتراكى»، الحداثى، التكاملى. فمنذ ذلك الحين بات عصر الخمسينيات الثورى، القومى العربى، الذى شهد تضامن العالم الثالث، حين حصلت مصر على استقلالها، حتى السبعينيات يمثل فترة مظلمة تتميز بافتقارها الواضح إلى الأناقة، وركود عمارتها وبنيتها التحتية، وليس بمنجزاتها الاشتراكية. وتشير التشابهات مع المضاربات العقارية فى الزمن الجميل إلى أن المستثمرين الخاصين هم وحدهم، وليس الدول الثورية، القادرون على خلق المدينة وتمييزها على نحو دائم. غير أنه يجب القول بأن هذا التشابه لا يضفى الطابع الرومانسى على روح المشروع الحر الليبرالى الجديد أو بعض القيم الأخلاقية وأساليب الحياة النخبوية فحسب، بل إنه يعيد كذلك تشكيل أنماط الإنتاج. فالواقع أنه فى كلا العصرين النخبويين، فى ذلك الحين والآن، تقدم الحكومة إرثها العام. فهى تفتح مساحات شاسعة من الأراضى لتقسيمها بين حفنة من شركات التنمية العقارية الخاصة، بينما تشجع تدفق رأس المال من خلال بيع الأراضى.

إذن فالتشابه الحالى لا يتعلق بالأسلوب أو الواجهة أو نسق الصور الرمزية فحسب. فهو يشير إلى التحرر من الوهم فيما يتعلق بالتنمية العامة والحكومية والقومية، وكذلك مشروع التحديث السائد منذ عام ١٩٥٢.

هناك كذلك إحساس بتغير الأولويات فى الجو بصورة عامة. وهو يتطابق فى الأثر مع روح «الحوكمة الحضرية والشركاتية الصالحة» التى يروج لها البنك الدولى. فهل أمام الدولة المكيفة هيكلياً فى مصر بديل بالفعل؟ هل يجب عليها إعادة بناء تحالفها مع مستثمرى النخبة الكوزموبوليتانيين كى تظل قائمة؟

نقض التحرر السياسى

تمثل المجتمعات ذات البوابات النتيجة الاجتماعية السياسية للتحرر الاقتصادى الجديد. ففى هذه المجتمعات تتحقق الديمقراطية الخاصة. وبينما يقدَّر أن المؤسسات العامة لا يمكنها ضمان رفاهية الجماعة العامة والدفاع عنها، تتولى جماعة رصينة من الأشخاص ذوى العقليات المتشابهة بنفسها مسئولية إدارة حماية أسلوب حياتها. فجماعة سكان مدينة مينا جاردن ذات البوابات، على سبيل المثال، تدير الفضاءات المشتركة والإضاءة والطرق بأموال الصناديق المشتركة التى تضعها فى بورصة القاهرة.

يزدهر هذا النوع من الديمقراطية الخاصة فى مصر فى الوقت الذى نجد فيه أن الاستبعاد السياسى والقمع قد تكثف على المستوى الاجتماعى القومى.

يهدف تمسك النخب بالنموذج السياسى للمجتمع ذى الأسوار، وهو شكل من الانفصال الطوعى والتنظيم الذاتى الاستبعادى الذى يسرته الدولة والبورصة، إلى تشكيل وحدات مستقلة يمكن فيها العيش فى ديمقراطية تشاركية على نحو مباشر دون انتظار الديمقراطية الأساسية للبلد ككل، أو أثناء منع وصول تلك الديمقراطية. وتجيز مجتمعات النخب ذات الأبواب بناء الديمقراطيات الخاص حينما يكون التحرر الاقتصادى فى كل الأنحاء خارجها مصحوباً بنقض التحرر. وتمتد خصخصة الإصلاح إلى خصخصة السياسة، مما يسرِّع دوامة الاستبعاد، والحرمان من التصويت، والفقر، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تجريد القوة العاملة، التى هى أحد الموارد الأساسية التى تملكها مصر فى السوق العالمية للسلع والخدمات، من حقوقها وقدرتها.

ومع أنه من الواضح أن حركة العيش فى الصحراء يحركها تصاعد المخاطرة الحضرية، فليس من الممكن فهم تلك الحركة على أنها مجرد تجنب للمخاطرة. فظاهرة المجتمعات ذات البوابات شكل ذو قيمة ثابتة يستثمر المكاسب غير المشتركة المتدفقة مباشرةً من عملية التحرر والخصخصة، ثم يثبتها فى تراتب كونى/محلى جديد. وهذه التوجيهات مكتوبة بالحجر والعقارات، نتيجة للثروة المستخرجة من الإرث العام ومن الأراضى العامة فى سياق التضخم، الذى انخفض مقارنة بثمانينيات القرن العشرين، ولكنه يتميز بانخفاض شديد فى قيمة العملة. ويتيح كبار أصحاب المصلحة العامين للفاعلين من القطاع الخاص الحصول على الأراضى والأملاك بينما يتحاشون تنافس السوق. ويشمل هؤلاء الفاعلون العامون وزارة الدفاع، والسكك الحديدية المصرية، ووزارة الإسكان والمجتمعات العمرانية، ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضى، ووزارة الأوقاف، وشركات التأمين العام... إلخ.

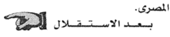
ولكى نفهم هذه العملية بشكل أفضل، نتجه إلى مجال الجغرافيا البنائية ونظرية الاستيلاء، (théorie du rachat) التى صاغها ريبور (٢٠٠٠) اعتماداً على كتاب ديماريه وريتشو (٢٠٠٠، ١٢١):

كثيراً ما كان يُستعان بالأعراض الاكتئابية وتعكر المزاج الاكتئابى والقلق المثار الناتجة عن المناطق الحضرية المتسمة بالتركيز الصناعى (الظروف غير الصحية، والاضطراب الاجتماعى...) لتفسير رحيل السكان البورجوازيين، المشتركين فى مواقع التجمع المتجاور، إلى فيلات الضواحى أو إلى أملاكهم فى الريف. إلا أن تلك المبانى البعيدة الفخمة تدل على شىء آخر غير الهروب. فهى تميز اتساع الرقعة الحضرية، وتكسر تجانسها، وتكتسب قيماً جديدة بفعل ديناميكيات الاستيلاء (rachat) التى تغذى النظام الاقتصادى.

يتم الاستيلاء على القيم الاجتماعية للعاصمة ويعاد تثبيتها، وبالتالى عكسها.

التفاوض على المظاهر

لا يعبر العيش فى الصحراء عن نفسه. كما ترمز الصحراء إلى كونها أرض الموتى. فهى تظل مرتبطة بالإزاحات المتعاقبة للجبانات وزيارة الموتى. وحينئذ فإن جعل الصحراء جذابة يفترض، من ناحية، أن هناك نفوراً شديداً من العاصمة المكتظة بالسكان وأن تغيراً مميزاً إلى حد كبير جداً قد طرأ على تربة الصحراء. ويجرى إعادة التكوين الإيكولوجى فى توتر بين الرفض والجاذبية، وبين وصم الجماهير بالعار والمبالغة فى تقدير النخبة. والصحراء التى يجرى الترويج لها منذ أكثر من عشرين عاماً على أنها فضاء لإبعاد الصناعات الملوِّثة، والطبقة العاملة مع ظهور المدن الجديدة، ليست جنة عَدْن، كما أنها ليست المواقع المثالية لخلق اليوتوبيات الحديثة (مع أن إحدى المدن الجديدة ذات البوابات فى السادس من أكتوبر تسمى يوتوبيا). إن تغيير الإدراك يجرى تشكيله على نحو اجتماعى من خلال الخطاب الليبرالى الجديد الذى عرَّف الصحراء بأنها المنطقة البِكْر لإعادة تأسيس المجتمع المصرى.

بعد الاستقلال 

مدينة المدن المغلقة!

أصبحت الصحراء ذلك الفضاء الذى يجرى غزوه وإعماره، ليس لأسباب تتعلق بتخفيف الكثافة والحفاظ على الأراضى الزراعية فحسب، بل كذلك، وقبل كل شىء، من أجل إنتاج عامل زراعى جديد وساكن حضرى جديد، أى رائداً حقيقياً للمجتمع الجديد (فانشيت ١٩٩٥). وتغييراً لهذه النظرة الثورية، تُقدَّم المجتمعات ذات البوابات على أنها وريثة المشروع القومى لغزو الصحراء. فالمستثمرون الخاصون، الذين حلوا محل الدولة، يعيدون بناء الأمة وفقاً للأساليب الليبرالية الجديدة. وبالإضافة إلى المروجين، الذين تعاملهم وسائل الإعلام على أنهم من المشاهير بسبب جهودهم لإعمار الصحراء وتخضيرها، قد يرى مشترو الفيلات فى المجتمعات المسورة أنفسهم رواداً يعملون من أجل توسيع الفضاء القابل للسكن، وبالتالى يعملون من أجل تقييم المصلحة العامة المتجسدة فى الأرض المصرية. ومن بين أوائل سكان المجتمعات ذات البوابات، هناك عدد لا بأس به من السادة-المزارعين الذين لديهم خبرة مباشرة فى تحسين الأراضى، مما سمح لهم بـ«ترويض الصحراء». وتسمح صورة الرائد الصناعى. البطل، الساكن على التخوم، المجدِّد . للمشترين والمروجين بتحويل الانتباه عن التملك الخاص، وشديد الاستبعاد فى أى الأحوال، للأراضى العامة، وبالتالى عن اختفاء الفضاء والموارد المحيطة بالعاصمة. وبذلك تتحول الرغبة فى التعبير عن الفرق الفردى، وعرض المرء لرأسماله، والمضاربة بدون القلق بشأن المجتمع أو النهوض القومى العام، إلى أرض الشجاعة الرائدة، ونوع من التجديد التنموى العقارى، وتظاهر بالشجاعة من جانب المستثمرين.

اعتباراً من تلك اللحظة، لم يعد يُنظر إلى العيش فى الصحراء على أنه رحيل إلى الهامش، بل باعتباره نقلاً لمركز المدينة وتركيزاً جديداً على أماكن الإبداع. ويعد هذا بمثابة عرض واضح لإعادة تركيز فضاءات القوة التى تصاحب إلى حد ما توسع المجتمعات ذات الأبواب.

يصاحب هجرة الفضاءات التجريبية هذه الخاصة بالمجتمع النموذجى وبـ«التحسينات الزراعية» إلى ضواحى الجديدة للقاهرة انتقال رمزى للقدرة على الإبداع من موظفى الدولة المدنيين إلى النخب والمستثمرين، ومن المجال العام إلى المجال الخاص، وهو ما يوضحه الاستبعاد المميز للنموذج.

تؤدى هذه الطريقة لرؤية التنمية العقارية على أنها ريادة إلى وضوح قصص النجاح الشخصى. وهى القصص التى كانت محجوبة فى قلب العاصمة وفى مفاهيم العام والقومى والاجتماعى. ففى المدينة تمحو هذا النجاحَ متطلباتُ الكثافة والقرب واللياقة التى يفرضها التعايش والتنوع الاجتماعى والتفاوت. وفى المدينة الشعبية، يجعل نقصُ الفضاءِ العرضَ المتباهى لـ«الإبداع» أو التميز الفردى مستحيلاً بدون مخاطرة الاحتكاك. وفى العاصمة القديمة، لابد من قصر مشاهد الفردية على الفضاءات الداخلية الخاصة وشبه الخاصة، كالفنادق السياحية الكبيرة ذات الخمس نجوم، من أجل التماشى مع معايير الحكمة المرتبطة بالفضاء العام الحديث فى قاهرة القرن العشرين.



وفى المقابل، تقدم الصحراء البُعد والمنظور. فالرقعة المتسعة من الأرض تدعم اتساع مجال الرؤية، وطقوس المدخل والممرات التى تجسد عظمة المساكن الجديدة؛ وبذلك تقام عتبات متعاقبة بين الخروج من التكتل والوصول إلى أبهاء أعمدة الفيلات وسلالمها. أولاً: هناك الانقطاع فى منظر الصحراء، الذى يعقبه المدخل الضخم للمدينة الجديدة، وأخيراً المرور خلال الأبواب المحروسة للمجتمع ذى البوابات.

تدعم أقلمة الصحراء عرض نجاح الفرد بعظمة وتباهٍ. فعمارة الفيلات تعبر عن ذلك بوضوح من خلال النكوص إلى استعراض العلامات الكوزموبوليتانية متعددة الثقافات: حمام السباحة، والميدان، والأعمدة الكلاسيكية الجديدة، والمرج، وأشجار الصنوبر، والجراج. ويشير الجراج بدوره إلى امتلاك السيارة، التى ظلت زمناً طويلاً بمثابة نقل للفضاء الخاص إلى داخل الفضاء الحضرى المزدحم،



والموجِّه الوحيد الذى يعبر عن مكانة المرء ونجاحه بين الحشد الشعبى. فالمرسيدس فى القاهرة لها اسم شعبى شائع هو «الشبح»، وهو أمر مفهوم تماماً من مجموع الهيئة الاجتماعية. فهذا الاسم يعكس رؤية النخب على أنها بعيدة وتهدد بالخطر وزائلة. كما يطلق على المرسيدس اسم «عيون» أو «البودرة»، ويوحى الاسم الأخير بأن تجار الهيروين وحدهم القادرون على شرائها.

يمكن نقل مشهد التميز النخبوى من شارع المدينة إلى المدينة الصحراوية ذات البوابات المغلقة والمشهد بالطريقة نفسها التى يمكن بها الهجرة إلى المنتجعات الصيفية على ساحل البحر المتوسط، أو قيادة المرسيدس ذات الزجاج الفيميه فى زحام المرور وسط المدينة. فمن خلال الاتصال المزدوج، يجب على المرء فهم تمسك النخب ببرنامج المجتمعات ذات البوابات؛ فهى تصل إلى هذا الفضاء لأن لديها تلك السيارات، وفى المقابل، تسمح لها المسافة بالتمتع بسلطة تلك السيارات. وقد أصبح العيش فى الصحراء البعيدة ترفاً، بينما كان يُنظر من قبل إلى المدن الجديدة على أنها عبء، حيث كان العمال الفقراء والمواطنون العاديون يقومون برحلات طويلة بالأتوبيس للوصول إلى وظائفهم بالمصانع.

يقودنا التباهى إلى ازدواجية نموذج المجتمعات ذات البوابات، التى من الواضح أنها تُباع بناءً على فكرة الحماية والأمن. ورغم ذلك، فإنه على خلاف العمارة المحصنة لفيلات جنوب إفريقيا أو مجمعات أمريكا اللاتينية، نجد أن الدفاعات هنا ذات شكل خارجى له دلالته. فمن المؤكد أن المستوطنات مغلقة، ولكن أسوارها تبدو هشة إلى أقصى حد، ومنخفضة بعض الشىء، ومفتوحة على نحو كبير، وذات سياج حديدى يسمح برؤية فخامة الفيلات من الخارج. ويشترى المشترى مسكناً محمياً ذا مخطط يخلق إحساساً بالبعد، وبالترشيح والتصفية؛ ولكنه يرغب فى الوقت نفسه بأن يُرى. ولأن شكل الأمن المرتبط بترويج المجتمعات ذات البوابات مكشوف على هذا النحو، فهو يعبر عن هشاشتها. ويؤكد الإغلاق الطابع المتشدد للانقطاع الاجتماعى ويشير بوضوح إلى رغبة المروجين، شأنهم فى ذلك شأن المشترين، فى فصل أنفسهم طواعيةً عن الجماهير الباقية خلفهم فى مناطق المدينة كثيفة السكان. ولكن النموذج يبدو معرضاً للخطر إلى أقصى حد. فهو يستجيب لمطالب التميز والإظهار، ولكنه يؤكد فى الوقت ذاته عدم الأمان بدلاً من أن يحمى منه. وهو ينتج المخاطرة فى مدينة تظل شديدة الثقة بنفسها إلى أقصى حد.

تقاطعات المخاطر

الليبرالية الجديدة

تتشكل ظاهرة المجتمع ذى البوابات عند تقاطع نوعين من المقولات المبررة أو المشرعنة. فالجغرافيا الاستبعادية الجديدة للقاهرة الليبرالية الجديدة تمثل من ناحية واجهة عالمية لنوع بعينه من التحرر، وهو ذلك النوع الذى يثير المديح والتأييد من خارج مصر، مثلما باركت صحيفة «وول ستريت جورنال» فى عام ١٩٩٧ المشروعات الجديدة تحت عنوان «إلى أى مدى وصلت مصر» («وول ستريت جورنال»، ١٤ أبريل، ١٩٩٧). ومن ناحية أخرى، تفرض جغرافيا المدينة ذات البوابات إعادة تعريف المخاطر. فما تسمى بالنهضة العمرانية تبرر وتشهد على أداتية سياسة التحرر وعلى التفويض الجديد للقدرات الذى سوف يعيد تشكيل مصر من أجل رجال الأعمال المتعدين للقوميات. بل إنه لابد من تبرير هذه التطورات من خلال تأويل المخاطر المقابلة للمبادئ العامة التى ترتبط بأسلوب الحياة الخاص بعيش الإنسان على نحو منفصل بين طبقته وعشائره، داخل تجمعات صغيرة محمية ومدعمة وتدار إدارةً ذاتيةً «بشكل ديمقراطى». ويبلور هذا النمط الناشئ للتقسيم المنطق الحقيقى للإصلاحات الليبرالية الحالية، التى تزيد باستمرار من صلابة المشهد الاجتماعى فى مواجهة العديد من التأثيرات المضادة والبدائل والمقاومات.

اعتباراً من تلك اللحظة، لم يعد يُنظر إلى العيش فى الصحراء على أنه رحيل إلى الهامش، بل باعتباره نقلاً لمركز المدينة وتركيزًا جديداً على أماكن الإبداع. ويعد هذا بمثابة عرض واضح لإعادة تركيز فضاءات القوة التى تصاحب إلى حد ما توسع المجتمعات ذات الأبواب



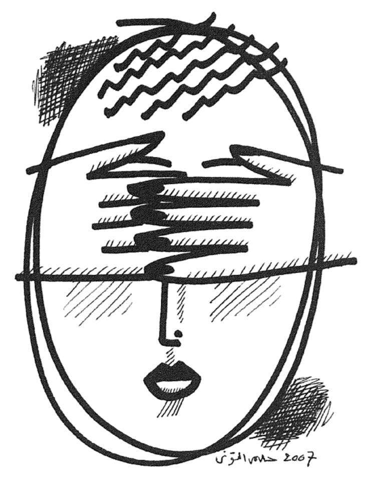
اللحظات والنماذج والكلية

من منظور الدراسات الحضرية، هل من المقبول فى هذا السياق تعريف مدينة اليوم، تلك المدينة المعولمة الكبيرة جداً بصفة خاصة، بأنها توليفة من العناصر المختلطة، ومن التنوع، ومن الكثافة المؤيدة للنزعة الكوزموبوليتانية والإبداع؟

لابد لنا من توفيق هذا التعريف مع الحقائق الجديدة، التى لا تقل كلية، التى تقول إن موضوع السياسات الحضرية الجديدة هو الكفاح ضد توليفات العناصر غير المتوافقة، والقضاء على التنوع، وتجريم الكثافة والاختلاط والقرب. وهذه السياسات تفصل وتنشئ تراتباً يتجاوز كثيراً ذلك التراتب الذى يتطلبه المنظور الوظيفى البسيط. ونموذج المدينة الكونية الكوزموبوليتانية الأوروبية. وهو بلا شك خرافى ونخبوى ومركزى النزعة فى حد ذاته. فهو ليس «نموذجاً مثالياً» مفيداً فى الوقت الراهن، كما أنه ليس نقطة مفيدة للمقارنة. وربما كانت مدن المستوطنين الاستعمارية الأمريكية والديستوبيات ما بعد الصناعية نقاط مقارنة أكثر لفتاً للانتباه. أو ربما كانت القاهرة مدينة «تعرض» الموضات الليبرالية الجديدة بطريقة «مثالية» بالمعنى العالمى على نحو يتسم بالتناقض والإزعاج.

تُعَرِض المجتمعات المصرية ذات الأبواب باعتبارها الشكل المطلق للمخاطرة. ومع ذلك فهى تولِد بوجودها نفسه الكثير من أشكال المخاطرة الاجتماعية، والهشاشة، وقابلية التعرض للخطر التى يمكن أن تَحول دونها كل المتاريس المادية والخطابية الخاصة بالجغرافيا الليبرالية الجديدة والإسكان الفاخر. والواقع أن المجتمعات المسورة تدرك الهشاشة القومية وتنتج المخاطرة الاجتماعية المعممة التى تدعى ضمانها.

إذا حدث أن المجتمعات ذات الأبواب قدمت صورة عن مصر فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠، فليس مستغرباً إذن أنها تكمن فى قلب الأزمة المالية التى أعقبت عام ٢٠٠٠ فى مصر. فمن الواضح أن الرسملة الضخمة التى كانت لازمة للإنشاء المدعَم الاستبعادى لتلك المناطق الصحراوية كانت أحد الأسباب الرئيسية لأزمة السيولة وانفجار فقاعة البناء التى أدت إلى انهيار أسعار العقارات وانهيار الاقتصاد القومى بصورة عامة. وظهر نموذج التنمية العقارية النخبوى فى وسط الأزمة القومية. وربما بات معادلاً للمخاطرة ذاتها. وينعكس انخفاض قيمة استثمارات المضاربة فى المجتمعات ذات البوابات، التى يدعمها بصورة كبيرة الكثير من البنوك الخاصة والعامة. ومن المؤكد، كما يبين تيموثى ميتشل، أنه من المهم رؤية الرأسمالية وهى تعمل، باعتبارها تحويلاً للأرباح والقروض ناحية أكثر الرغبات غير منطقية، التى اتخذت فى سنوات الانتعاش شكلاً عبارة عن أرض وحجر، محولة الصحراء إلى مكان قابل للسكنى (٢٠٠٢). وانفجرت الفقاعة. وانهار الاقتصاد المصرى بعد عام ٢٠٠٠ (قبل أن يبدأ فى التحسن من عام ٢٠٠٤). ولكن المدينة الكولونيالية الجديدة الليبرالية الجديدة، التى تعد تجسيداً للمخاطرة والنزعة الاستبعادية، اتخذت بالفعل شكلاً لتشغل العالم الاجتماعى وتقيده وتعيد تشكيله. لقد تغيرت القاهرة تغيراً جذرياً. ■





حرية المعلومات الفريضة الغائبة

جمال محمد غيطاس

■■ فى ليلة رمضانية عام ٢٠٠١ دعيت لحضور لقاء يضم حشدا من رؤساء شركات تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات والاتصالات سيتحدث فيه الدكتور أحمد نظيف وزير الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات. فى ذلك الوقت. حول الخطط والمشروعات الحالية والمستقبلية فى مجال تكنولوجيا المعلومات بالبلاد، حضرت اللقاء واستمعت لحديث الوزير، وحينما فتح الباب للمناقشة وقف أحد الحاضرين طالبا من الوزير أن تبذل الوزارة جهدا فى إلغاء بعض الضرائب المفروضة على صناعة البرمجيات ومعاملتها معاملة الإنتاج الذهنى المطبق على مؤلفى الكتب والأغانى الذى يمنح تسهيلات كبيرة، فرد الوزير إنه أعد مذكرة بهذا الشأن لوزير المالية ومصلحة الضرائب، لكن أحد رؤساء الشركات ذكر أنه حصل فعليا ومنذ فترة على فتويين من مصلحة الجمارك بأن البرمجيات إنتاج ذهنى معفى من بعض الضرائب.

توقفت كثيرا أمام إجابة الوزير ورد رئيس الشركة .. فهذا الحوار القصير أشار بوضوح إلى أن حركة تبادل المعلومات بين الأطراف الثلاثة. مصلحة الضرائب ووزارة الاتصالات والشركة التى حصلت على الفتويين. لم تسمح بوصول المعلومة إلى ثلاثتهم بشكل صحيح وفى الوقت المناسب، فالضرائب أصدرت الفتوى ونسيت، والشركة حصلت عليها ولم تبلغ وزارة الاتصالات وأخواتها من الشركات، ووزارة الاتصالات لم تتابع، بدليل أنها لا تزال فى بداية مشوار إلغاء الضريبة.

والسؤال: ماذا كان سيحدث لو أن معلومة الفتويين انتقلت منذ صدورها للوزارة وللشركات التى لا تكف عن طلب العون؟

أضعف الإيمان أن الوزير كان قد استثمر الجهد السابق فى تحقيق خطوة للأمام فى هذا الموضوع بدلا من أن يبدأ من الصفر.

وفى اللقاء نفسه طلب أحد مسئولى اتحاد الصناعات المصرية أن تتبنى الوزارة قضية المعلومات فى قطاع الصناعة، لأنه لا توجد معلومات يعتمد عليها حول هذا القطاع، وكان رد الوزير أنه ليس وزيرا للمعلومات ولكن وزيرا للاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، ومن ثم فليس وحده المسئول عن المعلومات.

تقودنا هاتان الواقعتان السريعتان إلى واحدة من أخطر القضايا المتعلقة بالتنمية المعلوماتية والتى تعتبر (فريضة غائبة) ألا وهى (حرية المعلومات) أو حرية الوصول إلى المعلومات وتداولها، والصعوبة البالغة والقيود والعقبات المتعددة التى تقف فى وجه تداولها وتدفق المعلومات وانسيابها ما بين الأطراف المعنية بها داخل المجتمع.

ولكى أقترب قليلا من هذه النقطة، ناقشتها مرارا مع الدكتور أحمد الحفناوى .الأستاذ بهندسة القاهرة وخبير تكنولوجيا المعلومات، وفى ضوء هذه المناقشات يمكننى القول إن العلاقة بين القيود أو العوائق التى تعترض انسياب وتدفق المعلومات من ناحية، وبين مشروع النهوض بتكنولوجيا المعلومات من ناحية أخرى، تعود إلى أن تكنولوجيا المعلومات هى الأدوات أو الأوعية التى يمكن من خلالها جمع وتخزين ومعالجة وتحليل وإدارة المعلومات وتنظيمها وتدويرها بين الجهات التى تطلبها، أما المعلومات فهى المحتوى الذى تملأ به هذه الأدوات والأوعية، ومسئوليتها تتقاسمها الجهات المنتجة والمستهلكة للمعلومات، ما بين هيئات سيادية ووزارات وهيئات عامة وخاصة وغيرها.

بعبارة أخرى.. تشبه تكنولوجيا المعلومات السلاح الذى يطلق الرصاص بسرعة صوب هدف محدد، أما المعلومات فهى الرصاصة أو الذخيرة نفسها، التى لابد أن يملأ بها السلاح كى يعمل ويستفاد منه.

بل يمكننا تناول القضية بشكل آخر فمثلا: ما الذى يمكن أن نجنيه من وراء انشاء طرقة سريعة عالية الكفاءة لا يمر عليها أحد؟ أو مخازن ضخمة لا تدخلها بضائع؟ أو أراض مستصلحة لا يزرع فيها شىء؟

هكذا الحال فى قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فنحن لن نجنى شيئا من إنشاء شبكات معلومات بينما لا توجد معلومات تدور بداخلها، ولن نحقق الكثير لو نشرنا الإنترنت فى كل مكان، ثم لا نوفر للمواطنين معلومات ذات قيمة على الشبكة تحقق لهم فوائد ومصالح مباشرة، ولن نحدث توظيفا فعالا لتكنولوجيا المعلومات فى خدمة قضايا المجتمع المختلفة ما لم تكن قطاعات ووحدات المجتمع المختلفة منفتحة على بعضها البعض، وتقبل بأن تتبادل فيما بينها المعلومات الضرورية بحرية وسلاسة وشفافية ووضوح.

ولذلك فإنه حينما لا تتوافر البيئة المجتمعية والقانونية والاقتصادية التى تسمح بالتدفق السريع والسهل للمعلومات، ولا يتوافر الوعى الكافى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها وإدارتها، ستصاب جميع مشروعات تكنولوجيا المعلومات بالضمور والهزال فى النتائج، وتتحول مع الوقت إلى بنادق فارغة من الطلقات، حتى لو كانت محتوية

حينما لا تتوافر البيئة المجتمعية والقانونية والاقتصادية التى تسمح بالتدفق السريع والسهل للمعلومات، ولا يتوافر الوعى الكافى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها وإدارتها، ستصاب جميع مشروعات تكنولوجيا المعلومات بالضمور والهزال فى النتائج.



على قواعد بيانات عملاقة، وشبكات معلومات مترامية الأطراف، وبرمجيات (آخر موضة)، ولو وجدت هذه البيئة المواتية، ستظهر فوائد المشروعات المختلفة القائمة على تكنولوجيا المعلومات، بما يشيع جوا من الثقة فى هذه التكنولوجيا لدى المجتمع وصانع القرار، فتحصل الصناعات المتعلقة بالمعلوماتية، من برمجيات ونظم وشبكات وغيرها، على مكانة أعلى، وتتعزز أهميتها النسبية لدى المجتمع بمختلف طبقاته وأجياله، فتحدث زيادة فى الطلب على منتجاتها وخدماتها، وتتحرك الأمور للأمام.

اهتمام دولى

وعلى المستوى الدولى تحظى قضية حرية الوصول للمعلومات وتداولها باهتمام بالغ، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة خلال فعاليات القمة العالمية لمجتمع المعلومات بدورتيها (جنيف ٢٠٠٣ وتونس ٢٠٠٥)، حيث أكدت وثائق القمة وقراراتها وفعالياتها على أن معادلة (الخبز والحرية) التى يطلب من جميع الدول دائما الاجتهاد فى توفيرهما معا لمواطنيها قد تغيرت الآن، إذ أصبح على الجميع مراعاة أن الأمر بات معادلة ثلاثية وليس ثنائية الأطراف، ففى مجتمع المعلومات العصرى لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة والبيان والحاسب وشبكة المعلومات، لأنه بدون هذا الطرف الثالث الجديد سيكون من الصعب، وربما من المستحيل، توفير الخبز أو الحرية.

وقد كان من السهل أن نلمس هذه الرسالة فى إعلان المبادئ الصادر عن دورة جنيف ومقررات قمة تونس، فمبدأ حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها وتداولها ظهر كروح عامة تسرى فى القسم الأكبر من بنود الإعلان، فمنذ السطور الأولى تعبر بنود الإعلان عن هذا المبدأ بصيغ وكلمات متنوعة، فتارة تعبر عن حرية الحصول على المعلومات (بالنفاذ الى المعلومات) وتارة أخرى تتحدث مباشرة عن حرية الحصول على المعلومات ونشرها، وفى مواضع ثالثة تربط بين حرية المعلومات والحريات العامة والديمقراطية وأساليب الحكم، ثم تعود فى مواقع رابعة وتقرن حرية الحصول على المعلومات وتداولها بقضايا المحتوى المحلى والتنوع الثقافى وحماية حقوق الفئات المهمشة وغيرها.

فالبند الأول من إعلان المبادئ يتحدث عن الرؤية المشتركة عالميا لمجتمع المعلومات قائلا: (مجتمع المعلومات يرتكز على الناس ويستطيع كل فرد فيه أن يخلق المعلومات والمعارف وأن ينفذ إليها وأن يستخدمها ويتقاسمها)، والمعنى هنا أن ركيزة مجتمع المعلومات هى أن يكون الفرد حرا فى أن يولد ويستخدم ويتقاسم المعلومات، ثم يأتى البند الثانى من الإعلان مؤكدا المعنى نفسه مرة أخرى قائلا: (يقوم مجتمع المعلومات الذى ننشده على المبادئ المنصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وأن يكون قادراً على تحقيق النفاذ الشامل إلى المعلومات واستخدامها فى خلق المعارف وتجميعها ونشرها) وهنا يستخدم كلمة (النفاذ الشامل) بمعنى حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها.

وفى البند الرابع من الإعلان ترتفع درجة وضوح هذه الروح بشكل كبير لتجعله من أكثر البنود صراحة فى الربط بين حرية الحصول على المعلومات وتداولها وبين إنشاء مجتمع المعلومات نفسه، حيث يعتبر أن مبدأ الحرية والحق فى الحصول على المعلومات هو الفرضية المنطقية الضرورية التى يقوم عليها مجتمع المعلومات، ويقول نص هذا البند (إن حرية التعبير وحرية الرأى، والحق فى استقاء المعلومات والأفكار وتلقيها ونشرها بغض النظر عن الحدود الجغرافية على النحو المكرس فى المادة ١٩ والمادة ٢٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان هى الفرضية المنطقية الضرورية التى يقوم عليها مجتمع المعلومات).

ويخصص الإعلان أكثر من بند للحديث عما يمكن تسميته بنطاق أو ميدان المعلومات العام، والذى يتعين توافره فى كل مجتمع على حدة وما بين المجتمعات وبعضها البعض، كأساس جوهرى من أسس مجتمع المعلومات، ونطاق المعلومات العام يقصد به المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والتجارية والعلمية والتعليمية فى أى دولة، والتى يجد المواطن نفسه محتاجا إليها لا محالة، وهو يبيع ويشترى ويتعلم ويستثمر .. الخ، ويستهدف نطاق المعلومات العام تحرير البيئة القانونية والإدارية الحاكمة لتداول المعلومات، لتسمح بتدفق حر وسريع لهذه المعلومات فى الاتجاهات المختلفة، ويتعامل الإعلان مع نطاق المعلومات العام باعتباره شيئا حيويا بالنسبة للبحث والتعليم والابتكار وللتنمية الوطنية، وللحفاظ على التنوع الثقافى.

ويتناول البندان ٢٠ و٢١ قضية ميدان المعلومات العام المتاح، فيذكر البند ٢٠ أنه (يمكن تعزيز تقاسم المعارف العالمية لأغراض التنمية وتدعيمها بواسطة إزالة الحواجز التى تعترض النفاذ المنصف إلى المعلومات لأغراض الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتعليمية والعلمية ومن خلال تيسير النفاذ إلى معلومات الميدان العام) بينما يذكر البند ٢١ إن وجود نطاق معلومات عام يتسم بالثراء يعد من العناصر الجوهرية لنمو مجتمع المعلومات وتحقيق منافع متعددة مثل الجمهور المتعلم، وفرص العمل الجديدة، والابتكار وفرص التجارة وتقدم العلوم. وينبغى أن تتسم المعلومات الموجودة فى الميدان العام بسهولة النفاذ إليها لدعم مجتمع المعلومات، وينبغى تدعيم المؤسسات العامة مثل المكتبات والمحفوظات والمتاحف والمجموعات الثقافية وغيرها من نقاط النفاذ القائمة على المجتمعات المحلية، للنهوض بصيانة السجلات الوثائقية والنفاذ الحر والمنصف إلى المعلومات.

ويطالب البند ٢٣ بتشجيع الوصول بحرية للبحوث والمعارف العلمية ونتائجها، ونشرها على نطاق واسع دون قيود وبإنصاف، ويرى أن مؤلفى المحتوى وناشريه ومنتجين وكذلك المدرسون والمدربون وأمناء المحفوظات وأمناء المكتبات والدارسون بدور نشط فى تعزيز مجتمع المعلومات، ولاسيما فى أقل البلدان نمواً، من خلال إتاحة الوصول بحرية لهذا المحتوى.

وتناول الإعلان بعض القضايا الخلافية مثل استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الأغراض التى لا تتسق مع الأهداف المتعلقة بصون الاستقرار والأمن الدوليين، وقد تؤثر بشكل معاكس على تكامل البنية التحتية داخل الدول، لكن البند الذى تناول هذه القضية كان واضحا فى التأكيد على أن إجراءات منع استعمال موارد المعلومات والتكنولوجيات فى أغراض إجرامية وإرهابية يجب أن تتم بشكل يتسق مع الحاجة إلى المحافظة على حرية تدفق المعلومات ووفقاً للنظام القانونى لكل بلد.

وفى البند ٤٦ يعاود الإعلان التركيز من جديد وبشدة على مبدأ حرية الوصول للمعلومات والحصول عليها، قائلا: (لا بد لأى مفهوم لمجتمع المعلومات من وجود وسائط مستقلة وتعددية وحرة وفق النظام القانونى لكل بلد على أساس الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وخاصة منه المادتين ١٩ و٢٩، وينبغى أن يتاح للأفراد ووسائط الإعلام النفاذ إلى المعلومات المتاحة، فمن المبادئ المهمة لمجتمع المعلومات حرية النفاذ إلى المعلومات واستعمالها، من أجل إقامة المعرفة وتراكمها ونشرها وينبغى تشجيع تعددية وسائط الإعلام وتنوع ملكيتها).

وفى بداية عام ٢٠٠٢ أصدرت منظمة اليونسكو تقريرا حول خدمات تطبيقات الإنترنت فى الدول النامية، وأشارت فيه إلى ما يسمى بنطاق المعلومات العام، ويقصد به تلك المعلومات المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والتجارية والعلمية والتعليمية فى أى دولة، والتى يجد المواطن نفسه محتاجا إليها لا محالة، وهو يبيع ويشترى ويتعلم ويستثمر .. الخ، ويستهدف نطاق المعلومات العام تحرير البيئة القانونية والإدارية الحاكمة لتداول المعلومات، لتسمح بتدفق حر وسريع للمعلومات فى الاتجاهات المختلفة، ورأى التقرير أن نطاق المعلومات العام حيوى بالنسبة للبحث والتعليم والابتكار وللتنمية الوطنية، وللحفاظ على التنوع الثقافى، وهو أيضا مكون حيوى لمجتمع معلومات عالمى قائم على المشاركة، وحيوى للغاية أيضا عند تطوير خدمات وتطبيقات الإنترنت التى تخدم التنمية فى المجتمعات المحلية، لكون هذه المعلومات هى العماد الأساسى لأى خدمة تحقق مصالح مباشرة وحيوية للمواطن فى تعاملاته اليومية.

ويقول التقرير إن السلطات العامة على كل المستويات تعتبر أكبر المصادر المهمة لمعلومات النطاق العام، ولذلك يقع على عاتقها مسئوليات تجاه المواطنين تتمثل فى: تحديد المصادر القائمة لنطاق المعلومات العام، والحفاظ عليها وتوسيع وتحسين مستوى مصادر المعرفة والمعلومات المتاحة للجماهير، من خلال تشجيع تحولها إلى العصر الرقمى، والترويج والعمل على تكوين وصول عادل ومنصف لهذه المعلومات من قبل الجميع، وبشكل خاص من خلال الإنترنت.

وركز التقرير على أن وجود نطاق المعلومات العام يعد مهما للغاية لكى تقوم شركات الإنترنت والعاملون فى هذا المجال من المتخصصين ببناء محتوى محلى من المعلومات على الشبكة، يرتبط ارتباطا وثيقا بالمستخدمين، وقال التقرير إن تهيئة المحتوى والتطبيقات للاستجابة للاحتياجات المحلية بواسطة المؤسسات أو الكيانات المحلية تعتبر مقياسا حيويا فى نجاح توظيف الإنترنت فى عملية التنمية، وأنه فى العديد

من الدول النامية تحتل الجهود الخاصة بتوليد محتوى محلى على الشبكة مرتبة ثانية أو ثالثة فيما يتعلق بصناعة الاتصالات والمعلومات عموما، فى حين أن ذلك واحد من أهم المبادئ فى عملية تنمية مجتمع معلوماتى منصف وعادل، يشمل كل اللغات والخصوصيات الثقافية.

المستوى المحلى

الحاصل فعليا أن هناك قيودا قوية تعوق تدفق المعلومات بحرية فيما بين وحدات المجتمع المختلفة، ومنها مثلا المادة العاشرة من القرار الجمهورى رقم ٢٩١٥ لسنة ١٩٦٤ التى تنص على أنه (لا يجوز لأية وزارة أو هيئة أو جهة أو فرد أو أفراد بالحكومة والقطاع العام أو الخاص، أن ينشر بأى وسيلة من وسائل النشر أو الإعلام أى مطبوعات أو نتائج أو بيانات أو معلومات إلا من واقع إحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، والإحصاءات غير المقررة ضمن برامج الجهاز لا يجوز نشرها إلا بموافقة الجهاز).

وعمليا تشكل هذه المادة قيدا كبيرا على جمع ومعالجة وإعادة تدوير المعلومات ضمن الوحدات المختلفة المكونة للاقتصاد المصرى، وبسببها أصبح لزاما على الشركات التى تريد معلومات حقيقية عن أوضاع السوق المصرية أن تحصل على سلسلة من الموافقات قبل بدء إجراء دراسات السوق، ثم نشر الموافقة بالجريدة الرسمية، مما يستغرق أسابيع وربما شهورا، والمدهش ان تجد فى الجريدة الرسمية المصرية قرارات رسمية تستغرق صفحات من الجريدة وهى تتحدث عن موافقة صدرت لإحدى الشركات بدراسة سوق حفاضات الأطفال بمصر.

ولا شك أن سير الأمور على هذا النحو يتناقض كلية مع متطلبات النهوض بصناعة تكنولوجيا المعلومات، التى تقوم بالأساس على نقل المعلومات، إذ كيف نتحدث عن بناء قواعد بيانات، وإنشاء شركات تعمل فى مجال خدمات المعلومات، بينما قيود من هذا النوع مفروضة على حركة وتدفق المعلومات؟

إن الواقع العملى يمدنا بالكثير من الأمثلة والمواقف الدالة على عمق هذا البعد فى التنمية المعلوماتية، ومنه الواقعة التالية التى قالها لى الدكتور الحفناوى:

فى يوم من أيام عام ٩٦ .أى قبل ١١ سنة من الآن. وصلت مجموعة من المصريين إلى مطار هونج كونج، وأثناء فحص الجوازات طلب الضابط المسئول من المسافرين الذين وصلوا توا ملء استمارة بيانات تحوى بندا خاصا بالغرض من الزيارة، و بسرعة شديدة كتبت مجموعة المسافرين أن الغرض استطلاع سوق مكونات الحاسبات والتعرف على شركات أو موردين يمكن التعامل معهم، وبعد حوالى ساعة كانوا أمام موظف الاستقبال فى الفندق الذى قرروا الإقامة به، وكانت المفاجأة أن بانتظارهم قائمة بأسماء وعناوين جميع الشركات والموردين العاملين داخل البلاد فى مجال مكونات الحاسبات، الأكثر من ذلك أن ما يزيد على ٢٠ شخصا من هذه الشركات اتصل بالفندق بالفعل طالبا تحديد موعد مع المجموعة لعرض ما لديه من منتجات والتفاوض حول تصديرها .



فى مجتمع المعلومات العصرى لم يعد مطلوبا من الدول أن توفر لمواطنيها الخبز والحرية فقط، بل لابد أن يكون معهما المعلومة والبيان والحاسب وشبكة المعلومات



هذه الواقعة تجعلنا نتساءل: كيف طارت معلومة وصول المجموعة ومقر إقامتها وهدفها من الزيارة من المطار، ثم مرت بالعديد من الجهات، ثم جرى التعامل معها واستثمارها بهذه السرعة الرهيبة وتحويلها إلى إجابات عن أسئلة لم يبدأ أصحابها طرحها بعد، ثم تقديمها فى مكانها وتوقيتها الصحيح؟

الأمر ببساطة أن هناك نظاما مستقرا وعالى الكفاءة لتدوير المعلومات داخل هونج كونج، يجعلها تتدفق فى اتجاهاتها المناسبة فى الأوقات المناسبة، لتحقيق أقصى قدر من الكفاءة والسهولة والسرعة فى العمل، ويعتبر النظام حجر الزاوية فى التقدم والتميز الذى حققته هونج كونج، ويرتكز على سلسلة من قواعد البيانات وشبكات المعلومات والاتصالات المرتبطة ببعضها البعض، والمفتوحة على بعضها البعض، أى يقع سره بالكامل فى قلب قطاع الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات هناك.

فالمتصور فى هذه الواقعة أن المعلومة انتقلت من الورقة إلى قاعدة بيانات الجوازات فى المطار، ونقلت على الفور إلى قاعدة بيانات أخرى تتابع اتجاهات ورغبات الواصلين إلى البلاد، وتعاملت معها آليا، وقامت بتوزيعها قاعدة بيانات أو شبكة معلومات أخرى خاصة بالقطاع المعنى بالزيارة، وبدورها قامت شبكة القطاع بتوزيع المعلومة على كل العاملين به، ليبادروا بالاتصال بالمجموعة، وفى الوقت نفسه أرسلت قائمة المعلومات إلى الفندق ليختاروا منها .

هذا النظام ليس أجهزة وبرامج وآلات، ولكنه قبل كل شىء بيئة مفتوحة تتداول فيها المعلومات بحرية وشفافية، وتديرها عقول لديها مفاهيم وتصورات وأفكار وأساليب تحمل قدرا عاليا وعصريا من الوعى بأهمية المعلومات وكيفية التعامل معها، وضرورة توفيرها وإتاحتها لمن يحتاج إليها فى الوقت المناسب بدقة عالية .

وهذا المثال يكشف لنا كيف أمكن لهذه المدينة أن توفر خدمات فعالة وعصرية لمواطنيها وزوارها، وتوفر أيضا فرصا واسعة للنمو والتطوير والبحث والإضافة أمام شركات تكنولوجيا المعلومات، وذلك كله بالاعتماد على نظام معلومات عملاق، يستمد قوته الحقيقية من البيئة المفتوحة لتداول المعلومات، والمشاركة الفعالة من قبل سلسلة من شركات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، سواء التى عملت فى تطوير البرامج والتطبيقات أو التى أسهمت فى إقامة قواعد البيانات، أو بناء شبكات الاتصالات والمعلومات.

وأهم ما فى هذا المثال أنه أوجد إحساسا حقيقيا وملموسا بأهمية وجدوى صناعة تكنولوجيا المعلومات للمجتمع ككل، وهكذا ينظر الآخرون إلى هذا القطاع ويدخلونه ملعب التنمية، ليخدم خطط التطوير والتحديث فى المجتمع.

ترى لو سارت الأمور بالعكس وجاء وفد من هونج كونج بغرض استيراد شحنة من البطاطس المصرية.. ما الذى كان سيحدث له كى يصل إلى الجهة المسئولة عن الإنتاج أو التصدير؟

أغلب الظن أنه كان سينفق نصف اليوم كى يصل إلى الفندق الذى سينزل به، ثم يبدأ رحلة كعب داير قبل أن يعرف اسم منتج أو مصدر واحد، بينما صناعة تكنولوجيا المعلومات فى واد آخر .. لماذا؟

لأن التعامل مع المعلومات من هذا النوع وسرعة دورانها فى مصر أقل كثيرا مما تتطلبه ظروف وتحديات العصر، وما تقتضيه حركة الأحداث والتفاعل اليومى بالمجالات المختلفة.



لنا أن نتصور حجم فرص العمل، والتطبيقات والبرامج المطلوبة لتنفيذ مشروع ضخم يصمم لميكنة وفهرسة جميع اتفاقيات التبادل التجارى بين مصر ودول العالم منذ الخمسينيات وحتى الآن فى قاعدة بيانات حكومية أو تجارية خاصة مثلا، وكم من الخبرات يمكن بناؤها حول هذا المشروع، وكم من الخدمات يمكن أن يقدمها للمستثمرين ورجال الاعمال، ولصانعى القرار فى الحكومة، إذا ما قام هذا المشروع بـ:

. إتاحة المعلومة .. بمعنى توفيرها فى توقيت يتناسب مع الاحتياج الزمنى لها، فمعلومة تتعلق مثلا بطبيعة سوق الزيوت فى مصر تصبح غير مفيدة لشخص يطلبها فيحصل عليها بعد عدة شهور تكون خريطة السوق قد تغيرت خلالها، ومن ثم يصبح من الخطأ الاعتماد على مثل هذه المعلومة فى اتخاذ اى قرار .

. دقة المعلومة .. أى تكون المعلومات والبيانات التى تقدمها هذه الجهات على درجة عالية من الدقة وتخاطب الاحتياجات الحقيقية، فمثلا النظام المتبع حاليا فى الجمارك المصرية يستخدم ما يطلق عليه الكود المتجانس، وبالتالى تأتى المعلومات التى توفرها الجمارك عن حركة البضائع بالأسواق دون المستوى الذى تتيحه نظم التكويد الموحدة و المطبقة فى دول أخرى، والتى تساعد أكثر فى متابعة حركة أى بضائع سواء على مستوى الشركات أو المستوى القومى .

. شمولية المعلومة .. بمعنى أن تغطى المعلومة جميع أوجه النشاط الذى تتعلق به قدر الإمكان، فمثلا القرارات الخاصة بمنتج معين تتطلب معرفة حجم الأسواق للاحتياجات المختلفة من هذا المنتج سواء منزليا أو تجاريا أو تصنيعيا، ويتطلب ذلك مطابقة البيانات من مصادر مختلفة سواء من جهة المصنع أو المستورد أو مقدم الخدمة أو الموزعين أو المستهلك.

. وسيلة توفير المعلومة وسعرها، حيث يجب أن تستخدم وسائل متطورة تساعد على توفير المعلومة المناسبة فقط، وبسعر معقول لطالبها .

هذا المثال المتعلق باتفاقيات التبادل التجارى يمكن تكراره بشكل أو بآخر فى العديد من القطاعات الأخرى التى يمكن تصنيفها ضمن نطاق المعلومات العام، مثل:

. معلومات الجمارك: وهى مصدر للحركة التجارية على مستوى الدولة، وبياناتها حاليا متأخرة سنة على الأقل، وقيمة المعلومة الجمركية فى توافرها اللحظى وفى نوعيتها، فهى لا تطلب للدراسة الاقتصادية والتأريخ، ولذلك يجب توفير هذا البيان يوميا بل وفى نفس اليوم.

. المعلومات المالية: بناء قاعدة بيانات تشمل القدرات المالية للشركات وتعاملاتها، وهو ما يتوفر لدى البنك المركزى.

. معلومات البناء والإسكان والمحليات: تعتبر البيانات الحديثة الخاصة بحركة تراخيص البناء والإسكان: من أهم المؤشرات التى تتيح معرفة حركة البناء العمرانى، ومن ثم خدمة الشركات العاملة فى قطاع المقاولات بأفرعه المختلفة، وهى أحد المؤشرات الاقتصادية المهمة التى يستخدمها العالم المتحضر.

. معلومات السجل التجارى ومصلحة الشركات وهيئة الاستثمار: يوجد فى مصر حوالى ٢ مليون سجل تجارى، ومن شبه المستحيل الحصول على بياناتها على الرغم من أهميتها القصوى للمستثمرين القدامى والجدد على السواء، إما بسبب التعقيدات الإدارية والروتينية، وإما لأنها غير محدثة وغير مجهزة للتعامل الفورى.

. المعلومات التجارية لدى وزارتى الخارجية والتعاون الدولى : مثل المعلومات الكاملة عن الاتفاقيات التجارية بين مصر ودول العالم، واتفاقيات المنح والقروض والمساعدات، فهذه المعلومات تكاد تكون غير معروفة بشكل متكامل للغالبية العظمى من أصحاب الشركات، ويصعب الحصول عليها بشكل فعال، وذلك على الرغم من أن هذه المعلومات تعتبر أساسا لحركة التصدير.

. المعلومات التجارية بالمصالح الحكومية والوزارات وشركات قطاع الأعمال العام: مثل المعلومات الخاصة بالمناقصات والأعمال التجارية التى تعد بالآلاف شهريا وربما يوميا، فهذه البيانات عادة ما تجرح بشكل جزئى، علاوة على أنها لا تتوافر فى مصدر أو قاعدة بيانات واحدة، ولذلك يجب أن تطرح هذه البيانات وتتم ترسيتها فى ظل قاعدة بيانات متكاملة.

. معلومات المرور: مثل البيانات التى تتيح تتبع بيانات حركة السيارات وتداولها، والتى يمكن استثمارها فى الخروج بمؤشرات مهمة عن الاقتصاد المصرى ككل.

إن غياب معلومات من هذا النوع كان من أسباب ضعف صناعة المحتوى المحلى سواء على الإنترنت أو لدى الشركات التى تقدم خدمات المعلومات والمحتوى خارج الإنترنت، وكان عاملا من العوامل التى أضعفت الطلب المحلى على تكنولوجيا المعلومات، وبروز ما يعرف بظاهرة الطلب الكامن على تكنولوجيا المعلومات، والتى تعنى وجود احتياجات حقيقية لدى أطراف كثيرة بالمجتمع للتحول نحو تكنولوجيا المعلومات، لكن أحدا لا يعى هذه الاحتياجات جيدا، فيحولها إلى طلب ظاهرى ويبادر إلى تحقيقها.





النظام ليس أجهزة وبرامج وآلات، ولكنه بيئة مفتوحة تتداول فيها المعلومات بحرية وشفافية، وتديرها عقول تدرك أهمية المعلومات وكيفية التعامل معها



ومن أخطر النتائج التى ترتبت على هذه النقطة أن الشركات المحلية الطامحة للتصدير حرمت إلى حد كبير من فرصة الاستفادة بالسوق المحلية كحلبة اختبار وتميز لقدراتها قبل الخروج للأسواق الخارجية، فنتيجة لاعتقال مثل هذه المعلومات، وعدم القدرة على تحريرها وغياب الإحساس بأهمية تدويرها فى أشكال مناسبة من قوالب تكنولوجيا المعلومات المختلفة، لم تتوافر لهذه الشركات الفرصة لتصميم واختبار وتشغيل نظم معلومات مصرية قوية يعتمد عليها فى مجال المرور أو الجمارك أو الضرائب أو غيرها، يمكن الخروج بها للأسواق الخارجية كسابقة أعمال يستند إليها.

وأهمية ذلك تتمثل فى أن أى شركة تريد الترويج لمنتج أو برنامج فى الأسواق الخارجية للخارج تواجه عادة بأسئلة تمثل مفتاح الدخول إلى عالم التصدير، وهى : هل جرى استخدام وتشغيل هذا البرنامج عمليا فى بيئة العمل الطبيعية؟ وماذا حقق من نتائج عند استخدامه؟ هل أحدث توفيرا فى الوقت؟ ما مدى التحسين الذى أحدثه فى كفاءة أداء الأعمال؟ هل هو برنامج يعتمد عليه فعلا؟ بعبارة أخرى : ما هى سابقة أعمال هذا البرنامج؟

فى هذه الحالة .. إذا لم يكن لدى الشركة المنتجة للبرنامج سابقة أعمال فعلية، فعليها الرحيل من السوق التى تحاول دخولها، أو مواجهة مصاعب فى التسويق لا قبل لها بها، سواء من حيث التكلفة أو الوقت، لأن السوق الخارجية لم تعد مكانا سهلا أو مفتوحا، فالفرص تضيق بسرعة والمنافسون يتزايدون، وانتهى . تقريبا . زمن اختبار البرامج الجديدة لأول مرة فى أسواق التصدير العالمية، خاصة إذا كانت هذه البرامج من إنتاج شركات تنتمى لبلد من بلدان العالم الثالث كمصر، ومن ثم لم يعد هناك مجال تنشىء فيه شركات تكنولوجيا المعلومات المصرية سابقة أعمالها وسجل نجاح تطبيقاتها ونظمها سوى السوق المحلية، والتفوق فيها حتى على المنافسين العالميين الموجودين محليا، والمشكلة أن القيود المفروضة على تدفق المعلومات تعد من الأسباب التى تعوق هذا الاتجاه.

ولذلك فإن هذه الأمثلة السابقة من المعلومات، وغيرها الكثير، يجب أن تتوافر يوميا بالجودة المناسبة وبالشكل المترابط أمام من يطلبها ويحتاجها من المستثمرين وأصحاب الشركات والقائمين على صنع القرار الاقتصادى، سواء فى الجهاز الحكومى أو القطاع الخاص، وقبل كل شىء أمام صناعة تكنولوجيا المعلومات، ومن الطبيعى أن يتم توفير هذه المعلومات على مراحل فى ظل إطار متكامل ينشط صناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ليس بهدف خدمة الحكومة ولكن بهدف خدمة الدولة، والدولة تتكون من الحكومة والقطاع الخاص معا، وتحويل المعلومات إلى إنتاجية، وهى مهمة القطاع الخاص مما يتطلب أن تتحول هذه البحور من المعلومات إلى نظم متكاملة، تهدف أولا إلى خدمة القطاع الخاص، والذى سيتيح تمويلا للخزينة العامة للدولة عندما ترتفع إنتاجيته، وقد اتبعت الدول المتقدمة الأسلوب التالى لكى تضمن وصول هذه المعلومات إلى مستخدميها وذلك من خلال:

. بناء قواعد البيانات الأساسية (البيانات الخام) فى الجهات الحكومية.

. إعطاء تراخيص استخدام لشركات قطاع خاص متخصصة ذات خبرة، لكى تتصل بهذه القواعد الأساسية، وتحصل منها على بيانات خام.

. تقوم هذه الشركات المتخصصة بمعالجة البيانات الخام، وتحويلها إلى معلومات ذات قيمة اقتصادية حقيقية، وتوفرها للشركات التى تطلبها بمقابل زهيد، سواء بالاتصال المباشر أو فى شكل تقارير دورية وما شابه.

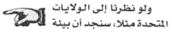
. بناء على رد فعل واحتياجات السوق من معلومات يتم تعديل وتحديث قواعد البيانات الأساسية.



هذه الأساليب كانت الأساس فى بناء بيئة معلومات حرة سهلة التداول وتتسم بالشفافية، وهذه البيئة قدمت لصناعة تكنولوجيا المعلومات فائدتين، الأولى: أنها شكلت لها مصدرا للاستثمار والعمل والنمو والتطوير وفتح آفاق جديدة للعمل أمام الشركات والمؤسسات العاملة فى قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

والثانية: أنها مهدت الطريق أمام هذا القطاع لكى يكتسب كل يوم أرضية جديدة وأهمية أعلى داخل منظومة المجتمع الإدارية والاجتماعية والحياتية.

ولو نظرنا إلى الولايات المتحدة مثلا، سنجد أن بيئة



المعلومات المفتوحة حرة التداول، وفرت فرص عمل لما يقرب من عشرة ملايين شخص، حسب تقدير الدكتور الحفناوى ، يعملون يوميا فى جمع وتحليل ونشر هذه النوعية من المعلومات، التى تمثل عين وأذن هذا الاقتصاد، ويحكم هذه العلاقة تشريعيا مجموعة من القوانين أهمها قانون حرية المعلومات أو Freedom Of Information Act (FOIA)، وهذا القانون تتبعه جميع الدول المتحضرة، ومصر فى أمس الحاجة لقانون مماثل، حيث إن ٩٠٪ من المعلومات تملكها الدولة.

قراءات معلوماتية

أغلب الأحاديث التى تدور بمصر حاليا حول أوضاع الصحافة والإعلام والنشر، تنصب فى غالبيتها الساحقة على الأبعاد الأخلاقية وميثاق الشرف الصحفى وحدود النقد و الأبعاد القانونية كالحبس فى قضايا النشر وحرية الصحافة والقيود المفروضة على النشر وإصدار الصحف والأبعاد الاقتصادية والمالية للصحف، ووسط الصخب لم يحظ هذا (الهم الوطنى) (بالقراءة المعلوماتية) التى يستحقها والاهتمام بما يكفى بقضية حرية تداول المعلومات وتأثيرها على ما يجرى بالصحافة، والمفارقة أن هذه القراءة غابت على الرغم من أن الصحيفة أو المجلة هى فى التحليل الأخير قناة لتوصيل وجبة (معلومات) إلى الناس لكى يستخدموها فى تكوين رأى أو اتخاذ موقف، ومن هنا يصبح من الخطأ أن نناقش قضايا الصحافة والنشر ونهمل معاناة الصحافة من (الشح المعلوماتى) الذى يجعل ما تقدمه من معلومات دقيقة وكاملة وحديثة فى توقيتها المناسب ضئيلا جدا أمام ما تضخه من معالجات قشرية وسطحية واستنتاجات وشائعات وتخمينات شخصية لعشرات من القضايا والهموم الوطنية فائقة الأهمية، وهو وضع غير مقبول لأنه يفقد بعض الأطراف القدرة على شن هجمات سليمة تحظى بالاحترام، ويفقد أطرافا أخرى القدرة على الرد بدفاع إيجابى فعال.

وحينما ننظر (بعين معلوماتية) إلى الكثير مما يكتب أو ينشر حول القضايا الساخنة الجارية سنكتشف على الفور الحضور القوى لظاهرة الغياب القوى لحرية تداول المعلومات، وخذ مثلا ما ينشر حول المقابلات والمباحثات بين كبار المسئولين وضيوفهم وستجدها تتحدث عن بحث العلاقات الثنائية وتطابق وجهات النظر بين البلدين، ولا أحد يعرف ما هى القضايا التى بحثت فى العلاقات الثنائية هل هى تجارية أم صناعية أم سياسية، وما الذى تم بحثه وما هى وجهات النظر التى تطابقت .. لا معلومة!!

وفى صفقة عمر افندى تعرض المجتمع لحالة استقطاب حادة بين من شنوا الهجوم الصارخ على الصفقة ومن دافعوا عنها باستماتة، وبسبب غياب المعلومات الأولية والبيانات الصحيحة تقاتل الطرفان ولا يزالان دون أن يتمكن أى منهما من حسم موقف الرأى العام لصالحه، فالمدافعون وأصحاب القضية بدوا كما لو أنهم لا يملكون معلومات حاسمة متكاملة عن الصفقة، وهناك عشرات الأدلة على ذلك لعل أبسطها

لنا أن نتصور حجم فرص العمل، والبرامج المطلوبة لتنفيذ مشروع ميكنة وفهرسة جميع اتفاقيات التبادل التجارى بين مصر والعالم منذ الخمسينيات وحتى الآن



وأكثرها وضوحا ما تكشف من معلومات فجأة عن أن نسبة من محلات عمر افندى مملوكة للأوقاف وأن هذا يشكل عائقا قانونيا واجرائيا امام الصفقة، وظهر المدافعون عن الصفقة فى موقف (رد الفعل) حال نشر هذه المعلومات على الناس، مما يدل على أنهم (فوجئوا بها)، أما المعترضون فلم يتمكنوا من توفير بيانات ومعلومات تقنع النيابة العامة بإيقافها أو بدحض موقف أنصار الصفقة، وقد انعكس الفقر المعلوماتى حول الصفقة على الصحافة، فحرمت هى الأخرى مما تستحقه من معلومات عن الصفقة، وفى ظل هذا الحرمان تعرضت للاستقطاب من الفريقين وبدت غير قادرة على قيادة الرأى العام صوب موقف محدد.



ولو عدنا بالذاكرة للوراء قليلا سنجد أن هناك العديد من القضايا المماثلة التى إذا ما قرأناها معلوماتيا سنصطدم بحالة (فقر المعلومات) التى تعيشها الصحافة، ففى قضية المبيدات الزراعية لم تكن هناك آلية تكفل للصحافة الوصول إلى الوثائق الحقيقية المتعلقة بالقضية من داخل وزارة الزراعة وأجهزة الدولة الأخرى، فلم ينشر مثلا نص قرار إلغاء لجنة المبيدات ولا حيثيات صدوره لأنها ببساطة كانت معلومة محجوبة عن النشر، ولم تتح للصحافة معرفة الأعداد الدقيقة والحقيقية للمبيدات التى دخلت البلاد بصورة مخالفة ومتى، وأسماء من وقعوا على أمر استيرادها، ولم تظهر وثائق أو معلومات ترسم خريطة واضحة لمسار هذه المبيدات منذ لحظة خروجها من الموانئ وحتى رشها فى الأرض، و من الذين تداولوها وما المحاصيل التى استخدمت فيها ومتى، والمواقع الجغرافية التى وصلتها ونسب الاستخدام فى كل منطقة وكم شخصا تعامل معها، ونسب بقاياها فى التربة والمحاصيل والخضروات والفاكهة، ولو كانت هناك آليات تضمن حق الصحافة فى الحصول على هذه المعلومات فى التوقيت المناسب لاستطاعت الصحف أن تقوم بدورها فى بداية الأزمة وليس بعد مرور حوالى ست سنوات على ارتكاب هذا الخطأ .

ولم تكن قضية خطف واغتيال السفير المصرى ببغداد أحسن حالا من قضية المبيدات، وفى اعتقادى أن جزءا كبيرا من المأزق الذى واجهته وزارة الخارجية فى علاقتها مع الرأى العام آنذاك كان يعود إلى أن الخارجية لم توفر منذ البداية معلومات كاملة للناس عن السفير ومهمته عند اتخاذ قرار بإيفاده إلى العراق، فقد ذهب السفير للعراق والناس لا تعرف توقيت سفره ولا المستوى الذى يمثله ولم تتمكن الصحافة من الحصول على هذه المعلومات ونشرها على الناس فى موعدها، ولذلك وقعت الخارجية فى مرمى العديد من السهام الجارحة، فغياب معلومة مستوى التمثيل جعل الجميع يرجع الاغتيال إلى رفع الخارجية لمستوى التمثيل إلى درجة السفير، فاضطرت الخارجية للإفراج عن وثائق نشرتها صحيفة الأخبار بعد اغتياله بعدة أيام، أكدت إنه ذهب رئيسا لبعثة وليس سفيرا، وغياب المعلومة الخاصة بتوقيت وصوله لبغداد سلط على رقبة الخارجية اتهاما آخر بأنها دفعت بالسفير إلى هناك بناء على تعليمات من وزيرة الخارجية الأمريكية خلال زيارتها القصيرة للقاهرة فى وقت سابق على الاغتيال، فى حين أن الرجل كان يعمل ببغداد قبل مجىء السفيرة بأسابيع، وهكذا دفعت الخارجية . ومصر كلها . ثمن عدم توافر المعلومات فى توقيتها المناسب.

ولو دققنا النظر فى الغالبية الساحقة من القضايا الملتهبة التى أثارت جدلا أو قادت بعض الزملاء للوقوف أمام المحاكم سنجد أن حالة (شح المعلومات) المتداولة مجتمعيا وصحفيا ضالعة فى ذلك، لأن شح المعلومات هيأ الظروف لشيوع الاستنتاجات والانطباعات والنميمة والمحتوى السماعى غير الموثق داخل الصحافة بما فيه من تجاوزات وتهور بدلا من المنطق المستند إلى معلومات ترسم حقائق الواقع بصدق وجرأة واحترام، وأزعم أن مثل هذا المناخ افرز حالة من الضبابية وعدم الوضوح لا تفيد أحدا، فهو من ناحية يحرم الصحافة من ممارسة النقد والهجوم على الأوضاع الخاطئة بالطريقة الصحيحة الواجبة المحترمة، ومن ناحية أخرى يحرم من تعرض للنقد من أن يدافع عن نفسه بطريقة صحيحة، بعبارة أخرى يلحق الضرر بالطرفين فلا يكون الهجوم إيجابيا ولا الدفاع ناجعا.

وهنا قد يثور تساؤل: ما سبب حالة الفقر المعلوماتى التى تعيشها الصحافة؟

هناك عشرات الاسباب التى يمكن أن نسوقها فى هذا الصدد، منها على سبيل المثال أن لدينا إرثا بيروقراطيا وقانونيا رسخ بالمجتمع ثقافة مضادة لحرية تداول المعلومات، ليس فقط صحفيا وإعلاميا ولكن بين الإدارات المختلفة داخل الوزارة الواحدة وربما بين الأشخاص داخل الإدارة الواحدة، فمثلا هناك المادة العاشرة من القرار الجمهورى رقم ٢٩١٥ لسنة ١٩٦٤ التى تنص على انه لا يجوز لأية وزارة أو هيئة أو جهة أو

فرد أو أفراد بالحكومة والقطاع العام أو الخاص أن ينشر بأى وسيلة من وسائل النشر أو الإعلام أى مطبوعات أو نتائج أو بيانات أو معلومات إلا من واقع إحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، والإحصاءات غير المقررة ضمن برامج الجهاز لا يجوز نشرها إلا بموافقة الجهاز، وعلى الرغم من أن هذه المادة تعتبر شبه ميتة الآن إلا أنها واحد من الأسباب التى لعبت خلال العقود الماضية دورا فى ترسيخ الثقافة المضادة لحرية تداول المعلومات.

من هذه الأسباب أيضا أنه ليس لدينا حتى الآن تحديد واضح للمعلومات المسموح بنشرها والإطلاع عليها والمعلومات المطلوب الحفاظ على سريتها، والحاصل أنه باسم الدواعى الأمنية والمصلحة العامة تعتقل جميع المعلومات ويحرم الصحفيون. ومعهم الناس. من حقهم الأصيل فى الحصول عليها .

يمكننا أن نضيف إلى ذلك أن القدر الاكبر من المعلومات المهمة والحيوية للصحافة لا يزال بأيدى فئة من الموظفين والمسئولين المنتشرين فى شتى المؤسسات والهيئات العامة والخاصة، يتعاملون مع المعلومات بمنطق الاعتقال، لأنهم نشأوا ومارسوا حياتهم الوظيفية وفق قاعدة الحجب التلقائى للمعلومات فى أكوام الورق والمستندات وأرتال الملفات، ولم يسمعوا بعد بالتغييرات الهائلة فى مجال الحريات السياسية وحقوق الإنسان عالميا ومحليا، وان سمعوا لا يتقبلون وان تقبلوا فعلى مضض وبروح متربصة بالجديد وتواقة للقديم، ولم يعد هناك مفر سوى التعامل معهم بقوة القانون.

وخلاصة القراءة (المعلوماتية) لهذه القضية أنه إذا ظلت المعلومات معتقلة ومحجوبة فلن تكون هناك صحافة حرة مسئولة تمارس دورها برشد وفعالية، وسيظل المجتمع بأسره عرضة من وقت لآخر لموجات من الاحتقان والاستقطاب الحاد صحفيا وإعلاميا.

الحل .. قانون لحرية المعلومات

إذن نحن واقعيا إزاء حالة حجب للبيانات والمعلومات أو عدم الاكتراث بها داخل المجتمع ككل، بما فى ذلك مجتمع تكنولوجيا المعلومات نفسه، ويبدو أن ثقافتنا الحالية. كما يقول الدكتور الحفناوى. تمنع نشر المعلومات لسببين:

الأول: الخوف من أن تستخدم المعلومات التى يتم توفيرها من قبل الضرائب، وعليه فيجب أن يصدر قانون ينص صراحة على أنه لا يجوز لمصلحة الضرائب أن تستفيد من المعلومات الموجودة بقواعد البيانات، دون أن تقوم بالحصول عليها بنفسها بشكل مباشر.

والثانى: أن معظم الموظفين فى جميع الدرجات يعمدون إلى إخفاء المعلومات اعتقادا منهم أنها مصدر القوة، وإنهم إذا ما أعطوا المعلومة فقدوا سر قوتهم، ولذلك يجب أن يحدث تغيير تشريعى يجرم من يخفى المعلومة غير السرية، أو غير المحمية لأسباب أمنية، أسوة بما هو معمول به فى الخارج، كما يجب العمل على تغيير هذه النظرة، حتى يقتنع الجميع أن قوة المعلومة فى توافرها وليس فى حجبها داخل الأدراج.

والوضع السابق يجعلنا نطالب بضرورة إصدار قانون يضمن حرية تداول وتبادل المعلومات، بين مراكز وأطراف ووحدات الجهاز الإدارى والاقتصادى والخدمى للدولة سواء حكومة أو قطاعا خاصا، بما يوفر للمواطن والمستثمر وصاحب القرار دعما قويا، من خلال المعلومة الصحيحة فى الوقت المناسب، ويضفى على الاقتصاد المصرى قدرا من الشفافية والوضوح، وينفض عنه غبار سنين طويلة من نقص المعلومات وعدم دقتها، ويؤهله للتعامل بكفاءة مع التغييرات الاقتصادية العميقة التى يمر بها الاقتصاد العالمى حاليا، والذى يتحول بسرعة إلى اقتصاد المعلومات أو الاقتصاد الشبكى، وبما يهىء بيئة مناسبة تساعد فى دفع مشروع النهوض بتكنولوجيا المعلومات للأمام، من خلال فتح فرص للاستثمار، وتقوية أوضاع هذه الصناعة داخل المجتمع والدولة.

ولابد أن تمتد قوة هذا القانون فى تحرير المعلومات لتشمل المعلومات الموجودة لدى الحكومة وما يتبعها من هيئات وشركات ووزارات وخلافه، ولا يكون مقصورا فقط على القطاع الخاص والاستثمارى، لأن الجهات الحكومية هى المالكة للغالبية الساحقة من المعلومات والبيانات المتوافرة فى البلاد، وفى المقابل على القانون أن يضمن الحماية الكاملة للمعلومات التى لا يصح تداولها، فتحرير المعلومات لا يعنى ترك المعلومات بجميع أشكالها متاحة لأى شخص من أى جهة، فالمعلومات المتعلقة بالأمن والأمور العسكرية وغيرها من المجالات ذات الحساسية، لابد أن تظل محمية تماما ولا يتم تداولها إلا بمعرفة الجهات المختصة فقط، فليس بمقدور أحد ولا من حقه أن يطالب بحرية تداول المعلومات التى ترى الأجهزة المختصة بالدولة أنها تتعلق بالأمن القومى أو تدخل فى عداد أسرار الدولة .. لكن نحن نطالب بتحرير المعلومات التى تدخل فى (نطاق المعلومات العام) وبات ينظر إليها كحق من حقوق الإنسان. ■



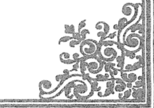
العرب والفلسفة الأوروبية

عبدالرحمن بدوى

دور العرب فى تكوين الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى دور مزدوج: دور الرسول الحامل لهم رسالة اليونان فى الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنتج. فعن طريق العرب عرفت أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر مؤلفات أرسطو وقطعًا من فلسفة أفلوطين وأبرقلس، ومعالم من فلاسفة أفلاطون. إذ قام المترجمون فى طليطلة وفى صقلية، وهم الذين تحدثنا عن نشاطهم فى مستهل هذا البحث، بترجمة كتاب «البرهان» من منطق أرسطو أعنى «التحليلات الثانية»، و«السماء والعالم»، و«الكون والفساد» و«السماع الطبيعى» و«الآثار العلوية»، كما ترجموا كتاب «الخير المحض» المنسوب إلى أرسطو، وهو فى الحقيقة فصول منتزعة من «إلهيات» أبرقلس.

وعن هذا الطريق عرفت أوروبا أرسطو وأبرقلس، فكان لهما أثر هائل فى إخصاب الفكر الأوروبى الذى سرعان ما خضع لفلسفة أرسطو خضوعًا تامًا.

وأعمق من هذا أثرًا بكثير، أثر الفلاسفة العرب أنفسهم فى أوروبا لما أن ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة الناشئة. وترجم يوحنا الإسبانى «منطق» ابن سينا، وترجم جنديسالفى (غنصالبه) بمساعدة يوحنا الإسبانى قسم «الطبيعيات» من كتاب «الشفاء» وقسم «النفس» و«الإلهيات» من «الشفاء» لابن سينا أيضًا، كما ترجموا «مقاصد الفلاسفة» للغزالى. ومن ناحية أخرى ترجم جيرردو الكريمونى جملة رسائل للكندى، فيلسوف العرب، منها رسالة فى العقل ورسالة الجواهر الخمسة، كما ترجم . فيما يبدو . رسالة «فى العقل» للفارابى.





عـــرب الـــرمـــوز!

وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق، مشروع جدا لأنه أكثر ما يميز الجنس البشرى عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز البشرية



محمـــود الـــذوادى

تقول نظرية الرموز البشرية عندنا إن الإنسان كائن رموزى بشرى بالطبع قبل أن يكون اجتماعيا بالطبع. أى أن جوهر الإنسان المميز له عن بقية الكائنات يتمثل فى مجموعة من الرموز البشرية (اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/ العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية...) أى أن منظومة الرموز البشرية تحتل المركزية الأولى فى هوية الإنسان. ومن ثم أكدنا على أن أى تحليل لمفهوم الطبيعة البشرية يجب أن تحتل فيه الرموز البشرية مكان الصدارة. أو ليس الإنسان كائنا رموزيا بشريا بالطبع؟ (الذوادى ٢٠٠٥ أ: ٥٥ . ٦٦).

تستند مقولتنا هذه على ملاحظات رئيسية حول خمسة معالم ينفرد بها الجنس البشرى عن غيره من الأجناس الحية الأخرى:

١ . يتصف النمو الجسمى (البيولوجى الفيزيولوجى) لأفراد الجنس البشرى ببطء شديد مقارنة بسرعة النمو الجسدى الذى نجده عند بقية الكائنات.

٢ . يتمتع أفراد الجنس البشرى بأمد حياة (سن) أطول من عمر معظم أفراد الأجناس الأخرى.

٣ . ينفرد الجنس البشرى بلعب دور السيادة/ الخلافة فى هذا العالم/ الكون بدون منافسة حقيقية له من طرف باقى الأجناس الأخرى.

٤ . يتميَّز الجنس البشرى بطريقة فاصلة وحاسمة عن الأجناس الأخرى بمنظومة ما أطلقنا عليه سابقا فى السطور الأولى أعلاه مصطلح الرموز البشرية: اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والدين والمعرفة/ العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية...

٥ . يختص أفراد الجنس البشرى بهوية مزدوجة تتكوَّن من الجانب الجسدى/ البيولوجى الفيزيولوجى، من ناحية، والجانب الرموزى البشرى (المشار إليه أعلاه فى ٤)، من ناحية ثانية. والسؤال البحثى المشروع بهذا الصدد هو: هل من علاقة بين تلك المعالم الخمسة التى يتميَّز بها الإنسان؟

هناك علاقة مباشرة بين المعلمين ١ و ٢ . إذ إن النمو الجسمى البطىء عند أفراد الجنس البشرى يؤدى بالضرورة إلى حاجتهم إلى معدل سن أطول يمكنهم من تحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة والمتعددة المستويات.

أما الهوية المزدوجة التى يتصف بها الإنسان فإنها أيضا ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدى (المعلم١) للإنسان، من جهة، والعنصر الرموزى البشرى (المعلم ٤)، من جهة أخرى.

القول بأن الغزو اللغوى الثقافى هو أخطر أنواع الغزو جميعا ليس بالقول الأيديولوجى بل هو قول ذو مصداقية علمية عالية من وجهة نظريتنا للرموز البشرية التى تؤكد على مركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان



أما سيادة الجنس البشرى فهى ذات علاقة قوية ومباشرة بالمعلمين ٤ و ٥: الهوية المزدوجة والرموز البشرية. والعنصر المشترك بين هذين المعلمين هو منظومة الرموز البشرية.

وهكذا يتجلى الدور المركزى والحاسم لمنظومة الرموز البشرية فى تمكين الإنسان وحده من السيادة / الخلافة فى هذا العالم/ الكون.

ومن ناحية أخرى، فقد كاتبنا المجلة الأمريكية Scientific American سائلين عن تفسير علمى لسبب بطء النمو الجسدى عند بنى البشر. لاذ المسئولون فى المجلة بالصمت لما يقرب من السنة. وعندما أتانا الرد فى ١٩ أكتوبر ٢٠٠٥ كان خاليا من الإجابة على سؤالنا.

إذ اكتفت مراسلتهم الإلكترونية بالنصيحة التالية: الرجاء تصفح المواقع الإلكترونية لعلم الأنثروبولوجيا لعلك تعثر على إجابة لسؤالكم. وفى غياب معلومات علمية حول الموضوع من هذه المجلة الأمريكية المشهورة رأينا طرح فرضيتنا للتفسير:

إن الرموز البشرية تسمح بتفسير المعلمين ١ و ٢ فالنمو الجسمى البطىء عند الإنسان يمكن إرجاعه إلى كون أن عملية النمو عنده تشمل جبهتين: الجبهة الجسمية والجبهة الرموزية البشرية. وهذا خلافا للنمو الجسدى السريع عند الكائنات الأخرى بسبب فقدانها لمنظومة الرموز البشرية بمعناها البشرى الواسع والمعقد. وهذا يعنى أن نمو الكائن البشرى على مستويين يؤدى إلى بطء عملية النمو ككل عنده: أى على الجبهتين.

وهناك مشروعية لوصف هذا الإطار التحليلى للرموز البشرية بأنه عبارة عن نظرية لأن النظرية هى ذلك الإطار الفكرى الذى يفسر عددا من الظواهر المختلفة، وهذا ما تقوم به نظرية الرموز البشرية عندنا. فالمعالم ١، ٢، ٣ و ٥ المميزة للإنسان فى الرسم هى حصيلة لمركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان.

ومن هنا تأتى مصداقية استعمال الرموز البشرية لبناء نظرية لفهم وتفسير طبيعة الإنسان وسلوكات الناس وشئون مجتمعاتهم كما سوف نرى فى تفسير عدة ظواهر اجتماعية ومجتمعية وحضارية مثل ظاهرة الأمة العربية وحوار الحضارات ومسألة العلاقة المتوترة بين كندا وكيباك، من ناحية، وبين قسمى المجتمع البلجيكى: المنطقة الفلونية Wallonie الناطقة بالفرنسية ونظيرتها الفلمندية الناطقة باللغة الفلمندية، من ناحية أخرى (International 2006 Courrier).

إن مركزية الرموز البشرية فى هوية الإنسان كما تتجلى فى الرسم أدت عندنا إلى بروز مفهوم جديد نسميه البيولوجيا الرموزية Symbolicbiology أى أن الرموز البشرية تؤثر فى هندسة جسد الإنسان من حيث بطء نموه وطول أمد حياته. إنه مفهوم معاكس لمفهوم السوسيوبيولوجيا Sociobiology الذى يرى أنه يمكن تفسير الكثير من السلوكات الاجتماعية والثقافية البشرية انطلاقا من معطيات بيولوجيا الإنسان (Wilson ١٩٧٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدارس الفكرية والنظريات المعاصرة فى العلوم الاجتماعية لا تبنى، كما نفعل نحن، الرموز البشرية كمركز ثقل أول فى تشكيل هوية الإنسان وسلوكاته وحركة المجتمعات والحضارات الإنسانية. ينطبق هذا على الماركسية والبنوية والتحليل النفسى والسلوكية Behaviorism وغيرها من نظريات ومدارس العلوم الاجتماعية.

الجوانب المتعالية للرموز البشرية وثورة الاتصالات

وبالتعمق فى محاولة فهم طبيعة الرموز البشرية تتجلى عدة معالم إضافية أخرى حولها:

أ. ليس للرموز البشرية وزن أو حجم بالمعنى المادى للأشياء. أى أن هذه الرموز البشرية ليست ذات طبيعة مادية بل طبيعة غير مادية/ روحية/ متعالية transcendental. وبعبارة أخرى، يتمثل جوهر الإنسان وأعز ما يملكه فى هذا النوع من الرموز البشرية المتعالية (الذوادى ٢٠٠٥ ب: ١٢٠٨). ويتفق هذا كثيرا مع رؤى الديانات والحكماء والفلاسفة على مر العصور. فالقرآن مثلا يؤكد فى آياته المتعددة على أهمية أولوية تبنى الإنسان للرموز البشرية من تعلم القراءة والغوص فى العلم وكسب رهان التفكير الدائم والاتصاف بالقيم النبيلة مثل العدل والخلق الفاضل (وإنك لعلى خلق عظيم)... إذ الرموز البشرية فى المنظور القرآنى وفى الرؤية الموضوعية التحليلية، كما رأينا فى الرسم، هى بيت القصيد فى هوية الإنسان. فبها وحدها جاء تشريف الجنس البشرى بالقيادة والسيادة والخلافة فى هذا العالم/ الكون.

ب. أما على مستوى توظيف مفهوم خلو الرموز البشرية من عاملى الوزن والحجم فى فهم سرعة ثورة الاتصالات فى عصر العولمة، فنكتفى بذكر بعض الأمثلة: فلماذا تصل الرسائل والوثائق المرسلة بالفاكس وبالإنترنت بسرعة كبيرة مقارنة بالقيام بنفس المراسلة بالبريد العادى أو حتى السريع؟ يمكن تفسير ذلك بكل بساطة فى أن المراسلة بالفاكس والإنترنت تلغى عاملى الوزن والحجم للشىء المرسل. وهذا يعنى أن هذا النوع من المراسلة يحرر الشىء المرسل من معطياته المادية (الوزن والحجم) فيعيده إلى طبيعته الأولى والمتمثلة فى أن ليس للرموز البشرية وزن وحجم. وبالغياب المطلق أصلا لهذين العنصرين فى كل مكونات منظومة الرموز البشرية تتأهل هذه الأخيرة بكل مشروعية للتنقل بسرعة فائقة وعجيبة تشبه ما يروى عن السرعة المدهشة لتنقل الكائنات الروحية والميتافيزيقية. وهذا ما يفسر أيضا مدى شدة سرعة تنقل الكلمة عبر الصوت. فأصبحت مضربا للأمثال. فتطير طائرة الكونكورد بسرعة كبيرة تقترب من سرعة الصوت. وترجع هذه السرعة الخاطفة لكون أن الكلمة المنقولة عبر الصوت فى النداء البسيط على مسافة قريبة بين الأفراد أو أثناء تهاتفهم على مسافات بعيدة بالهواتف الجوالة/ المحمولة أو القارة/ المنزلية هى كلمة ليس لها فى الأصل لا وزن ولا حجم. وبالتالى فهى طليقة سريعة بطبيعتها لا يعرقل تنقلها السريع الوزن والحجم، هذان العنصران الماديان.

اللغة ونشأة الثقافة

عند التساؤل عن أهم عنصر فى منظومة الرموز البشرية/ الثقافة يقف وراء ميلاد هذه المنظومة المميزة للجنس البشرى، فإن اللغة البشرية المكتوبة والمنطوقة تكون هى وحدها المؤهلة لبروز ظاهرة الرموز البشرية/ الثقافة. فلا يمكن تخيل وجود بقية عناصر الرموز البشرية كالدين والعلم والفكر بدون حضور اللغة البشرية المنطوقة والمكتوبة. ومن ثم جاءت مشروعية اعتبارنا أن اللغة هى أم الرموز البشرية جميعا. ونظرا لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة فى نشأة منظومة الرموز البشرية أو الثقافة بتعبير علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع على الخصوص، فإن وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق وصف مشروع جدا لأن أكثر ما يميز الجنس البشرى عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز البشرية/ الثقافة هى اللغة المنطوقة والمكتوبة.

ورغم مركزية اللغة فى هوية الإنسان وبالتالى فى بروز ظاهرة الرموز البشرية/ الثقافة فى المجموعات والمجتمعات البشرية، فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة فى العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة لا يذكر اللغة كعنصر مركزى وأساسى للثقافة. فقد عرف عالم الأنثروبولوجيا البريطانى إدوارد برنارد تيلر (١٨٧١) الثقافة Culture بأنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقليد وأى مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع. يتمثل قصور هذا التعريف الكلاسيكى للثقافة فى كونه لا يشير إلى اللغة ولا يعطيها الصدارة فى مكونات منظومة الثقافة أو الرموز البشرية والحال أن اللغة هى منشئة ظاهرة الثقافة نفسها كما بينا. أى أن العلاقة علاقة عضوية جدا بين اللغة وثقافتها. ومن ثم يتضح قصور تعريف مفهوم الثقافة الذى لا يتضمن بكل وضوح صدارة اللغة فى تعريف مفهوم الثقافة البشرية (١٩٧٣ White).

يتبين مما سبق أن نظريتنا للثقافة/ الرموز البشرية ترتكز على أن الثقافة هى ذلك الجانب غير البيولوجى الفيزيولوجى لهوية الإنسان المزدوجة (الرموز البشرية والجسم) كما يبين الرسم فى هذه المقالة. وأن جانب الرموز البشرية/ الثقافة هو بيت القصيد فى هوية الكائن البشرى. أى أن تفوق هذا الأخير على بقية الكائنات الحية الأخرى وسيادته عليها يأتى من الجانب غير المادى فى هويته المزدوجة. أى من الرموز البشرية/ الثقافة. وأن اللغة المنطوقة والمكتوبة هى مصدر تميز الجنس البشرى عن سواه بمنظومة الثقافة. ومن ثم، فالإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب كما قال قدماء الفلاسفة بل هو أيضا كائن رموزى/ ثقافى بالطبع. وبعبارة أخرى، فتميز الكائن البشرى عن سواه من الكائنات الأخرى بالقدرة على استعمال اللغة فى شكليها المنطوق والمكتوب أهله بطريقة لا خيار له فيها لكى يكون وحده مخلوقا رموزيا/ ثقافيا بالطبع. وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول بأن علاقة الارتباط correlation قوية جدا بين اللغة المنطوقة والمكتوبة عند بنى البشر، من جهة، وحضور ظاهرة الثقافة فى المجتمعات الإنسانية، من جهة ثانية.

ونظرا لمركزية منظومة الثقافة/ الرموز البشرية فى صلب هويات الأفراد والجماعات



عـــرب الـرمـــوز!



اللغة المنطوقة والمكتوبة هى مصدر تميز الجنس البشرى عن سواه. ومن ثم، فالإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب بل هو كائن رموزى/ ثقافى بالطبع



والمجتمعات الإنسانية، فإنه من المناسب استعمال نظرية الرموز البشرية فى فهم وتحليل العديد من الظواهر والقضايا فى أو بين المجتمعات والأمم والشعوب والحضارات البشرية. نقتصر هنا على تحليل أربعة أمثلة ميدانية نبرز فيها مساهمة نظرية الرموز البشرية فى الفهم والتفسير لها. نود هنا إلقاء الضوء، من ناحية، على ظاهرة الأمة العربية وأزمتى كندا وبلجيكا. ومن ناحية ثانية، نتطرق إلى قضيتين مرتبطتين أكثر بعصر العولمة الذى نعيش فيه. تتمثل القضيتان فى حوار الحضارات وخاصة بين الغرب والإسلام ثم خطر الغزو اللغوى الثقافى الغربى (والأمريكى على الخصوص) على بقية شعوب العالم.

ظاهرة الأمة العربية:

لقد كتب الكثير عن العالم العربى كمجموعة من الأقطار المستقلة عن بعضها البعض فى العصر الحديث. فهى، من ناحية، مختلفة على أكثر من صعيد. فعلى مستوى تعرضها للهيمنة الاستعمارية الغربية، فمعظم المجتمعات العربية بالمشرق العربى وقع احتلالها من طرف الاستعمار البريطانى بينما استعمرت فرنسا بلدان المغرب العربى: الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا. أما اختلاف الأقطار العربية على مستوى نظام الحكم فحدث ولا حرج. فهناك أنظمة الحكم الملوكية والأميرية والسلطانية والجمهورية العسكرية. وينقسم الوطن العربى إلى مجتمعات غنية بسبب الثروة النفطية وأخرى فقيرة أو متوسطة الدخل.

ومن ناحية أخرى، فالمجتمعات العربية متجانسة على مستوى المنظومة الثقافية/ الرموز البشرية. فاللغة العربية هى اللغة الرسمية لكل هاته المجتمعات وهى أيضا المصدر الرئيسى للهجات العربية العامية بحيث تجعل التواصل بين مواطنى الشعوب العربية أمرا سهلا. أما دين أغلبية سكان العالم العربى فهو الإسلام. يرى المختصون فى العلوم الاجتماعية الحديثة أن عاملى اللغة والدين هما أكثر العوامل الرموزية البشرية/ الثقافية (Cultural Markers) المحددة للهوية الثقافية للشعوب (Kivisto 2002 :١٤). وبالتالى فثقافة الوطن العربى هى ثقافة إسلامية عربية توحد بين الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط. أى أن الرموز البشرية التى تشترك فيها المجتمعات العربية تؤسس بينها تلقائيا وحدة ثقافية قوية سابقة للوحدة السياسية الهشة التى طالما نادى وينادى بها العرب الوحدويون فى العصر الحديث. فالوطن العربى له بهذا الاعتبار أهم العوامل التى تؤهله ليكون أمة بأتم معنى الكلمة. فاشتراك مجتمعات عديدة فى لغة واحدة عامل حاسم فى تكوين أمة منها فى رأى الباحثين فى شئون الأمم والشعوب (بركات ٢٠٠٠ : ٦٥.٩٦). ويأتى اشتراك أغلبية سكان الأقطار العربية فى الدين الإسلامى ليعزز، من جهة، حقيقة وجود أمة عربية إسلامية فى الفضاء الجغرافى بين الخليج والمحيط. ومن جهة أخرى، يزيد الاشتراك فى اللغة العربية بين الشعوب العربية فى قوة التضامن بين المجتمعات العربية المكونة لهذه الأمة. فالملاحظات المتكررة تفيد أن الأغلبية الساحقة من المواطنين العرب المسلمين يظهرون بطريقة عفوية اللاشعورية تعاطفا أكبر مع الشعب الفلسطينى المكافح مقارنة بتعاطفهم مع الشعوب المسلمة المكافحة فى البوسنة والهرسك وفى الشيشان وفى الفلبين.

فالتحليل السوسيولوجى لهذه الظاهرة يشير إلى مدى أهمية دور اشتراك الناس فى لغة واحدة فى زيادة درجة التعاطف بينهم. وبالتعبير الخلدونى، فعاملا اللغة والدين هما أقوى عناصر منظومة الرموز البشرية فى تشكيل صلابة العصبية/ التضامن بين بنى البشر. فالأمة العربية هى، من جهة، نتيجة لاشتراك معظم مواطنيها فى اللغة العربية والعقيدة الإسلامية. ومن جهة ثانية، فإن مصدر تضامنها على مر العصور يأتى فى المقام الأول من اشتراك شعوبها فى منظومة رموز بشرية واحدة تتصدرها اللغة العربية والدين الإسلامى.

ومن هذا المنظور، فالأمة العربية هى أمة منظومة ثقافية أو رموز بشرية مشتركة. والرموز البشرية بطبيعتها، كما بينا، ليست عناصر مادية ذات وزن وحجم. فتأثيرها فى التعاطف والتضامن بين الناس لا يأبه كثيرا بالعراقيل المادية التى قد توجد بين هؤلاء مثل الحدود الجغرافية والسياسية بين الأقطار. إن الرموز البشرية قادرة على تجاوز عوائق المعطيات المادية الفاصلة بين الشعوب وتمكين هذه الأخيرة من التواصل والتضامن كأن شيئا لم يكن من العراقيل المادية.

ولا بد من التذكير المشروع بهذا الصدد أن الرموز البشرية تتصف بمدى بقاء/ حياة طويلة قد تصل إلى الخلود. فانتشار اللغة العربية والعقيدة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا فيما يسمى اليوم بالعالم العربى مثالان على تأهل الرموز البشرية للبقاء الطويل الذى يقاس بالقرون وآلاف السنين. ومن ثم فالتضامن العربى ثقافيا تضامن طويل النفس عبر العصور قد يصل إلى أبد الآبدين باعتبار صعوبة تخيل زوال اللغة العربية لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس داخل العالم العربى وخارجه (الباقورى ١٩٨٧). ومن ثم فإن هذا التضامن الرموزى البشرى/ الثقافى بين الشعوب العربية مؤهل للاستمرار إلى مالا نهاية. فهو تضامن يختلف عن تحالفات الشعوب اقتصاديا وسياسيا وعسكريا التى طالما تكون تحالفات ظرفية قصيرة العمر.

رموز كيباك وبلجيكا

تمثل كيباك إحدى المقاطعات العشر التى تكون كندا، هذا البلد المترامى الأطراف فى شمال القارة الأمريكية. إن نظام الحكم السياسى الفيدرالى هو الذى يربط المقاطعات العشر ويجعلها تنتمى رسميا إلى وطن واحد هو كندا. لكن كيباك وبقية المقاطعات الكندية لا تكادان تكونان أمة لأنهما لا تتكلمان لغة واحدة ولا تدينان بدين واحد. إذ اللغة الفرنسية هى لغة أغلبية سكان مقاطعة كيباك، بينما اللغة الإنجليزية هى لغة معظم سكان المقاطعات الكندية التسع الأخرى. ومن ناحية أخرى، فأغلبية مواطنى كيباك يدينون بالديانة المسيحية الكاثوليكية، بينما تعتنق أغلبية سكان بقية المقاطعات الديانة المسيحية البروتستانتية. ومن ثم، فمن الصعب اعتبار كندا أمة، لفقدان توفر الاشتراك فى لغة واحدة على الخصوص بين كل سكان المجتمع الكندى.

إن هذا الاختلاف فى أهم عنصرين للرموز البشرية (اللغة والدين) بين كيباك وبقية المقاطعات الكندية الإنجليزية يفسر حالة التوتر السائدة بين كيباك والسلطة الفيدرالية منذ عقود أدت بالحزب الانفصالى بكيباك Le parti québécois للقيام بأكثر من استفتاء قصد الحصول على انفصال كيباك عن كندا أو تمتع كيباك فى الفيدرالية الكندية بصفة المجتمع الخاص Une société distincte داخل المجتمع الكندى الكبير.

وعلى مستوى آخر، اهتم الباحثون الاجتماعيون بدراسة ظاهرة العزلتين Les deux solitudes فى مقاطعة كيباك وخاصة فى مدينة مونتريال التى يسكنها ثمانون فى المائة من أهل كيباك الناطقين بالفرنسية وعشرون فى المائة من الكنديين الناطقين بالإنجليزية. فالمجموعتان لا تقرآن نفس الصحف ولا تستمعان إلى نفس الإذاعات المحلية والوطنية ولا تشاهدان نفس المحطات التليفزيونية ولا تذهبان عموما إلى نفس المطاعم. وبعبارة أخرى، فتكلم كل مجموعة للغتها جعلهما فى حالة عزلة عن بعضهما البعض رغم تواجدهما فى نفس الحى أو حتى فى نفس العمارة. وذلك هو المعنى السوسيولوجى لمفهوم العزلتين فى المجتمع الكيباكى الحديث (Porter 1967 , Rocher 1990).

ويتشابه الوضع فى بلجيكا مع نظيره فى كندا بسبب وجود لغتين رئيسيتين فى المجتمع البلجيكى الذى يتكون من مجموعتين رئيسيتين هما الفلمنديون Les Flamands والفلونيون Les Wallons... يتجاوز سكان منطقة فلندريا أكثر من ٦ ملايين بينما لا يبلغ عدد سكان منطقة فالونيا ٤ ملايين. تتحدث المجموعة الأولى اللغة الفلمندية وتتكلم الثانية اللغة الفرنسية. أدى ويؤدى هذا الاختلاف فى اللغة على

الخصوص إلى توتر بين الطرفين قد يضع حدا لبلجيكا كما نعرفها اليوم فتقيم كل مجموعة دولة خاصة بها. فالانتخابات البلدية في أكتوبر ٢٠٠٦ والتشريعية في ربيع ٢٠٠٧ ينتظر منها أن تزيد في درجة التوتر بين الطرفين. فالأمر أكثر صخبا في فلندريا التي ينادي فيها أكثر فأكثر حزب اليمين المتطرف بالحصول على الحكم الذاتي أو حتى على الاستقلال الذي يهدد وحدة المملكة البلجيكية التي كانت دائما وحدة هشة (Courrier International , No ٨٢٩ , ٢٠٠٦ . ٥٤). وكما رأينا في تحليلنا لعدم تأهل كيباك كندا لصفة الأمة بسبب فقدان عامل اللغة المشتركة بينهما، فإنه لا يجوز أيضا إطلاق كلمة/ مصطلح الأمة على المملكة البلجيكية.

العولمة اللغوية

في بداية القرن الحادي والعشرين كثرت البرامج الإذاعية والتليفزيونية والمقالات الصحفية والمؤلفات المتنوعة حول مخاطر العولمة والعولمة اللغوية الثقافية على الخصوص. فنظرية الرموز البشرية لا تتفق فقط مع مقولة أخطار العولمة اللغوية الثقافة بل هي تقول إن هذا النوع من العولمة هو أخطر أصناف العولمة جميعا.

لماذا؟ لأن العولمة اللغوية الثقافية تمس منظومة الرموز البشرية للشعوب والمجتمعات. والرموز البشرية، كما رأينا، هي بيت القصيد في تشكيل هويات الأفراد والمجتمعات. أي أن انتشار لغات أجنبية ومنظوماتها الرموزية البشرية في مجتمعات أخرى بدرجة تسمح لها بمنافسة أو إقصاء اللغات والمنظومات الرموزية البشرية لتلك المجتمعات يمثل تهديدًا لأهم وأعز الموارد والعناصر (الرموز البشرية) التي تكون هويات الأفراد والمجتمعات وشخصياتها القاعدية. ومن ثم، فالقول بأن الغزو اللغوي الثقافي هو أخطر أنواع الغزو جميعا ليس بالقول الأيديولوجي بل هو قول ذو مصداقية علمية عالية من وجهة نظريتنا للرموز البشرية التي تؤكد على مركزية الرموز البشرية في هوية الإنسان، كما يبين الرسم أعلاه. فرياح العولمة الكاسحة في مطلع القرن الحادي والعشرين فتحت بالتأكيد الباب على مصراعيه لصراع اللغات والثقافات ليس بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية فحسب بل بين المجتمعات المتقدمة نفسها متمثلا ذلك في صدارة هيمنة العولمة اللغوية الثقافية الأمريكية اليوم على شعوب العالم في الجنوب والشمال (Calvet ١٩٨٧).

حوار الحضارات

تساعد نظرية الرموز البشرية على فهم موضوع حوار الحضارات الذي تكتب حوله منذ نهاية القرن الماضي مقالات وكتب كثيرة ويقام عديد من الندوات في أماكن مختلفة من العالم. يصعب الحديث عن نجاح مشروع حوار الحضارات بدون حوار ثقافات المتحاورين. إذ الثقافة/ الرموز البشرية تمثل مركزية هوية الإنسان والمجتمعات البشرية، كما رأينا في الرسم السالف الذكر. وبما أن اللغات هي المصدر الأول لنشأة الرموز البشرية/ المنظومة الثقافية لدى بني البشر، فإن تعلم الراغبين في الحوار لغات بعضهم البعض يعتبر تأشيرة عملية وفعلية لتسهيل الدخول في الحوار مع الآخرين. فمجتمعات الشمال والجنوب غير متساوية على مستوى انتشار لغات الطرف الآخر. فمن ناحية، تعرف بعض الفئات على الأقل من مجتمعات الجنوب معرفة معقولة لغات المجتمعات الغربية الاستعمارية والإمبريالية وفي طليعتها اللغة الإنجليزية والفرنسية. ومن ناحية أخرى ليس هناك حتى معرفة بسيطة منتشرة بين الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الغربية المتقدمة للغات مجتمعات العالم الثالث.



يصدق هذا التحليل على قضية حوار العالم الغربي مع العالم العربي الإسلامي.

فالدعوة على قدم وساق لصالح مثل ذلك الحوار خاصة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الخصوص. فالغرب، من وجهة نظريتنا للرموز البشرية، أقل تأهلا وجدية وحسن نية للدخول في حوار مع العالم العربي الإسلامي. فلا تعرف كل الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الغربية أي لغة من اللغات الرئيسية للعالم العربي الإسلامي وهي العربية والفارسية والتركية والأردية. ويساعد ذلك بالتأكيد على تفشي جهل عام بثقافات مجتمعات العالم العربي الإسلامي الأمر الذي لا يسمح بالتفاؤل إزاء النجاح الفعلي للمناداة بشعار حوار الحضارات. ولابد من التذكير بهذا الصدد أن المجتمع الأمريكي هو أكثر المجتمعات المتقدمة جهلا باللغات الأجنبية. ولعل ذلك يفسر مشروعية ميلاد مفهوم صراع الحضارات في الثقافة الأمريكية دون غيرها من الثقافات الغربية.

وفي المقابل فليس هناك جهل كبير لدى المجتمعات العربية الإسلامية بثقافات المجتمعات الغربية المتقدمة التي استعمرت العالم العربي الإسلامي أو لها أيضا علاقة قوية به بعد الاستقلال. لأن معرفة واستعمال اللغتين الإنجليزية والفرنسية يلقيان حضورا كبيرا بين النخب وبين الطبقات العليا والمتوسطة على الخصوص.

وهكذا، فنظرية الرموز البشرية تشير بكثير من الوضوح بأن هناك علاقة غير متكافئة بالنسبة للرغبة في حوار الحضارات بين العالم الغربي، من ناحية، والعالم العربي الإسلامي، من ناحية أخرى. فالرصيد المعرفي المهم لدى العالم العربي الإسلامي في لغات وثقافات العالم الغربي يؤهله أكثر من هذا الأخير للترحيب والدخول الفعلي والمتحمس في مشروع حوار الحضارات (الذوادي ٢٠٠٥ ج : ١٥.٨). ■

الهوامش والمراجع

• نستعمل في هذه المقالة مصطلح الرموز البشرية بدلا عن استعمالنا لمصطلح الرموز الثقافية في كتاباتنا السابقة. إذ يلغى الأول الغموض الذي قد نجده في الثاني في النعت (الثقافية) في مصطلح الرموز الثقافية. أي لماذا استعمال كلمة ثقافة دون غيرها؟

ومن ثم، رأينا ضرورة تبسيط المصطلح وإعطائه أكثر شفافية بتعويض النعت (الثقافية) بنعت (البشرية) ليصبح اسم المصطلح الجديد (الرموز البشرية). ويعني النعت (البشرية) بكل بساطة تلك الرموز التي يتميز بها الإنسان عن سواه من الكائنات. وهذه الرموز المميزة للجنس البشري هي باختصار: اللغة المنطوقة والمكتوبة والفكر والمعرفة/ العلم والدين والأساطير والقوانين والقيم والمعايير الثقافية ...

المراجع العربية

. الباقوري، أحمد حسن (١٩٨٧) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، القاهرة، دار المعارف.

. بركات، حليم (٢٠٠٠) المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

. الذوادي، محمود (٢٠٠٥ ج) «مصاعب الغرب في التأهل للحوار مع العالم الإسلامي» حوار العرب، مايو/ آيار.

. الذوادي، محمود (٢٠٠٥ أ) مقاربة عربية في مفهوم الطبيعة البشرية، الثقافة النفسية المتخصصة، العدد ٦٢، أبريل.

. الذوادي، محمود (٢٠٠٥ ب) في أبجدية الرموز الثقافية: من أجل فهم أدق للقضايا الهامة، الآداب، السنة ٥٣، حزيران/ يوليو.

المراجع الأجنبية

Calvet , L- J (1987) La guerre des langues et les politiques linguistiques , Paris , Payot .

- Courrier International (2006) : Dossier : Belgique : La fiévre flamande , No 829 , 21- 27 septembre , p.54-59 .

Kivisto , P (2002) Multiculturalism in a Global Society , Oxford , Blackwell Publishing

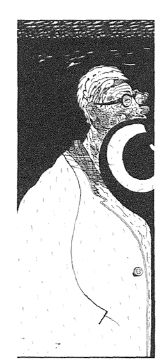
- Turner , J.H (2001) Handbook of Sociological Theory , New York ,Kluwer Academic / Plenum Publishers , pp.1-17.

White , L (1973) The Concept of Culture , Edina , MN , Alpha Editions .Porter , J (1967) ' Canadian Character in the Twentieth Century in the, Annals , March , p.49.

Rocher , G. (1990) ' Les deux solitudes chez les sociologies canadiens

محاضرة ألقيت في الذكرى الخامسة والعشرين لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا.

Wilson , E (1975) Sociobiology : The New Synthesis , Cambridge , MA , Harvard University Press .



عرب الرموز!



الأمة العربية هي أمة منظومة ثقافية أو رموز بشرية مشتركة. والرموز البشرية بطبيعتها، كما بينا، ليست عناصر مادية ذات وزن وحجم





© Chris Steele-Perkins (Magnum)

بلـــزاك العـــرب؟!

داليــا تــوفيــق سعـــودى

■■ حين نعت الأقلام العربية أباها نجيب محفوظ، تواتر فى غمار الحزن تعبير يصف الفقيد العظيم بأنه كان «بلزاك مصر والعرب». ويبدو أن بعض النعاة، حين أدركتهم لوعة الفقد واستحثتهم فضيلة العرفان، قد استعصت عليهم الكلمات التى من شأنها أن تشى بمبلغ الخسارة وتفى بملامح الجدارة. فما كان منهم إلا أن أعادوا تدوير ذلك اللقب الذى كان قد صكه نقاد غربيون عام ١٩٨٨، وهم يعرِّفون قرّاءَهم آنذاك بذلك الكاتب الوافد من بلاد الفراعنة والمآذن، الذى كان قد حصل لتوه على جائزة نوبل للآداب. فكان اللقب ذو الجرس الرنان: «بلزاك مصر» أو «Balzac of Egypt»[1]، وكأننا بصدد فيلم آخر من تلك الأفلام الهوليوودية باهظة التكاليف كثيرة الأغلاط.. وقتها كان مفهوماً - وإن لم يكن بالضرورة مقبولاً - أن تبحث الصحافة العالمية فى دعاياتها عن اسم ألفته آذان قرائها، لتصنع منه قريناً أدبياً، تقرب به صورة كاتب لم تكن أعماله قد حظيت بعد بالتفاتة كافية من قبل دور النشر الأجنبية. فلما تراءى «النوبلى» المصرى عملاقاً مؤصلاً لفن الرواية العربية، وبدا منجزه الأدبى مترامى الحدود متحد الممالك، والتمع سطح أعماله تحت ضياء واقعى يبرز حنايا مصر التاريخ والإنسان، هتفت أقلام من الغرب: «ذاك حتماً أنوريه دو بلزاك، أبو الرواية الفرنسية الحديثة، وصاحب»الملهاة الإنسانية» الخالدة(La comédie humaine)[2]، قد بُعث بعد قرن من الزمان،فى إهاب مصرى بسمرة النيل». وباطن القول الذى لم ندركه أن»هذه بضاعتنا ردت إلينا..». وفرحنا، نحن العرب، بتلك الشهادة «العالمية»، فوضعناها فى إطار أنيق وعلقناها فى صدارة المنزل. وحين رحل أديبنا الكبير، عدنا فاستعرضناها مجدداً ضمن شهادات «عالمية» أخرى، دون أن نمعن فيها النظر لنمحصها ونتساءل: أحقاً كان نجيب محفوظ بلزاك الرواية العربية؟ ومع افتراض حسن نوايا قد لا يتأتى بسهولة فى هذه الأيام، لنتساءل: هل يكرر تاريخ الأدب نفسه؟ هل من مساحات تداخل بين العبقريتين، أم أن تنافر السيرة والنهج والتوجه هو السمة التى تميز المقاربة والمقارنة إذا ما دُعى الرجلان للركوب معاً فى زورق واحد للعبور لشاطئ الخالدين؟



على لوحة الشرف الرخامية البيضاء الموجودة حتماً فى مكان ما من مملكة الأدب ستجد اسميهما وقد نقشا بمداد من نور: أونوريه دو بلزاك (١٧٩٩- ١٨٥٠) ونجيب محفوظ (١٩١١- ٢٠٠٦). كلاهما جاء فى أوانه من دون إبطاء. كلاهما مضى وحيداً فشق طريقاً واستعمر أرضاً كانت من قبله على مشارف الخلاء. كلاهما صنع سفينة وسط الصحراء، وقد أبصرا - كلٌ فى زمانه - أن الطوفان لا ريب آت، وأنه سيغرق الغافلين عن حركة الزمان، وأنه سيفرض على فلول الكلاسيكيين والرومانسيين الأخيرة انزواءً فاحتضاراً، وأنه سيأكل منسأة الشعر حتى يخر من فوق عرشه، وأنه سيجعل من غنائيات البراعة والبطولة هباءً منثوراً تذروه الرياح، وأنه سيفرض- بعد إقلاع السماء ومغيض الماء- صيغة تعبيرية جديدة تقول بما فى الأزمنة الحديثة من عامية وابتذالية ومادية وتعقد والتباس. فحيثما غاب الشعر، ساد النثر. ومن ضلع النثر خرجت الرواية.

لكن، دعونا لا نحمِّل الرواية خطيئة الطبيعة النثرية. فالرواية، المرتبطة أساساً ببلادة الحياة اليومية، والتى لا تنى تمزج فى غير اكتراث القبيح بالجميل، والدنىء بالنبيل، تلك المدعوة الرواية تتمتع بنوع خاص من الجمال لم يلتفت إليه القدماء، ألا وهو جمال تحليل المشاعر إلى مركباتها البسيطة وتجزئة الأحلام الإنسانية إلى دقائقها المتواضعة، وهو ما جعل منها الصيغة الأدبية الأقدر على التعبير عن «زخم المصالح وتعقدها، وتعددية المواقف والشخصيات والعلاقات فى الحياة، ورسم الخلفية الرحبة للعالم بأسره»،على حد ما كتبه هيجل فى «فلسفة الجمال».

لعله ذلك النوع من الحُسن الذى أغرى بلزاك بترك دراسة القانون، وحدا بمحفوظ إلى هجر دروب الفلسفة، استجابة لنداء غامض بالاستسلام والمهادنة لسطوة فن لم تكن ملامحه قد تخلقت بعد، وبالتالى ما كان ليحظى فى بواكيره بالاحترام الكامل. صحيح أن تجربة بلزاك الروائية قد سبقتها تجارب متفاوتة القيمة والأثر، وأن فن «القصة» ما قبل محفوظ قد شهد إسهامات كالشذرات. لكن صفة المؤسس قد ألصقت ببلزاك ومحفوظ، كلٍ فى سياقه وزمانه، لكون أعمالهما قد حققت السبق فى التبشير بالقيم الفنية الروائية الحديثة التى استندت إليها أجيال من الكتاب بعدهما، ولكونهما قد أوتيا من الشجاعة والتجرد ما جعلهما يبذلان حياتهما طواعية داخل محراب صاحبة الجمال الواعد: الرواية.

إن نظـــــرة عابرة على مستوى عنوان الرواية عند كل من بلزاك ومحفوظ لكفيلة بإظهار البون الشاسع بين المدرستين

ومثلما بدأ بلزاك رحلته بالرواية التاريخية مع رواية «الثوار الملكيين» عام ١٨٢٩ («LesChouans»)، جاءت بداية محفوظ الأدبية مع ثلاث روايات تبسط أحداثها فى أجواء الحضارة الفرعونية. كان لكل منهما مشروع لكتابة تاريخ بلاده كاملا فى سلسلة من الروايات. لكن بمثل ما كان الالتجاء إلى الإطار التاريخى فى الحالتين نتاجاً للرغبة فى تلمس أثر الزمن على وجه الوطن، اهتدى بلزاك ومحفوظ، عبر نفس الاستدلال المنطقى وذات الحس الفنى، إلى أن مادة الرواية الحقيقية الطازجة موجودة فى الواقع الاجتماعى المعاصر. فراح كل منهما يراقب العالم المحيط من مقهاه، وراح وجه الرواية البديع يلوح ويقترب كالبدر من وراء غيوم.

وبعد أن كانت قصص الأولين محض سرد بديع اللفظ رشيق العبارة، يسوق الأحداث الماضية كما تساق الملخصات المعنة فى التبسيط أو الذكريات المجردة من أية سماكة مادية، تحول قراء«الملهاة الإنسانية» و«الثلاثية» و«بداية ونهاية» و«زقاق المدق» و«القاهرة الجديدة» و«خان الخليلى» إلى جمهرة من المشاهدين تتخايل أمام أعينهم صور متحركة تكشف أحداث الحياة فى الزمن الحاضر، وتتقافز فيها شخوص منحوتة القسمات، قد اكتمل وصف أزيائها وأهوائها، وتم غرسها فى أمكنتها الصحيحة، بعناية فنية تفسح المجال لكتلة الحسى من التفاصيل، لتكشف ما فى باطنها من معان نفسية كامنة. صار بالإمكان أن تشم رائحة بنسيون مدام «فوكيه» العطنة وأنت تقرأ الفصول الأولى من رواية «الأب جوريو» لبلزاك، فتدرك ما يخفيه المكان من نفوس آسنة. أو أن تأتيك رائحة الكيروسين النفاذة من شعر حميدة فى «زقاق المدق» لتستشعر أن القمل الذى تحاول الشابة أن تطرده من شعرها الطويل الفاحم لن يلبث أن يتحول إلى وساوس تتزاحم على عقلها الذى يكاد يعصف به الطموح الساخط.

وبالطبع، تستتبع مثيلة تلك الطفرة الفنية ثورة كاملة فى علم الأسلوب، ثورة فجرها بلزاك فى عصره غير عابئ بوابل الحجارة التى انهالت على أم رأسه من كل حدب وصوب، وهى عينها الثورة التى أدارها محفوظ، بعد قرن من الزمان، بحكمته السمحة وابتسامته الأزلية. فكان أن أعيد بمقتضاها تعريف مفهوم الأسلوب، لتتميز وفقا له جماليات الكتابة الروائية عن زخارف النظم الشعرى، وليصبح الأسلوب الروائى مرادفاً لبناء العمل ككل، وما يتألف منه هذا البناء من طرائق سردية وأدوات تعبيرية تتغير من عمل لآخر، لتشكل فى انتظامها معاً فى كل مرة هيكلاً فنياً جديداً. بتعبير مجازى، صار لزاماً على الأسلوب الروائى أن يأخذ بتلابيب الحقيقة المتباعدة مثلما يقبض الشرطى على اللص الهارب تحت نباح الكلاب...

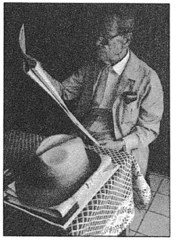
ولقد كتب محفوظ الرواية الواقعية فى وقت كان يُسمع فيه نعى المذهب الواقعى، وتستخدم فيه الرواية البلزاكية كفزاعة تمثل النموذج البالى للكتابة الإبداعية فى أعين أرباب تيار الرواية الجديدة. ففى الوقت الذى كان محفوظ ينجز فيه «الثلاثية»، كان على اطلاع بما راح يكتبه آلان روب جرييه منذ بداية الخمسينيات، وجمعه بعد ذلك فى مانيفستو «من أجل رواية جديدة»(Pour un nouveau

roman) ،مهاجما ذلك الراوى الذى يفرضه بلزاك على قرائه، و«الذى يعرف كل شىء عن أى شىء، وموجود فى كل مكان فى ذات الزمان، ويبادر بتقديم الأجوبة بدلا من طرح الأسئلة، وينخرط عبر وصلات وصفية لا تنتهى فى تقديم «نسخة طبق الأصل من الحياة». لكن محفوظ كان على إدراك باحتياج الرواية العربية إلى انطلاقة واقعية، وباحتياج القاهرة إلى ثلاثيتها.

والأهم هو أن محفوظ، على خلاف مُنظّرى الرواية الفرنسية الجديدة، كان يملك رؤية جلية لمفهوم تاريخ الفن. فلقد أدرك مبكراً أن فكرة الارتقاء والتطور التى قد تميز تاريخ العلوم لا تنطبق بنفس الصورة على تاريخ الأدب. فقد يأتى عالم بدواء ناجع لعلاج مرض ما، فيجىء بعده بعقود عالم آخر بدواء مطور ينتفى معه استخدام الدواء القديم. أما فى الفن، فإن مفهوم التاريخ لا علاقة له بالتطوير والتحسين والارتقاء، فطموح الروائى لا ينصب فى العمل على تجويد ما أنجزه أسلافه، وإنما مناطه بالأساس هو المضى فى مغامرة استكشافية، ليضيف المستكشف موقعا جديدا إلى خارطة طريق لاتنتفى منها المواقع المكتشفة سابقا، وليضىء فوق الرؤوس نجمٌ جديدٌ لا تنطفئ لبزوغه النجوم الأخريات. وحين تكون أول الواصلين إلى جزيرة مهجورة، حيث لا طريق ولا خارطة ولا نجوم هاديات، يصبح أول اهتماماتك إقامة حوائط واقعك المادى المحيط.

وذلك ما ارتآه محفوظ فى منظومة أعماله الواقعية التى لم تكن محض نقل حَرفى للطبيعة، وإنما تمثلت فى الالتفات إلى كافة عناصر الحضارة المادية مع توظيفها روائيا بصورة تربط المادى بالروحى، والجسدى بالنفسى، والاجتماعى بالشخصى، والعام بالخاص، فيما يكوِّن صيغة إبداعية تقدم للقارئ وهم الحقيقة وسرابها الأدبى. فبقدر ما قدمت الواقعية البلزاكية تفسيرا أرضى- أرض للمجتمع الإنسانى، اتسمت الرؤية المحفوظية - حتى فى أكثر حالاتها اقترابا من الأرض- بكونها معراجا فكريا وروحيا لأديب اعتاد فى طفولته الجلوس على سطح منزله لساعات، ليرقب مئذنة مسجد الحسين السامقة الشامخة وسط سماء قاهرة العشرينيات الجليلة، المتطلعة بنفاد صبر إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

فالطفل الصغير الذى كان يصحب أمه لزيارة الأهرامات والآثار الفرعونية، وانبهرت أنفاسه لحظة رأى مومياء الملك



المتغضنة فى نعشها الزجاجى، فأدرك حقيقة توأمة الخلود والموت على أرض مصر، ذلك الفتى الذى رأى حمرة النيل فى فيضانه، واخضرار ضفتيه فى زمن التحاريق، فعرف أن الحياة مواسم وأطوار، أقول ذلك الصبى الذى عشق أناشيد التكايا وأدارت رأسه القاهرة الفاطمية، قد أوتى من البصيرة والخيال ما أهله لتجاوز الواقع المادى، ولطرح أسئلة الوجود الكبرى منذ البداية، ولتلمس الإجابات فى ما يتيحه التجريب الفنى من تحولات تعبيرية.

وبمزيد من الوعى بملامح القلم النجيب، كتب ادوارد سعيد تحت عنوان«نجيب محفوظ وقسوة الذاكرة» فى دورية New York Review of Books، November ٢٠٠٠) ما ترجمته[٣]: «.. يمتلك محفوظ صوتا مميزا، صوتا يعكس تمكنا لغويا لافتا للنظر وإن كان يأبى أن يعلن عن وجوده. (..) و إضافة إلى ذلك، يملك محفوظ من الأسباب الفكرية والأدبية ما يمكنه من توصيل رؤاه بطريقة فريدة تخصه وحده، تجمع بين القوة والمباشرة وحدة الذهن. فعلى غرار شخوصه الذين يرد وصفهم ما إن يظهروا، حتى يهجم عليك محفوظ بلا روية ليغمرك فى فيض نهر سردى كثيف، ثم يتركك لتسبح فيه وحدك، ولكنه لا ينقطع طوال الوقت عن التحكم فيما حولك من تيارات ودوامات وأمواج تظهر لك مصائر أبطاله، وتاريخ مصر(..)، وعشرات التفاصيل المتعلقة بالأحزاب السياسية، وبأخبار العائلات، وهو يقوم بكل ذلك ببراعة متناهية. هل كان بذلك مصغيا لإملاءات الواقعية؟ نعم، هى الواقعية ولكنه أضاف إليها بعداً آخر: ألا وهو تصور يطمح لتقديم رؤية كونية شاملة ليست بعيدة الشبه عن تجربة دانتى فى الجمع ما بين الواقع الإنسانى والمطلق، لكن من دون الصبغ المسيحى الذى اعتمده شاعر فلورنسا».

ولكن.. أوَ ليس دانتى اليجييرى بالتحديد هو المصدر الذى استلهمه بلزاك، واستوحى من ملهاته الإلهية عنوانها وتقسيمها الثلاثى، وأظهره كشخصية بين أبطال رواية من رواياته[٤]؟

ذاك تلاقى الباحثين عن المدينة الفاضلة، وتلك مساحات تحاور التقت حولها خواطر نبيلة، شغلتها صفة الريادة، واستغرقتها هموم التأسيس، واستلهمت أصفى عيون تراث الأدب. فكان تلاقيها كتلاقى أولئك الملوك الثلاثة الذين اهتدوا قديما إلى أرض المهد باتباع نفس النجم رغم أن كلا منهم قد سلك طريقه الخاص.

لكنهم ما التقوا إلا لكى يفترقوا.

وما أشد ما تباعدت بهم طرائقهم...

عن الفن والأصل والصورة

فى دراسته النقدية الأخيرة «الستار»، (Le Rideau, Gallimard 2005)يحكى الروائى التشيكى ميلان كونديرا تجربة شخصية لا تخلو من الدلالات المفيد عرضها فى هذا المقام، لاسيما أن الحديث فيها لا ينأى عن بلزاك وعن مدى مقبولية فكرة إعادة تجربته الأدبية.

ففى أثناء زيارته الأولى لوطنه بعد انهيار النظام الشيوعى فيه عام ١٩٨٩، التقى كونديرا بصديق له بقى طوال الوقت فى العاصمة «براج» فكان شاهدا على كل ما مر بالبلاد من أحداث. قال الصديق: «لكم نحن اليوم فى حاجة إلى بلزاك جديد. فما تراه هنا اليوم هو وضع شبيه بذلك الذى وصفه صاحب «الملهاة الإنسانية»، من إعادة لإحياء مجتمع رأسمالى بكل ما يعتمل فيه من قسوة ومن غباء، وبكل ما يموج به من سوقية وتدنٍ مبعثهما تكاثر الأفاقين والنصابين ومحدثى النعمة. مجتمع حل فيه العبث الاقتصادى محل العبث الأيديولوجى. ونتجت عن تجاور التجربتين الشيوعية والرأسمالية فيه قصص تعيد إلى الأذهان أحداث روايات بلزاك بحذافيرها». وراح الصديق يحكى قصة مأساوية عما يكابده رجل شيوعى من جحود ابنتيه المتزوجتين من رجلين من أولى الطول فى مجتمع المال الجديد، بما يحاكى أحداث رواية «الأب جوريو» المثيرة للشجن. وبدلا من أن يعترى الصديقين شىء من التأثر لسماع أصداء تلك القصة الحزينة، راحا يضحكان طويلا...

ثم كان أن أخضع كونديرا ذلك الضحك إلى مصفاة عقله الناقد المتشكك أبدا.

فبدا له أن التاريخ يعيد نفسه. والإعادة تعنى بالضرورة افتقارا إلى الذكاء وانتفاء للأصالة وانعداما للذوق السليم. فكان ضحكه هو وصديقه تندرا بافتقار التاريخ لسلامة الذوق. وعاد كونديرا إلى أمنية صاحبه بأن تجد بلادهما بلزاكها الجديد. وخلص إلى أنه من المثير للسخرية أن يعيد أحدهم كتابة الملهاة الإنسانية. لأنه إذا كان بإمكان التاريخ البشرى أن يرتكب حماقة إعادة نفسه، فإن تاريخ الفن لا يتحمل آفة التكرار. فالفن لم يخلق لكى يسجل، كما المرآة العملاقة، كافة عوارض التاريخ وتقلباته وتفاصيل اجتراره لذاته. الفن، على حد تعبير كونديرا، « ليس جوقة موسيقية تصحب التاريخ فى ترحاله. إنما خلق الفن لكى يصنع تاريخه الخاص».

إن تكرار التجربة الفنية هو ذروة الافتعال وعلامة على غياب الصدق. والتكرار لا يغتفر إلا فى الفنون الهزلية الباعثة على الضحك مثل الكاريكاتير والتقليد الساخر (la parodie) والمحاكاة (le pastiche). ولا يذكر أحد أن اللجنة التى اختارت محفوظ لنيل جائزة نوبل قد ذكرت فى حيثياتها تمكن أديب مصر من فنون التقليد والهزل والفكاهة، أو ارتداء شخوص رواياته لأسمال المهرجين الزاهية الزاعقة الزائطة .



إن نظرة عابرة على مستوى عنوان الرواية عند كل من بلزاك ومحفوظ لكفيلة بإظهار البون الشاسع بين المدرستين. فعند بلزاك، ثمة دأب ملحوظ على انتقاء العناوين التى تدعى بعدا فلسفيا رمزيا، والتى تتضمن وعودا بأن تكون قراءة الرواية بمثابة تحليق فى أجواء تنبسط فيها أجنحة ذلك العنوان وتتنقل فيها عين الطائر فوق أراض شاسعة من المعانى الرحبة. غير أن عنوان الرواية البلزاكية لا يفى عادة بوعوده، وتحت اختبار القراءة، سرعان ما تتكسر أجنحة الطائر ليسقط من حالق فوق صخرة التفاصيل المادية الصرفة. فعلى سبيل المثال، تفضى قراءة روايات مثل «البحث عن المطلق» La recherché de l'absolu و«الأوهام الضائعة» (Les illusions perdues) و«بهاء وتعاسة الغانيات» Splendeurs et misères des)

كان بلزاك ضخما ومبالغا وهرقليا فى كل شىء. كان مفرط العبقرية، جامح الخيال، جاسر الطموح، متقد الموهبة، منهمر العطاء. إذ أنجز فى فترة لم تتعد تسعة عشر عاما إحدى وتسعين رواية



courtisanes) - على جودة محتواها الفنى - إلى تفسير يحصر تلك العناوين الكبيرة داخل إطار مادى ضيق، يقوم على تشيىء المعانى والأفكار، ولا أثر فيه من قريب أو بعيد لأية دلالة ترقى بالنص إلى شاعرية العنوان.

وعلى العكس يختار محفوظ عنوان روايته بشىء من التواضع الحكيم والسهولة المتنعة. فهو فى مجموعة أعماله الواقعية يميل إلى اختيار اسم حى شهير أو مكان معروف، حتى أن القارئ الغرير ليمر عليه فيحسبه عنوانا بريئا. فما إن يشرع فى القراءة حتى تنقشع عن العنوان صفته المألوفة، وتنجلى بمعان جديدة بعيدة مثلما ينجلى الليل بالإصباح. فعنوان مثل «بين القصرين»، الذى كان الاسم الأصلى للثلاثية فى التحامها قبل تقسيمها لأغراض تجارية، يفقد مع القراءة صفته كمدلول عن منطقة شعبية معروفة، ويتحول شيئا فشيئا إلى دالتين منفصلتين متصلتين: «بين» و«القصرين». لتكتشف مع نهاية الكتاب أن «بين القصرين» هى قصة مصر ما «بين الحربين العالميتين»، التى تحكى الصراع بين نزعتين (النزعة الأبوية المتسلطة الآفلة والنزعة الفردية المتحررة المتنامية)؛ وهى القصة التى تبسط ميدان البحث عن الحقيقة مابين قيمتين شامختين (العلم والإيمان). هكذا تسلمك الثنائية المكانية إلى ثنائية زمنية ومنها إلى ثنائية فى القوى فإلى ثنائية قيمية، فى تخفف واضح من المادى الذى يلوح به العنوان. وبانتهاء عملية القراءة، لو أطبقت جفنيك، واتبعت صوت محفوظ الهامس، سيتبدى لك القصران الحقيقيان. وصدقنى، لو أنك ارتقيت إلى أعلى شرفة فيهما، وألقيت بنفسك من عل، فلن تسقط صريعا من حالق، لأنك ستكتشف - ويا للعجب- أن قراءة النص المحفوظى قد أنبتت لك جناحين قويين، يأخذانك بخفة إلى «مملكة النور والعجائب».

خلاصة القول: الشاعرية فى روايات بلزاك تستمسك بجناحى إيكاروس، بينما الشاعرية المحفوظية طائر عنقاء ينبعث ناشرا جناحين عملاقين من تحت الرماد.

فلمَ الإصرار على إطلاق لقب «بلزاك العرب» على محفوظ؟

البعض يدرج الأمر فى إطار نزعة النرجسية العرقية التى قام عليها سلوك الغرب، الذى رأى فى ثقافته مرجعا سلطويا مقدسا، لا تملك إزاءه الشعوب النامية سوى المحاكاة الببغاوية والتقليد الأعمى. وهنا أيضا يحضرنا رأى الراحل ادوارد سعيد فى مقال مبكر له نشرت ترجمته عام ١٩٧٢ مجلة «مواقف» اللبنانية تحت عنوان «التمنع والتجنب والتعرف»، وفيه نواة لأهم الأفكار التى تناولها باستفاضة فى كتبه صاحب «الاستشراق» و«الثقافة والامبريالية». فى ذلك المقال، أوضح البروفسور سعيد استشراق الغرب للشرق، من خلال طبيعة عقل الرجل الأبيض الممحص الذى يحول كل ما هو غريب عن الغرب إلى صورة مستنسخة عن ذاته الغربية، صورة يتم التعامل معها سياسيا كمراهق تابع للوجود الأبوى الأقوى، وينظر إليها ثقافيا وسيكولوجيا كشريك أدنى لا يصح أن ينتج عنه إلا كل ما هو منقول وسطحى وغير أصيل. وهى فكرة نجد جذورها عند فلاسفة التاريخ فى القرن الثامن عشر مثل الايطالى چيانباتيستا فيكو والألمانى جوهان جوتفريد هيردير، اللذين ناديا بوصاية الثقافة الأوروبية على الشعوب البدائية لحين بلوغ تلك الشعوب سن الرشد، واستيفائها للشروط التى تؤهلها للحاق بركب الحضارة الذى كانت تقوده فى زمن ما أوروبا الاستعمارية وتمثله كنموذج عيارى.

فى ذلك السياق المنادى بأحادية الهوية، هناك إذن من يريد أن يكون بلزاك هو «الأصل» ومحفوظ «الصورة»، لأن هناك من يصر على تعميق فكرة التمييز الهيراركى بين «نحن» و«هم»، ثقافة أم وأطفال تحت التنشئة.

على كل حال، فلنتأمل معا كيف كان «الأصل» المزعوم...

تفكيك بلزاك

على الرغم مما قد يبدو فى هذا العنوان من تعد وتعسف، فلقد رأيناه الأنسب لمبحث نتعهد بالحفاظ على الموضوعية فى تناوله. ذلك أننا لسنا بصدد المفاضلة بين «محفوظنا» و«بلزاكهم»، فنحن قد تعهدنا ألا يدفعنا درء الهجوم الخفى إلى التردى فى أخطاء منهجية. إنما نسعى لاقتفاء مسيرة بلزاك من قريب، لنرى هل سيطل علينا محفوظ فى الطريق. ولقد رأينا إن فكرة التفكيك هى الأنسب لطبيعة متأصلة فى شخصية «نابليون الأدب الفرنسى»، تلك الشخصية المركبة، حمالة الأوجه، متعددة الإطلالات.

ففى بلزاك وجه للروائى المبدع، وآخر للكاتب المتعامل مع اللغة، وثالث للإنسان، ورابع للأسطورة. فتلك طبيعة تكوين تكرسها معظم الدراسات البيوجرافية المخصصة لبلزاك،وعززها هو نفسه فى كثير من المواضع،منها ما كتبه فى مقدمة نظرية الأقصوصة (Théorie du conte) واصفا «ذواته» قائلا: «بالأمس، ما إن عدت إلى دارى حتى رأيت عددا لا حصر له من الصور المستنسخة عن ذاتى، وقد تزاحمت فيما بينها كأنها أسماك رنجة مكدسة فى قاع برميل...»!

لكنه فى مواضع أخرى، يبين لنا أن تلك الصور المنعكسة عن ذاته ليست مكررة بل هى متنافرة متضادة فيما بينها. ففى خطاب أرسله لصديقته مدام دابرانتس كتب قائلا: «أحمل بين أضلعى كل ما يمكن أن تسعه النفس من تنافر وتناقض...».

بلزاك المبدع قوة من قوى الطبيعة الخارقة. فهو الأديب الذى رسم وجه الرواية الحديثة وقدم للمكتبة العالمية أضخم انجاز أدبى عرفته البشرية على الإطلاق. وهو واحد من أربعة أدباء فرنسيين اشتق من أسمائهم نعت محدد المعنى جرى تداوله لغويا بين الناس: فصفة «بلزاكى» تطلق على «كل ما يظهر نوعا من القوة العارمة، أو إسرافا فى بذل الطاقة، أو سلوكا يحكمه الإفراط والمبالغة»، بحسب تعريف الناقدة الفرنسية إيزابيل تورنييه فى مقدمتها للنسخة الالكترونية للأعمال الكاملة لبلزاك.

وبالفعل كان بلزاك ضخما ومبالغا وهرقليا فى كل شىء. كان مفرط العبقرية، جامح الخيال، جاسر الطموح، متقد الموهبة، منهمر العطاء. إذ أنجز فى فترة لم تتعد تسعة عشر عاما إحدى وتسعين رواية، معظمها من شوامخ الأدب العالمى، تكوّن فى مجملها فصول «الملهاة الإنسانية»، التى يظهر فيها ٢٥٠٤ شخصيات، من بينهم ٥٧٣ يعاودون الظهور فى أكثر من رواية، وفق مبادرة فنية غير مسبوقة، تجعل الشخوص يتجولون بين أروقة هذه الجدارية القصصية المدهشة كما يتجول الناس على مسرح الحياة الكبير.

فى «الملهاة الإنسانية» يقدم بلزاك بانوراما اجتماعية وسياسية وتاريخية وفلسفية للحياة فى فرنسا النصف الأول من القرن التاسع عشر، بانوراما قرر مبدعها ألا يغفل فيها عن «موقف من مواقف الحياة، ولا عن رسم شكلى أو نفسى لرجل أو امرأة، ولا عن أسلوب حياة ولا عن مهنة من المهن ولا عن وسط من أوساط المجتمع، ولا عن بقعة من أرض فرنسا، ولا عن مرحلة من حياة الإنسان سواء كانت الطفولة أو الشباب أو الشيخوخة، ولا عن ملمح فى السياسة أو القضاء». فيما وصف بأنه موسوعة أدبية تقدم شهادة على عصر ميلاد الرأسمالية وصعود الطبقة البرجوازية فى بلد انتهبته المصالح المادية، واندثرت فيه مشاعر الوطنية، وانعدم فيه الضمير، واتجهت فيه السلطة السياسية الى إعلاء شأن الانحطاط والمنحطين، وعادت فيه عبادة عجل الذهب، حتى علا خوار المال فيه على ما عداه من الأصوات، والتهمت فيه النزعة الفردية كل ما وجدته فى طريقها بما فى ذلك معنى الوطن. ذاك وجه بلزاك المبدع الذى اتخذت أعماله- إلى قيمتها الفنية والفكرية- قيمة توثيقية عميقة، تَنبه إلى أهميتها فيمن تنبه كارل ماركس وفريديريك إنجلز.

ولقد سقط بلزاك ميتا إثر تضخم فى القلب نجم عن إفراط فى السهر، وإفراط فى العمل، وإفراط فى السفر، وإفراط فى طول الأمل. كان يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم، راجيا من هدأة الليل إلهاما، ومن أقداح القهوة السوداء يقظة جبرية، أنقصت عمره أعواما وأعواما. وعلى فراش الموت راح بلزاك يصرخ: «أحضروا لى بيانشون، لن يقدر على مداواتى إلا الدكتور بيانشون»، وبيانشون هذا شخصية طبيب ابتدعها بلزاك فى رواياته، وأظهرها تحقق المعجزات الطبية فى أكثر من موضع من ملهاته. هكذا، سيطرت على المبدع هواجس الإبداع حتى أسلمته إلى هلاوس الموت.

وعلى القبر الواقع فى مدافن الأب لاشيز بباريس، وقف فيكتور هوجو فى ٢١ أغسطس ١٨٥٠ يتلو كلمة الوداع، فقال: «كانت كل كتبه فى واقع الأمر كتابا واحدا، كتابا مترعا بالحياة، فائضا بالنور، بالغا فى العمق، ترى فيه حضارتنا المعاصرة فى اكتمال ملامحها، فى رواحها وغدوها، تمشى هنا وهناك، وقد اعتراها فزع ورهبة، امتزجا بكل مظاهر الواقع. كان كتابا مذهلا، سمّاه صاحبه «ملهاة» وكان بوسعه أن يسميه «تاريخا»؛ وقد جرّب فيه كل الأشكال الفنية وكل الأساليب...».

رحل بلزاك فى الحادية والخمسين من عمره، وقد شارف على تحقيق حلم قديم راوده، وأخبر به معشوقته الأوكرانية مدام «أنسكا» فى خطاب وصلها فى بلادها المثلجة البعيدة، حلم لا يجد غضاضة فى استلهام

كنوز الشرق، إذ يقول صاحبه للحبيبة بنبرته الدائمة التفاخر فى حضرة النساء: «رواياتى ستكون ليالى ألف ليلة وليلة الغرب...».

هكذا يطل وجه الشرق القديم من وراء حجاب أبيض شفيف ليلعب من بعيد، فى خلفية اللاوعى المعتمة، دور ملهمة من ملهمات بلزاك، الذى سجل مرارا إعجابه بترجمة المستشرق أنطوان جالان لكتاب «ألف ليلة وليلة». فهل يصح أن ندعى أن حكايات شهرزاد كانت الأصل و«الملهاة الإنسانية» الصورة؟

أما بلزاك الكاتب فلقد واجه أسلوبه التعبيرى نقدا عنيفا لم يواجهه قلم قبله ولا بعده. كتب ماريو روك (Mario Roques) فى الذكرى المئوية لوفاة بلزاك آسفا: «كانت إدانة اللغة والأسلوب اللذين استخدمهما بلزاك من الأطروحات الأثيرة عند أقطاب الحركة النقدية فى عصره، ولقد لاحقته تلك الإدانة فى قبره، وراحت تنتقل من كتاب الى كتاب، حتى تحولت- رغم اعتراض أصوات عاقلة- إلى عقيدة راسخة فى تاريخنا الأدبى».

هنا كان الإفراط غلطة لا تغتفر. سواء تجلى ذلك الإفراط فى التعدى على قواعد اللغة الصارمة أو فى غزارة الإنتاج بوجه عام. فنظرا لأن بلزاك كان ينشر خمس أو ست روايات فى العام الواحد، فقد كان من الطبيعى أن يوصم إنتاجه بنقيصة الإهمال الأسلوبى. ولقد لاحقه الناقدُ الكبيرُ فى زمنه المسرف فى مقته «سانت بوف»، فأدرج رواياته فى إطار ما أسماه بـ «الأدب الصناعى» (La littérature industrielle). ذلك الأدب الاستهلاكى السهل الذى يظهر فى صورة روايات مسلسلة فى الصحف، ليقدم كماً بلا كيف، وإثارة بلا عمق، ولغة بلا جمال.

ولا يتسع المجال هنا لذكر كورال المقالات التى رددت أصداء تلك الفكرة الجائرة وتفننت فى تقديم تنويعات أكثر سخونة منها وأشد حدة، فلقد كان للرجل أعداء كثر. لكن المثير للتساؤل أن يعود نفس الاتهام بعد سنوات من رحيل بلزاك بأقلام عُرفت عنها الرصانة ورجاحة الرأى. من ذلك ما كتبه جوستاف فلوبير فى خطاب لصديقته لويز كوليه جاء فيه: «أى رجل كان سيصبح بلزاك لو أنه كان يعرف كيف يكتب! فهو لم يكن ينقصه إلا هذا! ولكن على كل حال، ما كان ليتأتى لكاتب متفنن انجاز مثل ذلك الكم، ولا لعالمه أن يبلغ مثل ذاك الاتساع». وهى ذات الجدلية التى أثارها فنان كبير بحجم أندريه جيد على صفحة من صفحات مذكراته حين كتب مستنكرا: «كيف يأبى البعض أن يفهم إن عيوب بلزاك كانت هى الأخرى سببا من أسباب عظمته، فلو أنه كان أكثر كمالا، لما صار ذلك العملاق...». أما الباحث الأبدى عن الزمن الضائع، مارسيل بروست، فلقد كتب فى دراسته النقدية المعنونة «ضد سانت بوف» (Contre Sainte-Beuve) ، حكما لا مرد له، يقول فيه: «فى أدب بلزاك، لا مجال للحديث عن شىء اسمه الأسلوب...».

كان قدرا محتوما على مؤسس الرواية الحديثة أن يرميه كل من جاء بعده بحجر، لأنه ببساطة كان أكبر من اللازم، فكانت أخطاؤه فوق الاحتمال؛ وكانت خطيئته الكبرى افتراش ظله للمدى، وملاحقة شبحه لكل الخطى. ولما كان هدمه مستحيلا والالتفاف حوله متعذرا، فلقد اتُفق على اعتباره حكّاء عظيما استعصى عليه فن الكتابة.



أما بلزاك الإنسان فلعله كان السبب وراء مأساة بلزاك المبدع والكاتب معا.

فالطفل الصغير الذى كان يقف فى حضرة أمه «كما العصفور المشلول أمام الأفعى»، والذى ظل، منذ كان طفلا رضيعا، منفيا نفيا تاما ما بين الحضانات والمدارس الداخلية إلى أن أصابه اعتلال الجسد وانهزام الروح، ذلك الصبى الذى ظل يكابد تضييق أبيه عليه فى النفقة وإمعان أقرانه فى إيذائه والسخرية منه، والذى أدرك قبل الأوان الأسباب المريبة لتفضيل أمه لأخيه الأصغر هنرى، أقول ذلك الصغير الغض قد شب فى عالم شديد القسوة، يموج بأخلاقيات التزاحم والتنافس والتكالب. وهو ككل الشخصيات الموغلة فى طموحها الوحشى، التى رسمها فى رواياته، قد أقسم على بلوغ المجد أيا كانت الوسيلة.

هنا، كان وراء الإفراط فى الطموح حرمان، وما اجتمع الحرمان والطموح إلا وكان ثالثهما التهافت. وهو هنا تهافت مسرف فى ماديته، شره فى أطماعه، عقيم فى ذات الوقت بفعل من الأقدار وتركيبة الظروف الاجتماعية المحيطة. وهو ذات التهافت الذى بثه بلزاك لاحقا فى الغالبية العظمى من شخوصه، حتى الشرفاء منهم وأصحاب الغايات المفترض أنها نبيلة، فبدت لوحته فى مجملها كأنها تموج بقطيع من الغيلان الهائجة الهادرة، التى خرجت وراء طرائدها البائسة، فى زمن انقراض الجنس البشرى.

«الوصول! الوصول بأى ثمن!» عبارة يطالعها الناظر إلى جبين «راستينياك»، البطل الذى منحه بلزاك صفاته النفسية، وأظهره فى خمسة وعشرين موضعا من روايات «الملهاة»، راصدا تحوله البطىء من شاب ريفى طاهر القلب نقى الطموح إلى وزير داهية ورجل ملوث. ولا عجب فى ذلك فأول دروس يتلقاها «راستينياك» جاءته على يد «فوتران»، المجرم الهارب من العدالة، الذى ينطق بكامل الأفكار البلزاكية ويلخص وفقا لها قواعد لعبة النجاح الاجتماعى. ففى رواية الأب جوريو، يقول فوتران (بلزاك الناضج) الى راستينياك (بلزاك الغر): «أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا؟ يشقونه ببريق العبقرية، أو بالمهارة فى الخسة. يجب أن تسقط فى صفوف البشر كقنبلة، أو أن تتسلل بينها كوباء، أما الشرف فلا فائدة فيه.(..)يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى، ولكن يجب أن تعرف كيف «تشطفها» بعد ذلك، ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا.(..)إذا كانت لى نصيحة أهديها إليك-أيها الملك-فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك على أقوالك، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له. والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائما فى طريق مستقيم، هو أبله يعتقد انه معصوم من الخطأ. ليست هناك مبادئ وإنما هناك أحداث، ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف والرجل الممتاز هو من يحتضنَ الأحداث والظروف لكى يسيِّرها».(٥)

كان بلزاك داروينياً قبل الداروينية، ميكيافيلليا إلى أبعد الحدود. وهو لم يكن يشير الى أدواء المجتمع الرأسمالى الجديد بترفع الحكيم العارف أو بتحصن المحلل الحذر الواعى، بل كان يركض مع الراكضين، ويتهافت مع المتهافتين، يرصد الصراع ويخوضه، ويحذر من لهيب الطمع وأصابعه به تحترق.

وفى هذا الإطار تبدى الأدب لصاحب «الملهاة الإنسانية» كمادة استعمالية. إذ لم يكن بلزاك ينتمى إلى تلك الفصيلة النادرة من الأدباء الذين ينظرون إلى الفن نظرة تقديسية مجردة من الأطماع والشهوات، فيهتمون بالعمل من دون الاهتمام بالثمرة، ويرون فى الكتابة معنى لوجودهم، ويجدون فيها إشباعا روحيا وتفتحا وجدانيا تهون معهما كل التضحيات(٦). كان بلزاك يضع على قدم المساواة النجاحات الدنيوية الشخصية والإبداعات الأدبية. فقبل عام واحد من وفاته، وهو مشرف على تحقيق حلمه الكبير بالزواج من مدام «أنسكا» التى يحبها منذ ستة عشر عاما، كتب بلزاك عنها لأخته تلك الكلمات: «انه لمدعاة للتفاخر فى باريس أن يفتح المرء صالون بيته ليجمع فيه صفوة المجتمع، فيجدون فيه امرأة لها مهابة الملكات، ذات أصل عريق، ومنسبة لأكبر العائلات، وهى إلى ذلك لبقة ومثقفة وحلوة. ولو أحسن المرء استغلال ذلك الوضع ففى وسعه أن يضمن وسيلة كبرى لتحقيق السيادة والهيمنة، (..) فبغض النظر عن ثروتها الطائلة، تجلب لى هذه الإنسانة معها أعظم المزايا الاجتماعية.(..) فإن لم أصبح عظيما بفضل «الملهاة الإنسانية»، فستجعلنى هذه الزيجة عظيما».

فكان الزواج بعد طول ممانعة من جانب العروس، لكن العريس لم يحقق ما كان يصبو إليه من سيادة اجتماعية، فقد رحل بعد ثلاثة أشهر من إتمام الزفاف.

فالتهافت أيضا يستمسك بأجنحة إيكاروس...

لم يكن بلزاك ينظر إلى الأدب كغاية وإنما كوسيلة، وسيلة بين الوسائل الممكنة لكسب المال وتحقيق نوع من النجاح الاجتماعى. لذلك لم يتردد فى طرق كل الوسائل الأخرى: فمن اشتغال بالصحافة إلى إنشاء مطبعة إلى شراء صحف إلى أطماع فى السياسة إلى تجارة وأعمال واستثمار (فلقد طمح أديبنا-عفوا أديبهم- أن يحقق أرباحا طائلة تارة بشراء مناجم فضة فى سردينيا، وتارة أخرى بزراعة مساحات ضخمة من الأناناس داخل صوبات فى منزله!). ولما كانت كل تلك المشاريع تبوء بالفشل الذريع، مخلفة وراءها ديونا جسيمة، فلقد كانت سببا مباشرا وراء انكفاء بلزاك الدائم على الكتابة، ليفى بمواعيد الطباعة وليقدم لناشره الرواية

لم يكن بلزاك ينتمى إلى تلك الفصيلة النادرة من الأدباء الذين ينظرون إلى الفن نظرة تقديسية مجردة من الأطماع والشهوات، فيهتمون بالعمل من دون الاهتمام بالثمرة، ويرون فى الكتابة معنى لوجودهم



الجديدة، التى عادة ما يكون قد قبض ثمنها مقدما وأنفقه كاملا قبل أن يبدأ الكتابة.

وفى كل ليلة، راح بلزاك الإنسان يقدم لبلزاك المبدع أقداح القهوة السوداء القاتلة، وسط أجواء فاوستية غائمة تجلجل فى خلفيتها ضحكات شيطان الأدب...

هل بدأت تستشعر فداحة أن يقرن اسم محفوظ ببلزاك؟ ليس بعد؟ فضلا تابع القراءة.

البرقوق والنبوت

يقول جوستاف فلوبير: «ينبغى على الأديب أن يقنع قارئيه بأنه لم يعش قط».

و هى عبارة تشير، على اقتضابها، إلى مبلغ الضرر الذى يقع على النص الأدبى حين تتسرب إلى أسماع القارئ أخبار الحياة الخاصة للكاتب. فتأمل معى ما يصيب تخيلك للشخصيات النسائية فى «البحث عن الزمن الضائع» حين تعرف أن بروست كان مثلياً، أو ما تؤول إليه آراء سانت بوف الوعظية حين تعلم أنه قد خان صديق عمره فيكتور هوجو واتخذ من مدام هوجو عشيقة. ثمة حاجة ملحة لأن تبقى تفاصيل حياة المبدع فى طى الكتمان، وأن يحتفظ القارئ إزاءها بشىء من الجهل الآمن، لكون الحقيقة تقتل الخيال.

لكن بلزاك، رغم تفرغه الدائم لمشروعه الأدبى الطموح، قد أقنع قارئيه بأنه قد عاش وعاش وعاش! ففى أويقات الراحة التى كان يخرج فيها إلى العالم، كان ينقض على الدنيا انقضاضا، تاركا مشاهد شطحاته نهبا لأعين المترصدين. فكان يأكل كما لا يأكل بشر، ويضحك بصبيانية وصخب، يستجدى الأنظار ويستخفه الإطراء، يثير الجلبة والجدل، وينخرط فى معارك هنا وصراعات هناك. وكان قد كون مع أصدقاء له فى ميدان الصحافة ما يشبه العصبة السرية، يرفعون بأقلامهم من يروق له فى السياسة والأدب وينحرون من يناوئه. فبعد وفاة بلزاك، أكد الأديب تيوفيل جوتييه والناقد ليون جوزلان-صديقا بلزاك المقربان- أنهما اشتركا مع بلزاك فى رابطة سرية أطلق عليها صاحب الملهاة اسم رابطة «الحصان الأحمر»، التى ضمت أكثر من خمسة عشر كاتبا وصحفيا، اتفقوا فيما بينهم على تكوين ما يشبه مجموعة ضغط، شعارها يشبه شعار الفرسان الثلاثة: «الجميع للواحد والواحد للجميع». وبحسب شهادة الصديقين، كان بلزاك هو أكثر من استفاد من دعم أفراد هذه الرابطة، إن فى الدفاع عن أعماله أو فى محاولة تقريبه من المناصب التى كان يطمح فى الوصول إليها، مثل مقعد الأكاديمية الفرنسية، ومنصب نائب فى البرلمان. وإن فشلت محاولاته فى تحقيق مآربه... فأى بون هائل يفصل بين حرافيش محفوظ وحرافيش بلزاك!

ولقد دأب بلزاك على أن يحدث الغرباء عن عظمته وعبقريته وألمعيته، مسرا للجميع بتفاصيل روايته القادمة، مفاخرا بالملايين التى ستدرها عليه مشاريعه الدون كيشوتية التى لا تنتهى، فى الوقت الذى كان يختبئ فيه لأسابيع تحت اسم مستعار لعجزه عن سداد إحدى الفواتير. أما أزياؤه الزاهية ذات الأزرار الذهبية، فكان يصنعها له أحد أشهر الخياطين فى مقابل أن يذكره صاحب «الملهاة» فى رواياته الواسعة الانتشار. وفى وقت كان بلزاك يعجز فيه عن تدبير ثمن القهوة والسكر، كان يقترض المال ليكسو حوائط بيته بالدانتيلا والحرير الفاخر، أو ليشبع ولعه الدائم بجمع التحف والقطع الأثرية التى ظهر فيما بعد أنها كانت- فى معظمها- زائفة مقلدة، لتكتمل بها سخرية القدر.

ومثل كرة الثلج التى تكبر وئيدا، رسم الخيال الجمعى الفرنسى لبلزاك وجها أسطوريا كبر مع الأيام. وجه قد تراه فى عجائب المقتنيات التى يزدحم بها متحفه، أو فى سيل الكتابات التى تناولت حياة الرجل بعد مماته، فحولته بشىء من الخيال الكاريكاتورى إلى مسخ فولكلورى، فيه من العبقرية ما فيه من غرابة الأطوار.

و فى متحفه الكائن فى ٤٧ شارع رينوار بباريس، سيطلعك المرشد على السرداب السحرى الذى كان بلزاك يستخدمه للهروب من المحضرين ومحصلى الديون. وسيخبرك أمين المتحف بابتسامة مستخفة بأن زوار بلزاك كان عليهم أن يقولوا كلمة السر المتفق عليها لكى يطمأن لهم ويسمح لهم بالدخول، فما إن كان الخادم يفتح الباب، كان على الزائر أن يقول متهلل الأسارير: «حان موسم البرقوق!».

وفى المتحف سترى أيضا عصا بلزاك ذات الرأس المصنوع من الذهب الخالص، والمرصع بحبات الفيروز الحر، التى كان يخبئ بداخلها صورة لمدام أنسكا وقصاصات شعر مهداة من المعجبات، تلك العصا السحرية التى كتبت عنها قصص وألهمت للبعض حكايات(٧)، والتى تشبه لضخامتها وغلظتها نبوت أحد الحرافيش العتاة، نبوت يعكس سطوة الفتونة الأدبية، ويردد عبر الزمان أسطورة التهافت والفناء.

و أمام اتساع ابتسامة الدليل المستخفة ستفهم أخيرا مغزى رأى بروست فى بلزاك حين قال عنه: «سيظل حبنا له ممزوجا بشىء من السخرية».. وهى سخرية تسرى فى النص الروائى الضخم سريان النار فى الهشيم، تطعن فى مصداقيته، وتنتشر بين سطوره المحكمة كالخلايا السرطانية المتكاثرة، وتحول ذواته المتضاربة إلى «أسماك رنجة متزاحمة ومتكدسة فى قاع برميل تعس. أسماك ما امتلأت بالحياة إلا لكى تتدافع وتتقاتل، ليبقى منها الأصلح وليزيدك مرآها أسفا على أسف.

نعم، سيبقى أدب بلزاك مفخرة الفرنسيين، وستبقى ملهاته الإنسانية أثرا خالدا يقف أمامه القارئ بكثير من الاحترام، وسيشهد قلمه المضىء عبر الزمان على مبلغ الظلم الذى وقع عليه من قبل كثير من النقاد، لكن هنا وهناك، فى طيات الصفحات، ومن بين الكلمات المصفوفة، ستجد دائما ذلك الطفل الكبير الصاخب يخرج لك من حيث لا تدرى، بثيابه الزاهية، وعصاه الذهبية، ونوادره وخوارقه وأطماعه الصغيرة البالية، ليشتت انتباهك ويفسد عليك شيئا من متعة القراءة.

ذلك مصير الأديب حين يدرك قراؤه أنه قد عاش.

ذاك مآله حين يخرج بطموحاته عن النص.



جلس نجيب محفوظ إلى مكتبه ليدون سيرته الذاتية. لكنه أطرق قليلا وأغضى بصره. ثم ترك القلم وبقيت الصفحة بيضاء...

وفى يوم آخر، عاد فأمسك بالقلم، وكتب هذه المرة فى «أصداء السيرة الذاتية»: « هنيئا لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران».

■ ■ ■

طوبى لمن عاش ليحكى..
لمن تواضع وترفع..
لمن عشق وتعفف..
لمن عرف واستغنى..
لمن ملك الحياة واختار الإرادة..
لمن شُغل بالوجد عن المجد..
وأتاه المجد فاستعذب الزهد..
لمن صان معنى «الخلافة»..
لمن لا يتجزأ..
لمن فهم «اقرأ»..
لمن بقيت صفحته بيضاء..
و خاض الحياة « ببراءة الأطفال وطموح الملائكة»..
لمن كانت كلمته نورا للإنسان..
لمن كانت كلمته نورا فى الميزان..
لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران..

■ ■ ■

«البوابة تناديه. تهمس فى قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فز بالنعيم والهدوء والطرب...» (الحرافيش، ص٢٠) ■

الهوامش

(١) ظهر لقب «بلزاك مصر»، أو «Balzac of Egypt»، أول ما ظهر فى مقال نشره الكاتب ويليام هونان «William H.Honan» بصحيفة «ذا نيويورك تايمز» فى عدد الرابع عشر من أكتوبر ١٩٨٨ تحت عنوان «Balzac of Egypt, Energy and Nuance» «بلزاك مصر، القوة والتفرد».

(٢) La comédie humaine, édition publiée sous la direction de P.G. Castex, Paris , Gallimard, NRF, coll."Bibliothèque de la Pléiade",1976-1981, 12 volumes.
كان أونوريه دو بلزاك قد اهتدى الى فكرة لم يسبقه إليها غيره من الأدباء، حين جمع رواياته عام ١٨٤٣ تحت عنوان واحد هو «الملهاة الإنسانية»، التى كان من المزمع أن تضم ١٣٧ رواية ومجموعة قصصية. أتم منها ٩١رواية، انتظمت جميعها داخل ذلك البناء الضخم وفقا لثلاثة أقسام كبرى هى:
- دراسات اجتماعية.
- دراسات فلسفية.
- دراسات تحليلية.

(٣) الاقتباسات من ترجمة الكاتبة، إلا أن يشار الى غير ذلك.

(٤) ظهر دانتى كواحد من شخصيات رواية «المبعدين» لبلزاك «Les proscrits»، (التى تدور أحداثها فى باريس عام ١٣٠٨ .

(٥) ترجمة هذه الفقرة للدكتور محمد مندور- «نماذج بشرية»، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٩٧، ص ١١٥-١١٦ .

(٦) كتب فلوبير الى صديقته لويز كولى بعد أن قرأ مراسلات بلزاك التى نشرت عام ١٨٧٦، معلنا عن أسفه العميق لما لمسه فى شخصية صاحب «الملهاة الإنسانية» من نواقص، ومن اهتمام مبتذل بالمال فكتب لها قائلا: «كم كان قليل الاكتراث بالفن،(..) كم كان ضيق الأفق(..)يحلم بمقعد فى البرلمان(..) و هو الى ذلك جاهل وريفى حتى النخاع، يبهره الترف...».

(٧) فى ١٨٣٦، كتبت دولفين دو جيراردان رواية بعنوان «عصا بلزاك»، تصورت فيها قدرات غير عادية لعصا أديبها المفضل، فهى عصا تتيح لحاملها القدرة على الاختفاء، والتسلل بخفة داخل العقول والقلوب.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

تاريخ الاستشراق وسياساته

زكارى لوكمان
ترجمة: شريف يونس
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٤٢٦صفحة



يقدم المؤلف هنا رؤية لتاريخ الاستشراق وسياساته. ويمكن القول إنها فى مواجهة رؤى ذات طبيعة استعمارية استعلائية قام به مستشرقون عبر مئات السنين، يمكن اعتبارها رؤية منصفة إلى حد كبير.

وكى يصل المؤلف إلى استنتاجاته الأساسية فى هذا الكتاب، فإنه يعود إلى المنابع الأصلية التى استقى منها هذا الفكر الاستشراقى الاستعمارى مادته الخام، بدءاً من الثقافة اليونانية القديمة التى اعتبرت الأب الروحى للفكر الغربى فى صيغته المعاصرة، وصولاً إلى عصر النهضة، ومروراً بثقافة العصور الوسطى الأوروبية.

وهو هنا يميز بين رؤيتين: رؤية أصولية تنظر إلى الإسلام باعتباره إسلامًا وحيدًا، وهى فى هذا الإطار تتعامل مع النص فى صيغته الجامدة، دون أن تطالع تطبيقاته على مر العصور، ودون أن تحاول أن تستكشف ما ينطوى عليه من رحابة، سمحت للمؤمنين أن يجتهدوا بوصفهم أعلم بشئون دنياهم.

واستنادًا إلى هذه الفكرة، فقد اعتبر المسلمون هم أنفسهم فى كل زمان ومكان، وأنه لا اختلاف يذكر بينهم، وهى صورة أضرت كثيراً بالتعامل مع الإسلام والمسلمين، لأنها اقتصرت على عملية تحليل لغوى دون أن تتجاوزها إلى تحليل واقع المسلمين المعاش عبر العصور.

ويشير المؤلف إلى أن اليونانيين القدماء لم يعتبروا أنفسهم أوروبيين غربيين أو مؤسسين لما بات يعرف بعد ذلك بالحضارة الغربية، لكنهم اعتبروا ذاتهم جماعة مميزة ثقافيًا وحضاريًا وسط مجموعات من البرابرة.

وقد بلور الإغريق القدماء صورة متطورة للشخصية الاجتماعية والسياسية لدول وشعوب آسيا.

وهى صورة وظفها الأوروبيون الغربيون بعد ذلك بزمن طويل لتدعيم التقسيم الحاد بين الشرق والغرب، والذى طبق بعد ذلك على الإسلام وحده، بعد استبعاد أصحاب الحضارات القديمة فى الصين والهند، وهى الصورة التى باتت شديدة الوضوح بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وفيما يبدو فإن هذه الصورة كانت إلى حد كبير تراثًا نابعًا من صراع الإغريق الطويل مع الفرس، وقد أقام الأخيرون دولة قوية فى إيران، قدر لها أن تهدد الدولة الإغريقية وأن تزحف على مدنها فى سعيها للتوسع وتأكيد قوتها النامية.

هذه الصورة التى صاغها الإغريق عن أنفسهم هى التى أصّلت لفكرة الاستقطاب الحاد بين الغرب والشرق، والتى لخصتها عبارة «كبلنج»: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، وهى أيضًا التى أعطت الأساس النظرى لفكرة الاستبداد الشرقى، إذ صار الشرق كله كتلة واحدة تحكم من خلال حاكم مطلق، والناس عبيد مستذلون، وهى بدورها فكرة غير صحيحة تمامًا، إذ كان الغرب نفسه فى عصوره الوسطى استبداديًا يحكمه طغاة ربما أكثر عنفًا وأشد بطشًا من الطغاة الذين عرفتهم المجتمعات الشرقية.

المؤلف من ناحية أخرى، يعيد الاعتبار للثقافة الشرقية والإسلامية على وجه الخصوص، فالغربيون وإن كانوا يؤكدون على مرجعية الثقافة اليونانية، فإنهم لا بد أن يعترفوا كذلك أن هذه الثقافة ذاتها مدينة للعلماء المسلمين فى الفلك والطب والهندسة والجبر بما أسسوا عليه علومهم فيما بعد.

وحين جاءت المسيحية فإنها عمقت هذه الفجوة، خصوصاً بالاعتماد على التقسيمات التوراتية للعالم، والتى يأتى فيها الأفارقة فى ذيل القائمة، والذين كتب عليهم أن يكونوا خدماً «لليافث»، أى المسيحيين الغربيين، وللأغيار من اليهود على السواء، وحين ظهر الإسلام، ظل المسيحيون الغربيون يتعاملون مع أتباعه بوصفهم وثنيين همجًا وليسوا أصحاب رسالة، وحتى حين أرادوا أن يتعرفوا عليهم، فإنهم لم يسعوا إلى تفهمهم وإنما دراستهم على طريقة «اعرف عدوك».

فى مرحلة تالية ستزداد توجهات المستشرقين إلى الشرق لأسباب مختلفة، وسيسهم هؤلاء فى إضافات بالسلب أو بالإيجاب للفكرة التقليدية عن الشرق، وسيتابع المفكر الفلسطينى إدوارد سعيد هذه الجهود فى دراسته المهمة عن الاستشراق فى أواخر السبعينيات، لكن العداء سيبقى، وستكون على الإمبراطورية الأمريكية فى صيغتها الاستعمارية الجديدة أن تؤججه وتؤكده، كى تسيطر على منطقة الشرق الأوسط وتبتلع خيراتها الاقتصادية والنفطية على وجه الخصوص.

ركن العشاق (قصص)

عبدالرشيد صادق محمودى
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ١٨٢ صفحة



تضم المجموعة ست قصص: ركن العشاق، البجعة الأم، أنا فتحى، عشاء على شاطئ البحيرة، يوم تفر المدن، سوكسى. وهى فى مجملها تسعى إلى الغوص فى النفس البشرية واكتشاف دوافع سلوكها، كما أن بعضها يعبر عن صدام الأنا والآخر، وما يبدو من تفاعل أو انسحاق فى هذه العلاقة المعقدة.

المؤلف مثلاً فى قصته الأولى «ركن العشاق»، يحملنا معه إلى علاقات حب عجيبة ومتداخلة إلى درجة فانتازية، تبدأ بـ«أشرف» محرر باب ركن العشاق فى إحدى المجلات والذى يحلم بكتاب يسميه «الكتاب المطلق» الذى يستطيع أن يروى فيه كل شىء، لكن هذا الصحفى الذى لم يعرف الحب والذى يعيش مع أمه العجوز، توكل إليه مهمة أن يحل مشاكل العشاق ويهدئ خواطرهم، وحين يقع هو نفسه فى الحب، يفاجأ بأن من أحب لها خطيب وعشيق وآخر تبقيه بوصفه «الأبقى لها»، وهى تمارس معهم جميعًا درجات مختلفة من العشق دون أن تجد فيما تفعل تناقضًا من أى نوع، وفى أجواء العشق المتداخلة والمرتبكة تلك، تبزغ أحوال البلد التى هى «زفت»، كما يخبره «سيد» الموظف الصغير لدى «رأفت» عشيق سوسن والذى ينتظر دوره كى يصبح هو رجلها الأوحد.. «كان يسير ببطء لكيلا تزل قدمه فى الوحل الزلج ويسقط بحمله، ولكنه كان يريد سيارة تقله إلى بيته بأقصى سرعة، لولا حمله لعدوه، كان عواء المرأة تلذذًا يطارده».

هى المرأة نفسها التى التقاها دون ترتيب والتى قالت له بدلال آسر: لا بد أنك اكتويت بالحب عشرات المرات، ويسائل نفسه: أليس من العجيب أن يستشار فى أمور الحب هو الذى لا زوجة له ولا حبيبة؟ ويا طالما قالت أمه: إنك لن تتزوج الشجر.

كما نرى، فإن القصة التى عرضنا لها باختصار مخل بالضرورة، تنطوى على دلالات إيحاءات رمزية كثيفة، سياسية ونفسية وإنسانية، وهو الأمر نفسه الذى يصادفنا فى باقى قصص المجموعة، والتى تفتح مستويات مختلفة للنظر والتأويل فى جماليات النص ومقاصده.

المسرح الإسرائيلى

شمعون ليفى
إعداد وتقديم: سلمان ناطور
رام الله: «مدار» ـ المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية ٢٠٠٦، ١٤٨ صفحة

يعتبر المسرح العبرى فى إسرائيل من أرقى وأهم الفنون، وتقبل عليه كافة الأجيال والشرائح والطوائف باستثناء المتدينين المتزمتين، لأن الديانة اليهودية لا تشجع الفن المسرحى بل تحرمه، وهو ما يثير تساؤلاً حول هوية هذا المسرح، هل هو نتاج إسرائيلى مدنى، أم أنه تحول طرأ على الفكر الدينى اليهودى دفعه إلى قبول المسرح وعدم تحريمه، أم أن الصهيونية حللت المحرمات لأنها تضع نفسها فوق الديانة، باعتبار أن الصهيونية ذاتها عقيدة سياسية.

والكتاب الذى ألفه واحد من أهم الباحثين فى المسرح الإسرائيلى وهو رئيس قسم المسرح فى جامعة تل أبيب، وهو أيضًا ممن ينتمون إلى تيار تقدمى مناهض للاحتلال والعنصرية والتمييز القومى، ومن الباحثين العالميين فى مسرح صموئيل بيكيت والمسرح الألمانى المعاصر، يجيب عن تساؤل: إلى أى حد نجح المسرح العبرى فى التعبير بصدق وحساسية عن هذا المجتمع وتناقضاته ومشاكله الجوهرية.

من ناحية ثانية سنلاحظ فى الدراسات التى يقدمها الكتاب أن النصوص التوراتية حاضرة بقوة فى المسرح العبرى، برغم أن اليهودية تحرم فن المسرح، بل إن هذه النصوص تم توظيفها منذ وقت مبكر فى خدمة تثبيت أركان الدولة الجديدة، أى أن مقتطفات هذا المسرح منذ البداية كانت قوية منسجمة مع المشروع الصهيونى منذ بدايات القرن العشرين، مع ملاحظة أن المسرح العبرى المعاصر بدأ فى أوروبا وليس فى فلسطين.

وربما كانت أبرز سمات هذا المسرح فى السنوات الثلاثين الأخيرة هى تحرره من الالتزام بقضايا الأمة، وتحوله من مسرح ترويجى قومى إلى مسرح نقدى لاذع، فى السياسة والاقتصاد والمجتمع، ولأن هذا المسرح تأسس أساساً خارج إسرائيل، فقد أحضر معه كل منجزات المسرح الغربى، ولذا فإن لهذا المسرح حضوراً عالميًا كبيرًا لم يحققه المسرح العربى،

فضلاً عن أنه لا رقابة مطلقاً على المسرح فى إسرائيل، وهـو مـا شـجـعـه عـلى الغوص فى كافة القضايا بلا محاذير من أى نوع.

■

الـــزويـــل

جمال الغيطانى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٣٩صفحة



تحكى الرواية عن قبيلة الزويل التى تعيش على الطريق الواصل بين مصر والسودان والذى يمر ببلدة حلايب، وهم - بحسب المؤلف - يتجنبون لقاء بعثات المناجم أو البترول، إلا أن بعضاً من رجالهم عمل بالفعل كحمالين فى مناجم الفوسفات، وهو ما تثبته سجلات شركة مصر للتعدين، كما أن كثيرين منهم عبروا الطريق الواصل بين البحر الأحمر ومدينة قنا فى صعيد مصر، وفى الصعيد مارسوا أعمالاً شتى: عملوا فى جمع البلح وبناء البيوت والملاحة فى المراكب النهرية وبيع الفاكهة وتشحيم القطارات وبيع أشياء صغيرة فى عربات الدرجة الثالثة بالقطارات، ولديهم تقاليد راسخة ولا يسمحون للغرباء باقتحامهم إلا وفق شروط واضحة ومحددة، لهذه الأسباب جميعها رويت عنهم أساطير وحكايات كثيرة تختلط فيها الحقائق بالأوهام.

ويرى البشارية والعبابدة، وهما قبيلتان كبيرتان فى الصعيد عن الزويلية أنهم ليس لديهم مصادر مقدسة مكتوبة، أو نصوص مخطوطة، إنما انتقلت معتقداتهم المقدسة تلك شفاهة عبر الأجيال، وقد اختفى زويل الكبير منذ عدة مئات من السنين، لا يعرف متى على وجه الدقة، وحل بدلاً عنه الشيخ الملثم، وهو تجسيد حى للزويل المختص حتى يعود من غربته واختفائه، لكن لماذا اختفى الزويل الكبير؟

تقول الروايات إنه ضاق بالعالم وما فيه، وكادت روحه الطاهرة النقية كالندى تختنق فى آثامه وشروره فارتفع إلى السماء بعد عذابات رائعة وآلام مخيفة، عانى منها أجيالاً طوالاً وتوارى فى الغمام، ولهذا السبب ما أن يرى الزويلى غمامة فى السماء حتى يطرق خاشعاً، حتى لو سمع الرعد ورأى البرق، فالرعد هو صوت الزويل المختفى، والبرق هو سوطه.

فى هذه الأجواء الأسطورية تدور أحداث الـرواية، فى زمـن سـحـرى مدهش.

■

الديمقراطية وحوار الثقافات

السيد يسين

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٧، ٣٢٩ صفحة



يضم الكتاب أقساماً أربعة، يمكن اعتبارها مجتمعة تعبيراً عن أصداء كل من أزمة الديمقراطية العربية والصراع حول حوار الثقافات، وهو يشتمل على مقالات نشرها المؤلف على مدى عام كامل تقريباً (من ديسمبر ٢٠٠٥ وحتى أكتوبر ٢٠٠٦) فى صحف مصرية وعربية.

وهو يبدأ بمقالات موسعة عن الديمقراطية فى العالم العربى، يؤكد فيها على العلاقة الوثيقة بين طبيعة النظم السياسية وإفرازاتها الثقافية، وإن كان يعترف بالفجوة بين النظرية والتطبيق، خصوصاً أن ثمة تأثيرات داخلية وخارجية متفاوتة فى هذا الإطار، ويشير المؤلف إلى اعتياد النظم العربية فى مجملها تزييف إرادة الناخبين سواء كانت فى انتخابات رئاسية تقوم على التنافس على مقعد رئيس الجمهورية أو الاستفتاء، أو الانتخابات البرلمانية التى يتم بموجبها اختيار أعضاء المجالس النيابية المناط بهم وضع التشريعات، وهذا يعنى أن مسألة الأغلبية التى تتشدق بها بعض النظم وتراها مطيتها لتنفيذ ما تريد هى مسألة محل شك كبير، كما يلاحظ المؤلف أن مبدأ المساواة أمام القانون لا يطبق باتساق فى المجتمعات العربية، لأنه فى الدولة السلطوية، يستطيع أعضاء النخب السياسية الحاكمة الإفلات بذرائع شتى من تطبيق القانون، ويشدد على أن إتمام عملية التحول الديمقراطى فى العالم العربى لابد أن تشهد بالضرورة إعمالاً لمبدأ المساواة أمام القانون، والتى تقتضى بالضرورة سيادة القانون، وهذا أيضاً غير متحقق، إذ توجد دول عربية عديدة ليس فيها فصل واضح بين السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية، كما أن مسألة احترام حقوق الإنسان وسيادة قيم التسامح وضمان حقوق الأقليات فى الوطن العربى محل شك كبير.

ثمة أفكار عديدة أخرى تتضمنها الدراسات بين دفتى الكتاب، والذى ينهيه المؤلف بصياغة عناصر استراتيجية ثقافية عربية تتضمن: رسم خرائط معرفية للاتجاهات الأيديولوجية فى العالم العربى، تحيط بكل ألوان الطيف الثقافى والسياسى فى هذا الواقع العربى، وتقيم الوزن النسبى لكل تيار واتجاه، حتى يمكن تقديم صورة موضوعية للتفاعلات السياسية بين أنصار الأيديولوجيات العربية المختلفة.

وتبنى موقف رشيد من ثلاثية الماضى والحاضر والمستقبل، يقوم على منهج علمى ونقدى واع للواقع العربى، منهج تكاملى لا يفصل بين السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، ويستشير فى المستقبل العربى، ويتعامل مع العولمة بغير شطط أو خنوع.

وتتضمن الاستراتيجية الثقافية العربية أيضاً حصر مشكلات التواصل الثقافى مع الغرب، ومنها العلاقة بين الإسلام والغرب، والتطرف والإرهاب والهجرات العربية إلى أوروبا، إضافة إلى الدعوة للإسهام العربى فى مناقشة المشكلات الإنسانية العالمية، ولعب دور فاعل فى حوار الحضارات.



البحث العلمى فى المجالات الإنسانية

مصطفى عبدالسميع محمد

فيليب اسكاروس

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٢٧٢صفحة



تضم فصول الكتاب الستة، خلاصة الخبرة النظرية والتطبيقية فى مجال مناهج البحث العلمى، ويعالج المؤلفان فى الفصل الأول مدخلاً نظرياً يتضمن تعريفاً للبحث العلمى ووظائفه واستراتيجياته الأربع: الاستقرائية والاستنتاجية والارتدادية والافتتاحية، ويرصد القواعد العامة للسلوك الأخلاقى للباحث قبل أن يعرض الإجراءات العلمية التطبيقية لإعداد بحث علمى رصين فى المجالات الإنسانية.

ويعرض الفصل الثانى للطريقة الوصفية فى البحث وتقنياتها الثمانى، وهى: البحث التاريخى الوثائقى والمعالجة الفلسفية وتحليل النظم والمعايشة وحل المشكلات والمعالجة والمقارنة وتحليل النظم وتقنية زوم.

ويتضمن الفصل الثالث شرحاً للطريقة التجريبية فى البحث العلمى فى المجالات الإنسانية وتقنياتها الإحصائية.

ويقدم الفصل الرابع أدوات البحث العلمى فى المجالات الإنسانية وهى ست: المخطوطات والوثائق والمصادر الإلكترونية واللاإلكترونية، والملاحظة والمقابلة الشخصية وصحف الاستبانة والاستقصاء واستمارة البحث، ومقياس أنماط التفاعل الاجتماعى والاختبار التحصيلى.

وفى الفصل الخامس سبع صيغ لبحث الوضع الراهن فى المجالات الإنسانية وهى: الكمية والكيفية والنقدية والتقويمية وبحوث الأداء وبحوث الرأى العام وبحوث الفريق.

ويخصص الفصل السادس لعرض صيغ بحوث المستقبل.

■

رحلات بنت قطقوطة

عزة بدر

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٧، ١٢٣صفحة



فصول من أدب الرحلات، ترسم المؤلفة فيها انطباعات تمزج بين رؤية سائح وعين أديب، فاللغة الأدبية حاضرة كون المؤلفة شاعرة وكاتبة قصة، أما الرحلات فتبدؤها من اليونان ثم إلى إحدى المدن الإيطالية «سيراكوزا»، ومنها إلى المغرب ثم الحجاز.

فى ثيسالونيكى باليونان، تصادف المؤلفة مدينة كوزموبوليتانية ذات تاريخ عريق وسحر خاص، وتحضر كرنفالاً يحتضن ثقافات الشعوب جميعها، تقول: كانت الرغبة فى الحوار العميق والتفاعل مع ثقافات متعددة تخاطب المشاعر والقلوب فى أرق تجلياتها، بلغات مختلفة سمعنا الشعر والأغانى، وبأساليب تعبير متنوعة وغنية عبرت الشعوب عن داخلها الحميم بعروض مسرحية وأفلام تسجيلية ورقصات شعبية وأغنيات أعراس وعروض باليه، وعبرت النساء المبدعات عن بلدهن، عن هذا التنوع والفن والخصوصية التى جعلت لهذا البلد مذاقاً خاصاً.

وفى سيراكوزا كانت المؤلفة مدعوة بصفتها صحفية للمشاركة فى مؤتمر عن حقوق الإنسان فى وسائل الإعلام المصرية والعربية، وهى إلى جانب ما سجلته من ملاحظات وما نقلته من متابعات عما دار فى المؤتمر عن رؤية الآخرين لحقوق الإنسان عندنا، ورؤيتنا نحن لحقوقنا فى المعرفة والاتصال، فإنها لا تفوت الفرصة لتحدثنا عن الناس والمكان والأشياء، والعلاقات المتداخلة بين الجميع فى هذه المدينة الإيطالية الجميلة.

وفى المغرب تنقل لنا ما دار فى مهرجان الرباط الحادى عشر، ذلك المهرجان الذى تمتزج فيه الثقافات ذات الخصوصية بالمغرب، موشحات أندلسية وأغنيات حديثة أيضاً، لكنها إلى ذلك تحدثنا عن الرباط المدينة، حاراتها وشوارعها وسماتها المعمارية المميزة، تدخل بنا إلى زنقة السويقة وزنقة الملاح وشارع محمد الخامس، رائحة العطارة والشاى والصندل والقرنفل والمسك ونقوش الحناء، قبل أن تنتقل بنا إلى مدينة فاس بسماتها شديدة التميز.

أما فى الحجاز فرحلة الشوق الأبدى لجوار الكعبة ومسجد سيدنا النبى عليه الصلاة والسلام، ملابس الإحرام البيضاء والحمام الأمن يرفرف يحمى الحمى، وأبواب الجنة مشرعة للتوابين الصادقين العابدين، ارتواء الروح الأبدى وظمأها الأبدى فى آن معًا.

■

أنا وطفلى والطبيب

د. إبراهيم شكرى

القاهرة: دار الشروق



أنا وطفلى والطبيب حوار بين اثنين فى أمر ثالث يهمهما شأنه، هو الحوار أو الحديث عبارة عن بعض المعلومات والتوجيهات، وإجابة عن تساؤلات تخص حياة الطفل اليومية ورعايته وأمراضه الشائعة. ويشتمل هذا الكتاب على أربعة أبواب:

١. العام الأول من العمر بدءاً من أول يوم بعد الولادة.

٢. من العام الثانى حتى سن دخول المدرسة.

٣. أعراض وأمراض شائعة فى فترة الطفولة.

٤. تشخيص وروشتة.

أنا وطفلى والطبيب كتاب ألفه أهم أطباء الأطفال فى مصر والعالم العربى الدكتور إبراهيم شكرى، أستاذ طب الأطفال بكلية الطب بجامعة القاهرة. هو نتاج سنين من الخبرة العملية كتبه المؤلف خصيصًا للأم المصرية والعربية ليكون بمثابة مرجع لهما فى كثير من الأمور التى تتعلق بحياة طفلهما والعناية به، وتنشئته وتربيته السليمة، وكيفية التصرف أثناء حالاته المرضية.

■

نوعية الحياة فى منطقة عشوائية

إشراف: محمود الكردى

القاهرة: المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ٢٠٠٧، ٢٨٩ صفحة



تهدف هذه الدراسة إلى رصد وتحليل واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان عشش منطقة الشرابية بالقاهرة، بوصفها نموذجًا لمنطقة عشوائية، وسكنى العشش تعبير مأساوى عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التى تجرى فى العمران البشرى، وهى تمثل من ناحية ثانية أدنى الأنماط السكانية. وقد استخدم مصطلح مدن وأحياء الصفيح فى العديد من دول العالم للإشارة إلى هذا النمط المتدنى من السكن فى المناطق العشوائية.

وقد بدأت ظاهرة سكنى العشش فى مصر، فى إطار ما سمى بإسكان الإيواء المؤقت الرسمى فى بدايات الستينيات، عندما تولت وزارة الإسكان بناء مشروع ناصر للإيواء العاجل فى عدة محافظات، وتم بناء ٣٠٠٠ وحدة منها فى القاهرة وحدها على هيئة أكشاك، وكانت خدماتها الخاصة بالصرف الصحى والمياه مجمعة فى كل موقع للاستعمال المشترك، وتركزت على وجه الخصوص فى إمبابة والأميرية وحلوان، والأراضى المحيطة بالسكة الحديد، وعادة ما يلجأ سكان العشش إلى إقامتها بالقرب من مواقع خدمات أساسية كالصرف الصحى ومياه الشرب، ويمثلون بتواجدهم هذا ضغطًا على تلك المرافق، مما يعجل بانهيارها ويسبب مشاكل بيئية كثيرة.

وفى نطاق القاهرة الكبرى على سبيل المثال، فإن العشش تقام متاخمة لأراضى الإيواء المؤقت التى تقيمها المحليات لاستيعاب سكان المساكن القديمة التى تهدمت، كى يستفيدوا من دورات المياه المشتركة المخصصة لهم، كما أنهم يستفيدون من الوصلات الكهربائية لساكنى العشش القدامى، أو يسرقون التيار الكهربى، وكذلك فى الأراضى الواقعة بطول محاور السكك الحديدية، والمناطق الخالية الواقعة على ضفاف نهر النيل، والأراضى الفضاء بجوار المناطق الصناعية، والأراضى المتاخمة للمناطق الأثرية وأراضى الوقف.

وفيما يتعلق بمنطقة الشرابية التى هى موضع الدراسة، تفاوتت الآراء بشأن بداياتها الأولى، لكن ثمة اتفاقًا على أنها بدأت بعدد محدود من العشش لا يتجاوز ١٥ أسرة استقرت بالمنطقة، ثم بدأت الأسر فى التوافد تباعًا، حتى اتسع نطاق العشش بالصورة التى وصل إليها الآن.

ومن أبرز المشكلات التى تعانيها العشش، الافتقار إلى أدنى درجات الخصوصية وانعدام الخدمات الأساسية، ولا يلتفت المسئولون إليها إلا فى حالات الكوارث، وتتنوع بها أشكال الجرائم والبلطجة على النحو الذى يمكن أن نجده فى عشوائيات مماثلة، وفى إطار البحث الميدانى، أبدى سكان العشش استعدادهم لتركها على الفور إذا توافرت لهم أماكن إقامة بديلة وفرص عمل قريبة منها.

الدراسة ترصد أحوال سكان عشش الشرابية صحيًا وإنسانيًا وتعليميًا وأمنيًا، خصوصًا أن سكان العشوائيات فى مصر

رواية من الواقع العربى

البساطير

هاشم رزق المصرى

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ١٨٣صفحة

دكتور هاشم إسماعيل رزق المصرى طبيب فلسطينى يعمل بالطب والأدب والسياسة وهى ثلاثية تكررت كثيرا فى الأدب والثقافة العربية. ولد الدكتور المصرى فى مدينة نابلس الفلسطينية أيام الاحتلال الإسرائيلى وقد اعتقل وأبعد من قبل السلطات الأردنية عام ١٩٨٥ بسبب مواقفه السياسية. وقد تم إبعاده للمرة الثانية من المملكة العربية السعودية أيضا بسبب نشاطه السياسى وهو يعمل ويقيم حاليا فى اسطنبول.

البسطار هى أحدث رواياته:

من وادى التفاح، من شارع عبدالناصر، تحركت الجماهير، تحمل النعش، نعش الشهيد، تدفقت للشارع، ماجت والنعش على الأكف، فى وسط الجماهير الغاضبة علا النعش، جلل بالعلم ذى الألوان الأربعة، هانى بينهم، يحمل النعش، يداه طريتان، أصابعه غضة، صاحوا به:

اتركه، دعه لا تقدر على حمله.

لم يهتم لم يسمع، الأصابع الغضة والحقد والتصميم والشعيرات الصغيرة فوق الشفة العليا ترتعش.

ستقع، اترك هذا لمن هم أكبر منك. عادوا وصاحوا به.

بالأمس خرجوا كانوا سويًا، جمال معهم بجانبهم فى مقدمتهم، هاجموا دورية للعدو، جمال رماها بحارقة، احترقت السيارة وثلاثة جنود، صرعته رصاصات العسكر، اخترقت صدره وفارق الحياة.

الأصوات تعلو من حوله، يصيحون أن يبتعد أن يترك النعش، أن يترك جمالاً، ظل ماسكًا بالنعش لن يتركه، سار معه إلى مقبرة الشهداء، شهداء الجيش العراقى، شهداء عام ١٩٤٨.

لم يبك، لم تنزل له دمعة، صديقه، رفيقه، من كان بالأمس معه، فعاهده ألا يبكى، فالدمع يغسل الحقد يوهن الإرادة، وعاد إلى بيت جده. دخل الحمام قضى حاجته وغسل وجهه، عندما فتح الباب كان أبوه فى انتظاره، لم يسأل، بمجرد أن رآه لطمه على وجهه.

اترك الزعران، صاح به، إننا لسنا لهذا الأمر نريد أن نعيش.

غادر البيت رأساً بدون أية كلمة مع جدى أو جدتى، جدتى أخذتنى من يدى غسلت لى وجهى وأجلستنى على الكنبة بجانبها.

لا تأبه له، لا يعرف كيف يتصرف، والدتك ستحضر بعد عدة أيام.

«لو كانت هنا لفهمتنى» قلت لنفسى، دموعى سالت على خدى، جدتى أخذت رأسى إلى صدرها وضمتنى، تذكرت صديقى، مسحت عينى وخدى بطرف قميصى.

فى الصباح حملت الأزهار، ذهبت للضريح، بعض الأصدقاء قد سبقنى، وبدأت انتظر أمى.

فى أول يوم أخذت الطفلة فى حضنى، لم أحدث أمى بما كان بينى وبين أبى، تناولنا العشاء سويًا، فى اليوم الثانى عندما عدت من المدرسة، أمى على الباب تنتظر. تنظر فى وجهى ويملأ عينيها القلق والحيرة، مسحة حزن وتفكير تملأ وجهها، فى بادئ الأمر لم تقل شيئًا، أخذتنى من يدى، أحضرت لى الطعام، بعد أن أنهيت طعامى، رفعت وجهها سألتنى:

ما هو الموضوع؟ أبوك رمى بعض الكلمات وخرج، وكعادته يكمل جملته فى الطريق.

نظرت إليها لم أقل شيئًا.

أنت الوحيد الذى خرجت به من هذه الدنيا، انظر لأختك. قالت بحزن وغابت عنى، دمعت عيناها، الألم يعتصرها، تعود للأيام الماضية، تتذكرها وتخاف علىّ، لابد أن أتحدث أن أتكلم، هى بالذات لا أستطيع أن أهرب منها، تلاحقنى بنظراتها وألف سؤال وسؤال نظرتها.

أبى لم أهتم كثيراً له، لم أشعر بأنى ملزم بأن أفسر له، كنت أجابهه بالصمت منذ سنوات لم أره إلا قليلاً.

أبى تكلم عن جنازة جمال، لقد كنت فى الجنازة، ماذا فى ذلك؟ قبل أن أكمل كلامى قاطعتنى:

ليس الجنازة فقط.

هكذا إذن، حدثها عما كان يردده دائماً: الزعران والحجارة ولم نقبض شيئًا.

الآن، يمثلون ما يقرب من ثلث عدد السكان، أى ٢٥ مليون نسمة، وهو رقم ليس بالهين.

■

الصحوة النوبية

حجاج أدول

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ١٣٦ صفحة



من واشنطن بالذات، أطلق الأديب النوبى حجاج حسن أدول صيحته المطالبة بحقوق النوبيين، وطالب العالم بحمايتهم بوصفهم أقلية مضطهدة، وقطاعاً من المصريين يعانى ظلماً تاريخياً منذ بدايات بداية الخزان ثم التعليات المتتالية التى بدأت فى ١٩٠٢ وانتهت مع بناء السد العالى فى ١٩٦٤.

يشبه أدول ما يسميه بالقضية النوبية بالقضية الفلسطينية، فالفلسطينيون طردوا من أراضيهم بواسطة الصهاينة فى عملية ترانسفير بالغة القسوة، وهو الأمر الذى عاناه النوبيون أيضاً، حيث طردوا من أراضيهم وأزيحوا إلى خارجها، وتم توطينهم فى بيئة صحراوية مغايرة تماماً لتلك التى اعتادوها، وهو ما أثر تماماً على حياتهم وأباد تمايزهم الثقافى وجرح صفاتهم الإنسانية التى منحتها إياهم الطبيعة النيلية والزراعية التى عاشوا فيها عمرهم كله، ولم يعوضوا بشكل مناسب حتى اليوم، كما أنه يرى فى عملية إبادتهم تشابهاً كبيراً مع عملية إبادة الهنود الحمر التى جرت على أيدى الأوروبيين المغامرين، الذين قتلوا مئات الألوف من سكان البلاد الأصليين ليقيموا بدلاً منهم وينشئوا الولايات المتحدة الأمريكية.

وبسبب هذا «الظلم» الذى يراه أدول، فإنه يقترح عدداً من المطالب كى يرد الاعتبار لأبناء النوبة، أولها أن تمنح الحكومة المصرية الأراضى التى تزمع استصلاحها فى منطقة توشكى لأبناء النوبة قبل أى مواطنين مصريين آخرين، وأن يضم التشكيل الحكومى وزيراً نوبياً يتولى إدارة شئون أبناء النوبة وتحقيق مطالبهم العادلة إلى أن يتم حل المسألة النوبية تماماً فيتم إلغاء هذه الوزارة، وإعادة فتح ملف التعويضات للنوبيين ومنحهم تعويضات مناسبة للتضحيات التى قدموها بديلاً عن التعويضات البخسة التى حصلوا عليها من قبل، ونظراً للتضحيات التى قدمها النوبيون، فإن على الحكومة أن تضعهم فى موضع المواطنين الأولى بالرعاية، وأن تخصص لهم نصيباً من الوظائف فى الدرجات العليا، وأن تخصص نسبة من المعونات الأجنبية لتوطينهم، وأن يتم تدريس التاريخ النوبى فى المدارس، وأن تتم محاكمة جميع المسئولين الذين تسببوا فى المأساة النوبية.

هذه هى باختصار «أجندة» حجاج أدول التى أطلقها فى واشنطن، والتى يرى فيها كثيرون من أبناء النوبة فى أحسن الفروض شططاً ومغالاة، وفى أسوئها عمالة لجهة أجنبية، حتى إن بعضهم يربط بين ما يقوله حجاج أدول والمخطط الإسرائيلى لتفتيت مصر إلى دويلات ثلاث: سنية وقبطية ونوبية.

هذه هى «صحوة» أدول التى أظن أنها «إغفاءة» سرعان ما سيفيق منها.

■

آفاق جديدة.. التناغم بين الثقافة والدبلوماسية والسياسة

أنطونيو باديني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٢٧صفحة



مؤلف هذا الكتاب هو سفير إيطاليا السابق فى القاهرة، والذى أنهى عمله بها قبل عدة أسابيع فقط، وهو إلى جانب نشاطه الدبلوماسى متخصص فى منطقة المتوسط وشرق المتوسط، وقد عمل منسقاً قومياً للشراكة الأورومتوسطية.

والفكرة الأساسية هى النقيض تماماً لفكرة صراع الحضارات التى قام بها صمويل هنتنجتون، هى فكرة حوار الثقافات خصوصاً بين دول حوض المتوسط، ولذا يدعو المؤلف إلى استعادة مسارات الثقافة والفن والعلوم السياسية لبناء هوية متوسطية تقوم على مجموعة من القيم والمصالح المشتركة، وبحسب ما يقول المؤلف فإن الحكومات والمجتمع المدنى عليهم العمل معاً لإعادة السياسة إلى محور الأحداث، لكن ثمة شروطاً لهذه العودة، أولها وضع حد فاصل بين التضامن بين الشعوب والتدخل فى الشئون الداخلية للدول، وثانيها المطالبة بالعدالة فى الميدان الدولى، ووقف الصراعات والعنف والحروب باسم الإله.

كما يشير المؤلف إلى ضرورة التخلى عن الإفراط فى الأيديولوجية، التى يعتبرها سبباً فى إقصاء السياسة عن ميادين عملها الرئيسية.

ويعلق أهمية كبيرة على التعددية فى الغرب، التى يمكنها بمرور الوقت أن تقوم بدور الجسر لدعم علاقات الثقة بين ضفتى البحر المتوسط، ومحاربة ثقافة الرفض التى تفرض شروطها على الحوار بين الشرق والغرب، وتصدر أحكاماً مسبقة عن عدم توافق الديمقراطية مع الإسلام. وفى هذا الإطار فإن العلاقة الوطنية بين الدول الواقعة جنوب المتوسط وشماله يمكن أن تتسع لتضم بلاد البحر الأسود والخليج، أى البحر المتوسط بالمعنى الواسع للكلمة، وهى المنطقة التى كانت مهداً للحضارات الإنسانية الأولى التى أضاءت العالم آلاف السنين، فى وقت كانت أوروبا ترزح تحت ضغوط الجهل والظلامية، كما أن إنسان البحر المتوسط لا يختلف عن نظيره فى أى مكان فى العالم المتقدم، لكنه توارى بفعل ظروف قاسية لم يكن له يد فيها، منها الحروب العرقية والدينية، وهو ما يؤكد على أهمية أن تقوم السياسة والقانون والثقافة بتحديد مجالات عملها داخل تحالف حقيقى أو فى إطار ائتلاف للقيم المشتركة، وأن تتشارك الحكومات والمجتمع المدنى فى وضع رؤية للأمن والاستقرار فى البحر المتوسط الكبير.

ويعطى المؤلف المجال الثقافى أهمية كبيرة فى هذا المجال، بل يجعل الثقافة فى قلب المشهد، وخصوصاً الكتاب.. «فالمقالات والأشعار والروايات هى التى تجعلنا نعرف مدى تماثل وتشابك الأحداث الإنسانية بصرف النظر عن العقيدة والجنس»، ولذا فإن استعادة الدبلوماسية لأدوات الثقافة يمكن أن يكون وسيلة ناجحة لتجنب التوترات وسوء التفاهم، قبل أن تتحول إلى أزمات وحروب.

■

الإنسان هو الحل

حازم خيرى

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ١٤٢صفحة

البشرية لوحة فسيفساء تضم ملايين الألوان والاختلافات والتباينات، وهذه هى حكمة الخالق سبحانه وتعالى، أن يكون الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، دون أن يدعى فريق أنه يمتلك ناصية الحكمة، وأنهم هم الفرقة الناجية دون سواهم، ولا شىء يمكنه أن يكدر صفو الحياة، أكثر من ادعاء مثل هذا، خصوصاً إذا سعى الطرف الذى يدعى أنه يمتلك الحقيقة المطلقة إلى فرض تصوراته على الآخرين.

ويورد المؤلف مقولة للشاعر المارتينيكى «إيمى سيزير» هى «فى موعد النصر متسع للجميع»، ولعلنا نضيف إليها ما قاله الشاعر الإنجليزى شللى «الأرض إنها تتسع للجميع»، «الأنسنة»، أى المشاركة فى الإنسانية إذن، هى الفكرة الأساسية التى يدرسها الكتاب، وهو لا يكتفى بالتركيز على ما تمثله فى واقعنا المعاصر، وإنما يستقى أدلتها بالإبحار فى مدى زمنى وثقافى أبعد فى العصرين القديم والوسيط، وهو يقدم فى الفصل الأول من الكتاب تعريفات فلسفية مختلفة لفكرة الأنسنة وخصوصاً عند السوفسطائيين اليونان، الذين يدرس تطور فكرة الروحانية لديهم، ثم يدرس الفكر العربى الإسلامى فى العصر الوسيط وموقع الأنسنة فيه، من خلال دراسات لكارل هنيرشى بكر وعبدالرحمن بدوى وجورج مقدسى ومحمد أركون، ويقدم فى الفصل الثالث نماذج تطبيقية لمفكرين آمنوا بفكرة الأنسنة وعملوا عليها نظرياً وعملياً، باعتبار أن الأنسنة ليست نهجاً نظرياً مجرداً، وإنما هى بحسب تعبيره النهج الأقرب للفطرة الإنسانية السليمة والأجدر بالتطبيق على أرض الواقع، ومن ثم فهو يقدم هذه الشخصيات باعتبارها معالم على الطريق فى هذا الإطار، لذا فإنه يعتبر المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد والمفكر الباكستانى إمبال أحمد، والمناضل فى صفوف ثورة التحرير الجزائرية فرانز فانون، ويشير إلى صداقات جمعت الأقطاب الثلاثة، وإلى قواسم مشتركة ميزت فكرهم، ويخصص الفصل الأخير فى البحث عن كيفية بناء الشخصية الأنسنية.

■

أوهام مشروع الشرق الأوسط الكبير

محمد أحمد النابلسى

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧، ٢٢٨ صفحة



مشروع الشرق الأوسط الكبير ليس وليد اللحظة، ليس واحداً من الأفكار النزقة للرئيس الأمريكى بوش الذى أعلن فى مارس ٢٠٠٤ عن مبادرته للشرق الأوسط الكبير، وهو كبير كونه يتاخم كل الأعداء المحتملين للولايات المتحدة الأمريكية: أوروبا فى الغرب، والصين فى الشرق وروسيا شمالاً.

نقول إن هذا المشروع هو أب شرعى للفكر الاستعمارى منذ نهايات القرن التاسع عشر، أما سبب إعادته إلى الحياة من جديد فى هذا التوقيت بالذات، فيعود إلى رغبة اليمين الأمريكى الجديد تثبيت الواقع العالمى الذى انتهى بانتصار أمريكى كاسح، وغياب شبه تام للمعسكر المناهض.

هذا الكتاب يفند مقولات الشرق الأوسط الكبير ويعدها أوهاماً، لافتاً إلى الطابع البرجماتى للمشاريع الأمريكية التى ينزع عنها صفة الأيديولوجيا، ويجعلها عرضة لتقلبات الواقع والمصالح والسياسات التى تتبدل يوماً بعد آخر.

ويطرح المؤلف اتساقًا مع هذه الفكرة تساؤلاً بالغ الأهمية: هل تتمسك الولايات المتحدة بهذا المشروع لو تعارض مع مصالحها، والجواب هو بالنفى، لأن أى مشروع يمكن الانقلاب عليه مادام لا يلبى المصلحة الأمريكية، وهكذا يرى المؤلف أن الولايات المتحدة بدأت بالفعل خطواتها فى الانقلاب على هذا المشروع، عبر قراءة تحليلية مستقبلية سياسية.

يقدم المؤلف استنتاجاته تلك عبر ثمانية فصول ومقدمة: الشرق الأوسط الكبرى ويقدم فيه لمحة تاريخية عن المشروع ونصوصه ويعلق عليها، المنطلقات الجيوسياسية لأمركة الشرق الأوسط متضمنًا الإشارة إلى الفشل الأمريكى فى العراق، أزمات الاقتصاد الأمريكى فى إطار أزمة الرأسمالية العالمية، أبعاد جديدة للسياسة الأمريكية، رؤية مستقبلية لمشروع الشرق الأوسط الكبير، عولمة النفط متضمنًا الدول النفطية، فرضيات التوقع العربى فى الفضاءات العالمية، وأخيرًا التداعيات المستقبلية لاحتلال العراق.

■

تاريخ نهاية العالم

جوناثان كيرش

ترجمة: عبدالوهاب علوب

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧، ٣٧٣ صفحة



تمثل رؤيا يوحنا، أو سفر يوحنا، وهو آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس، ركيزة أساسية فى الفكر السياسى الاستعمارى الأمريكى الآن، ويتبناها الرئيس بوش ورجال إدارته من اليمينيين الجدد ودعاة ايفانجليكيون ومسئولون حكوميون كبار، وهى الرؤيا التى تشير إلى معركة هرمجدون التى يموت فيها ملايين البشر فى مواجهة دامية تصل فيها الدماء إلى أذقان الخيل، قبل أن يقود المسيح ألفًا من أنصاره لبناء عالم جديد.

هذه الرؤيا تغلغلت فى ضمائر المسيحيين فى أوروبا الغربية منذ القرون المسيحية، وبدت واضحة فى الحروب الصليبية.

الكتاب يتحدث عن مشاهير من الأوروبيين تعلقوا بهذه الرؤيا وسعوا إلى العمل بها، منهم الملك لويس الرابع عشر، واسحق نيوتن والشاعر الإنجليزى وليام بليك، وفى مرحلة تالية انتشرت هذه الرؤيا فى أمريكا وحازت شهرة واسعة، وصارت مثار اهتمام الشعب الأمريكى كله، وتأثرت سياسات الرئيس ريجان الداخلية والخارجية بهذا السفر، وفى تسعينيات القرن الماضى، كتب القس تيم لاهاى سلسلة عن نهاية الزمان والمجىء الثانى للمسيح وحرب هرمجدون، بيع منها ٦٠ مليون نسخة.

وبداية النهاية وفقًا لسفر الرؤيا تصاحبها علامات غامضة: شمس داكنة وقمر بلون الدم، نجوم تسقط على الأرض، جبابرة وأدعياء نبوة، وباء وطاعون ومجاعة، ثم يظهر الشيطان الذى هو عدو المسيح، وتصبح له سطوة مطلقة على الأرض، وبعد سنوات سبع من ظلم المسيح وقهره، ينزل يسوع المسيح من السماء متخفيًا فى هيئة محارب ليقود جيشًا سماويًا من قديسين وشهداء يبعثون، وينتصر على حشود الشيطان فى معركة أرمجدون، ثم يسلسل الشيطان ويحبسه فى حفرة لا قرار لها، ويقيم مملكة أرضية يحكمها لألف سنة، وفى نهاية الألفية يتحرر الشيطان من أغلاله، فيضطر المسيح لخوض معركة أخيرة، بعدها يبعث الموتى ويحاسب الأحياء والموتى على السواء.

المؤلف يتابع هذا السفر الأكثر إثارة فى الكتاب المقدس، ويشير إلى تجلياته فى السياسة الأمريكية المعاصرة، كما فى الأدب والقصائد الشعرية، ويقدم المؤلف فى الختام النص الكامل لسفر الرؤيا بتقسيماته المعروفة إلى إصحاحات وفقرات.

■

صفحات من تاريخ المرأة المصرية

عبدالمنعم الجميعى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ١٩٥ صفحة



يضم الكتاب عدداً من الدراسات التى تتناول صورة المرأة المصرية فى العصر الحديث. تتناول الدراسة الأولى قضية تعليم المرأة وعملها خصوصاً فى عهد محمد على وما بعده، إذ كانت المرأة قبل ذلك قعيدة البيت، فريسة للخرافة والجهل، حتى دعا رفاعة الطهطاوى إلى النهوض بأوضاعها أسوة بما رآه من أحوال النساء فى باريس، ثم جاءت دعوة قاسم أمين الشهيرة لتحرير المرأة بعده بنصف قرن تقريباً، وسبقتها دعوات على مبارك والأفغانى ومحمد عبده وعبدالله النديم، إضافة إلى نبوية موسى وملك حفنى ناصف ولبيبة قاسم وهدى شعراوى وغيرهن.

وتتناول الدراسة الثانية أوضاع المرأة المصرية فى عصر المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى، وقد عاصر الفترة الأخيرة من عصر المماليك ثم قدوم الحملة الفرنسية وأخيراً عصر محمد على، وهى فترات كانت حبلى بتحولات اجتماعية كبيرة، أثرت كثيراً على أحوال المرأة، ثم يستعرض فى الدراسة الثالثة المرأة فى عصر محمد على، ويركز فى الفصل الرابع على صالون الأميرة نازلى فاضل وما كان يدور فيه من جدل ونقاش، خصوصاً على صعيد حرية المرأة، وكان من رواد هذا الصالون الزعيم سعد زغلول والإمام محمد عبده والشيخ على يوسف وقاسم أمين ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد وغيرهم من رموز النهضة فى تلك المرحلة، ويخصص الدراسة الخامسة لتعليم المرأة الجامعى، والسادسة للسيدة فاطمة اليوسف التى يمكن اعتبارها نموذجًا لإبداع المرأة المصرية والعربية فى الفن والصحافة، فيما يفرد الدراسة السابعة والثامنة لشخصيتين لعبتا دوراً مهماً فى مسيرة الغناء العربى، هما منيرة المهدية وأم كلثوم مستعرضاً كفاح كل منهما فى الحياة حتى وصلتا إلى هذه المكانة المرموقة، خصوصاً أم كلثوم التى تربعت على عرش الغناء العربى ما يزيد على نصف قرن، ولعبت دور البطولة فى عدة أفلام سينمائية، وغنت لكبار الشعراء والموسيقيين فى زمانها، وفى دراسة تالية يعرض لصالونين من أشهر صالونات هذه المرحلة هما صالون مى زيادة وصالون هدى شعراوى، ويخصص دراسة للأفراح فى مصر الحديثة، يليها بأخرى عن أفراح الأنجال على وجه الخصوص، ولا يفوته أن يتناول حكاية ريا وسكينة السفاحتين الشهيرتين، اللتين تعد قضيتهما من أشهر حكايات الجرائم فى مصر، حيث اتهمتا بقتل نحو سبع عشرة امرأة فى الفترة من نوفمبر ١٩١٩ وحتى نوفمبر ١٩٢٠، وينهى بفصل أخير عن دور المرأة فى حياة زعماء مصر ورجالاتها البارزين من أمثال مصطفى كامل والشيخ على يوسف وسعد زغلول وإسماعيل صدقى ومصطفى النحاس والملك فاروق وجمال عبدالناصر وأنور السادات.

■

مها رداميس وروشتة تخسيس

تقديم: مفيد فوزى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧



«الطعام بأنواعه يؤثر على أجسادنا وعقولنا وطريقة تفكيرنا وتصرفاتنا... هكذا تقول الدكتورة مها رداميس فى كتابها اللافت الصادر حديثًا فى القاهرة عن الدار المصرية اللبنانية تحت عنوان: «مها رداميس وروشتة تخسيس» بتقديم للكاتب المعروف مفيد فوزى.

والكتاب الذى يقع فى مائتين وخمس عشرة صفحة من القطع فوق المتوسط تشير مؤلفته إلى أن هناك «عديداً من العادات السيئة التى نتبعها فى غذائنا، سواء فى نوعيته أو فى طريقة تناوله، كما أنه يهدف إلى الاحتفاظ بالصحة والشباب لأكبر فترة فى حياتنا، حيث إن الطعام ليس فقط «بنزين» الجسد، بل هو مصدر الإمداد بالطاقة، وبالتالى يحافظ على نضارة الوجه والجلد».

وتقول الدكتورة رداميس، التى يعرفها الجميع من خلال ظهورها فى البرنامج التليفزيونى المصرى «البيت بيتك»، أن هناك فرقًا بين إنقاص الوزن وعلاج السمنة، إذ إن إنقاص الوزن السريع يعود فى وقت سريع، فى أقل من سنة، فى حين أن العلاج الصحيح يسعى إلى معرفة سبب السمنة وعليه يؤدى إلى إنقاص الوزن وعلاج الخلل.

وتؤكد مها رداميس أن علاج السمنة يحتاج إلى طريقة خاصة ومختلفة عن بقية الأمراض.. فحينما يذهب المريض إلى طبيب أمراض الباطنة، سيدرك هذا الطبيب أن مريضه سيشفى بواسطة علاج معين، أما حينما يتبع نظاماً خاصاً فى الطعام لكى يصلح ترهلات جسده، ويشد من عضلاته، ويغير من ملامح وجهه الذابلة إلى ملامح تمتلئ بالصحة والعافية، فالأمر فى هذه الحالة يتعدى تناول جرعة من الدواء للوصول إلى الشفاء، وإنما يحتاج إلى جهد من المريض وقدرة وإرادة للتخلص من وزنه الزائد.

مها رداميس تنصح بأن يشرب الإنسان كمية كبيرة جداً من الماء، وأن يأكل على الأقل ثلاث وجبات أساسية، خصوصاً اللحوم أو الدجاج أو الأسماك أو أى بروتينات أخرى، على أن يبدأ بها لكى تعطيه الإحساس بالشبع، كما يجب أن تكون وجباته محتوية على الدهون فى المقليات التى يحتاجها الجسم: وهى الدهون الغنية بمضادات الأكسدة، لأن تناول الدهون فى المقليات سيسرع من ظهور التجاعيد على الجسم والوجه.

ترى الطبيبة الدكتورة مها رداميس، استشارية التغذية، أن «الريجيم نظام حياة، ويحتاج إلى إرادة»، كما تحدد أسباب زيادة الوزن، مجيبة عن سؤال مهم: هل تلعب الجينات الوراثية دورًا فى السمنة؟ مشيرة إلى أن الأكل يلعب دورًا مهمًا فى التغذية السليمة، ولكن ما يفعله المرء تجاه الأكل وما يفعله الأكل تجاه المرء هو الإجابة الأخيرة: مؤكدة أنه يجب على كل شخص ألا يستسلم لشهيته ويتناول طعاماً وهو يشعر بالشبع، ويجب ألا يأكل لمجرد الأكل، لأن تناول الطعام يجب أن يحدث حينما تشعر بالجوع.

وتحذر مها رداميس من الوجبات السريعة عالية السعرات والخالية من الفيتامينات.. فنظام الطعام يعالج أمراضاً كثيرة كأمراض السمنة والسكر

والكوليسترول وأمراض الكلى، ويعالج الطعام الذى يحتوى على كالسيوم هشاشة العظام.

وتؤكد أن السرطان يرتبط بزيادة الأكل وخصوصاً تناول السكر والدقيق والدهون والبروتينات العالية. وقد بدأ الانتشار الكثيف لمرض السرطان مع ظهور الوجبات السريعة.

الملك الذهبى

زاهى حواس

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٦٥ صفحة



زار الملايين الملك توت عنخ آمون فى مكانه بـ «المتحف المصرى»، كما رآه ملايين ...رين منذ عام ١٩٦١، حيث تاريخ أول ...ولة له خارجاً من مصر، طائفاً بلدان ...عالم وعلى مدى خمسة عشر عاماً، وهو الذى حكم مصر عشر سنوات ويرجح البعض أنه ابن لاخناتون.

ويتضمن الكتاب ستة من مقتنيات مقبرة توت عنخ آمون، حيث إنها كانت مخبأة فى بدروم المتحف المصرى بالقاهرة، بعد أن خرجت من مقبرة الملك، وقد سجلت تلك القطع على يد مكتشفها هيوارد كارتر، ونشرها فى مجلد علمى يعرفه علماء المصريات، وهنا تظهر تلك القطع للمرة الأولى من خلال صور أحد المصورين.

ولا شك أن حياة الملك الصغير الذى مات، دون أن يبلغ مرحلة الشباب، كانت لغزاً راوغ العلماء وعلى رأسهم مكتشفه هيوارد كارتر.

وبمناسبة الحديث عن الملك توت عنخ آمون، الذى كان يركب عجلته الحربية الذهبية ويقوم بالتصويب، يشير المؤلف إلى أن الهكسوس هم أول من أدخل العربات التى تجرها الخيول إلى مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد، لأغراض الحرب والصيد والمواكب الملكية، وكان أول النصوص المصرية القديمة الذى ذكر عربة هو لوحة الملك كامس أحد ملوك طيبة المحاربين، الذين حاربوا الهكسوس وغالباً ما كان فراعنة مصر يصورون فى مناظر معارك، على صروح المعابد، مشرفين على ساحة الحرب من خلال عرباتهم.

ويذكر المؤلف أن كنوز توت عنخ آمون التى عادت إلى مصر عام ١٩٨١ من رحلتها التى ابتدأت عام ١٩٦١ أى على مدى عشرين عاماً لم تعد تسافر ثانية بعدما سقط تمثال «سلكت، الإلهة الخشبية المذهبة - فى ألمانيا - والذى كان يحمى المقصورة التى يرقد فيها الملك توت عنخ آمون، فتدمر الكتف والرأس وانكسرت الحية الملكية التى تزين رأسها.

وكتب الصحفيون المصريون مقالات معترضين على إرسال القطع خارج مصر، واقتنع البرلمان المصرى وتم إقرار عدم سفر قطع توت عنخ آمون. لكن. حسبما جاء فى كتاب زاهى حواس. استطاعت سويسرا أن تقنع مصر ثانية بعد عشرين عاماً من توقف الملك عن السفر، وسافرت قطع توت عنخ آمون إلى العالم مرة أخرى.

يذكر حواس أن بعض ملوك الدولة الحديثة مازالوا مفقودين، ويمكن الكشف عنهم فى أى وقت والعثور على خبيئة ملكية تكشف لغز الملوك.

ويرى حواس أنه لا يوجد شىء اسمه لعنة الفراعنة، مشيراً إلى أن القدماء المصريين عندما نقشوا لعنات على مقابرهم أملوا فقط أن هذه الكلمات تحمى موتاهم ومعظم الناس الذين ارتبط موتهم بلعنة كانوا غرباء، وليس لهم أية علاقة بتنقيب المقابر، وشخص واحد فقط هو الذى ارتبط بالكشف ومات فى ذلك الوقت، وكان هو اللورد كارنارفون. وبعد خمسة وسبعين عاماً ظلت عبارة «لعنة الفراعنة» تبهر العامة ومنتجى هوليوود والحقيقة «أنه لا توجد أى لعنات».

ويتضمن الكتاب قصص حب. وقصص سرقة.. سرقة بعض قطع من مجموعة كنوز توت عنخ آمون بيعت بالملايين فى العشرينيات من القرن الماضى، وهى موجودة الآن فى أكثر من مكان باعتها عائلة هيوارد كارتر، مكتشف مقبرة الملك الذهبى.

إن قصة توت عنخ آمون شائقة وشائكة كحياته التى لم تدم طويلاً.. قصة تداول عليها عدد من رؤساء وزراء مصر ووزرائها ومسئوليها الكبار بهدف حماية حق مصر من المستعمرين الآثاريين الذين كانوا يريدون سرقة كل ما اكتشفوه أو على الأقل تقسيمه مناصفة بينهم وبين الدولة المصرية.

ويذكر حواس أن مكتشفات مقبرة توت عنخ آمون زادت على خمسة آلاف قطعة فنية(!!) وقد استغرق تنظيف المقبرة حوالى عشر سنوات(!!) وهى تتكون من أربع حجرات فقط.

دوريـات

مدى أخر

العدد الثالث، ربيع ٢٠٠٧



كان وجود أدباء وفنانين فلسطينيين خلف أسوار الدولة الإسرائيلية حاجزا منع الجمهور العربى من التعرف عليهم لسنوات قبل أن يكتب عنهم رجاء النقاش وغالى شكرى بعد عام ١٩٦٧ . ومع أن القارئ العربى انتبه لهؤلاء الأدباء فى أول الأمر كأدباء مقاومة إلا أنه سرعان ما انتبه إلى الموهبة الاستثنائية للكثير منهم بعيدا عن المضمون السياسى لنتاجهم الأدبى. أصبحت أسماء مثل محمود درويش وإميل حبيبى من أعلام الشعر والأدب العربى لقيمة إنتاجهم الأدبى. وكما كنا نحتاج إلى من يعرفنا بهؤلاء الأدباء كان من الصعب أحيانا على الأدباء والشعراء وبالأكثر النقاد من داخل فلسطين الإلمام بالتيارات الحديثة فى الآداب والفنون العربية. ومع الفضل الكبير بلا شك لجهود نقاد مثل النقاش وشكرى إلا أن الجهود الفردية لا تكفى لدعم الحركة الأدبية والنقدية الفلسطينية كما أن الاطلاع على النتاج الأدبى العربى والمشاركة فى تشكيل التيارات الفنية والأدبية الحديثة.

لهذا كان لصدور مجلة مدى الكرمل أهمية كبيرة حيث تصدر عن المركز العربى للدراسات الاجتماعية والتطبيقية فى مدينة حيفا. ويقول التعريف المنشور فى غلاف المجلة الداخلى إن المركز «معهد بحثى مستقل وغير ربحى تأسس عام ٢٠٠٠ فى مدينة حيفا» وأنه تأسس «استنادا إلى قناعة راسخة بضرورة وجود مركز أبحاث يديره فلسطينيون لغرض تشجيع مسالك جديدة فى التفكير حول السياسة الاجتماعية والمعضلات السياسية، والإسهام فى تغيير وضع الفلسطينيين من أقلية مقموعة ومضطهدة إلى مجموعة قومية تحظى بمساواة فردية وجماعية مع الأكثرية اليهودية فى الدولة. يهدف المركز كذلك إلى تشجيع الفكر والعمل الهادفين إلى التمكين الذاتى فى مجتمع غالبا ما يكون مجزأ وغير فعال فى تأمين احتياجاته وفى إسماع صوته».

يتضمن هذا العدد مقالات فى مجالات ثقافية وفنية وسياسية متعددة ويبدأ بمقالة لعبد الرحيم الشيخ أستاذ الدراسات الثقافية فى جامعة بيرزيت يناقش فيه رد الفعل الفلسطينى على تدهور صحة شارون الذى قد يوحى للبعض أنه عقاب إلهى على جرائم شارون ضد الشعب الفلسطينى. وبينما يناقش الكاتب حياة شارون السياسية وأفعاله يناقش فى نفس الوقت رد الفعل الفلسطينى اتجاه تدهور حالته من ناحية ثقافية وسوسيولجية. ويتضمن العدد أيضا مقالا لجميل خضر الأستاذ المشارك فى اللغة الإنجليزية بجامعة ستيسون ديلان بفلوريدا يقارن فيه بين مرحلة ما بعد الطنطورة وما بعد أوشفيتس انطلاقا من الفيلم الوثائقى «الفردوس المفقود» الذى يتابع حياة امرأة فلسطينية شابة من إسرائيل ووضعها فى المجتمع وكذلك وضعها كمواطنة من الدرجة الثانية فى إسرائيل. وتفرد الدورية مساحة كبيرة لأحد الفنون التى لا تلقى اهتماما كبيرا فى العادة فى المجتمعات العربية وهو فن النحت. تركز المقالة على أعمال المثال الفلسطينى جواد إبراهيم. ويتضمن العدد ملفا من ثلاثة مقالات عن فكر الإمام الغزالى كتبها عبد الكريم البرغوثى و أحمد محمود إغبارية وعبد الكريم البرغوثى على مقالة اغبارية إلى كانت بدورها تعلق على مقالة البرغوثى الأولى. يدل هذا الملف على اهتمام القائمين على تحرير مدى بإحياء حوار بين كتابها وبين إنعاش الجدل حول القضايا المختلفة.

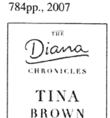
Drop Dead Beautiful
(موتى يا جميلة)
Jackie Collins
St. Martin's Press: $24.95, 512pp., 2007



بنت جاكى كولينز شهرتها الواسعة ومبيعاتها التى تحطم أرقاما قياسية على الرغبة الإنسانية القديمة فى معرفة أسرار الآخرين. وهى نفسها التى تصنع الصحافة الشعبية وتجعل من السير الذاتية صنفاً ناجحاً من الأدب. ولا تنكر جاكى كولينز أنها تستوحى أبطال أعمالها من عالم هوليوود الذى تتواجد فيه كممثلة مسلسلات شهيرة مع شقيقتها جوان كولينز. وتترك كولينز شخصياتها مبهمة عمدا، فدفع القارئ للتكهن بالاسم الحقيقى لكل شخصية يزيد من جاذبية الرواية وبالتالى من مبيعاتها. وبعد توقف طويل تعود كولينز إلى قوائم أكثر الكتب مبيعا بـــروايـــة Drop Dead Beautiful وشخصياتها التى ظهرت فى روايات سابقة للكاتبة. فالشخصية الأساسية فى الرواية هى لكى سانتانجلو ابنة زعيم المافيا الجميلة والناجحة فى مهنتها كمنتجة سينمائية وكمستثمرة فى مجال العقارات. وتقوم لكى التى قدمتها كولينز فى رواية تحمل اسمها ببناء منتجع كبير فى لوس فايجس كما أنها تخطط لاحتفال كبير بعيد ميلاد أبيها الخامس والتسعين دون أن تدرك أن عدو عائلتها أنطونى بونار يخطط للانتقام منهم. ولا يدرك انطونى أن زوجته تخونه مع البستانى المكسيكى ومع عميل فدرالى يعمل فى مجال المخدرات. وتأتى أغلب الإثارة فى الرواية من قصة ماكس ابنة لكى وهى فى السادسة عشرة من عمرها وتخبر أهلها أنها ذاهبة للقاء أصدقائها وما لا يعلمه والداها أنها فى الحقيقة فى طريقها إلى مقابلة رجل تعرفت عليه عبر الإنترنت. وتظهر بعض الشخصيات والخيوط الدرامية الممتدة من روايات كولينز السابقة فى أدوار ثانوية فى هذه الرواية مثل العلاقة المتقطعة بين ألكس، شريك لكى فى العمل وصديقته الغيورة وعلاقة صديقة لكى المقربة فينوس وصديقها النجم السينمائى. إن جاكى كولينز لا تكتفى باستلهام عالم هوليوود فى شخصيات روايتها ولكن يبدو أنها تستوحى أيضا فكرة الأجزاء فى العمل الفنى الأهم أنها تستوحى المعادلة الإنتاجية الهوليوودية المعروفة. بعض الإثارة، بعض الجنس، بعض من مظاهر الثراء والقوة ونهايات سعيدة

■

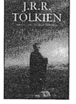
The Diana Chronicles
(يوميات ديانا)
Tina Brown
Harper Collins: $27.50, 784pp., 2007



مرت ذكرى وفاة الأميرة ديانا العاشرة هذا العام ولا تزال الصحف تحب التحدث عنها ولا يزال الجمهور يسعى لشراء أى منتجات تحمل اسمها أو صورتها. كما أن الكتب التى تتحدث عن حياتها ووفاتها لا تزال تتصدر قوائم أكثر الكتب مبيعا مثل هذا الكتاب الذى كتبته رئيسة التحرير السابقة لمجلتى فانتى فيرVanity Fair والنيويوركر. ولا تسعى الكاتبة هنا لكشف أى معلومات جديدة عن علاقات ديانا المتعددة أو أسرار خاصة بمصرعها ولكنها تخصص الكتاب للنظر فى علاقة ديانا بالعائلة المالكة البريطانية. وتقول الكاتبة إن وجود ديانا فى حد ذاته كان أفضل ما حدث للملكية البريطانية منذ إعادة تشارلز الثانى إلى العرش. وقد قامت ديانا بدورها فى رأى الكاتب باستغلال وضعها فى العائلة المالكة واستخدام اهتمام الصحافة بها لمصلحتها. وتقول الكاتبة إن ديانا كانت «خطرة عندما تحس بأنها جرحت» حتى فى طفولتها. وقد وقفت عائلة زوجها عاجزة عن التصرف وهى تراها تراوغ وسائل الاعلام وتستغلها بمجرد أن تنظر إلى الأسفل قليلا وتحرك رموشها فى اللقطات التى عرفت ب «ديانا الخجولة». ولكن حقيقة الأمر فى رأى الكاتبة كانت أن ديانا كانت معجبة بنفسها للدرجة التى عجزت معها عن فهم كيف يمكن لصديقها طبيب القلب الشهير أن يهتم بعمله فى المستشفى أكثر منها. قامت الكاتبة بإجراء مقابلات مع ٢٥٠ شخصاً عرفوا ديانا بشكل شخصى منهم إحدى صديقات والدتها التى قالت إن والدة ديانا لم تكن راضية عن زواجها المتعجل. وتصف الكاتبة مشهدا من الليلة التى تسبق زفاف ديانا وتشارلز الأسطورى لتقول إن ديانا التى كانت مقيمة فى كلارنس هاوس تلك الليلة تناولت وجبة ضخمة جدا ثم تقيأتها بالكامل حتى يظل مقاس فستان الزفاف مناسباً لها ثم نزلت فيما بعد إلى الطابق الأسفل حيث ركبت دراجة مملوكة لأحد العاملين بالقصر الملكى وقادتها فى دوائر وهى تهتف «غدا سأتزوج أمير ويلز». وترى الكاتبة أن هذا التصرف مطابق لشخصية ديانا التى ارتبطت بخدم منزل والدها أكثر بكثير من ارتباطها بأفراد عائلتها. كما أنها لم تتلق تعليما منتظما مما بدا واضحا فى نطقها السوقى لبعض الحروف وتعلقها الشديد بالروايات الرومانسية الرخيصة. ويظل تساؤل حول غرض الكاتبة من تأليف هذا الكتاب بما هو معروف عنها من سعيها للتقرب للعائلة المالكة.

■

The Children of Hurin
(أبناء هورين)
Toiken .R.R.J
Houghton Mifflin: 313pp., $25.99, 2007



نجح تولكين فى خلق عالم مواز متكامل فى مجموعته الأشهر Lord of the Rings ورواية The Hobbit التى كانت بمثابة تقدمه لهذه المجموعة. كان عالم تولكين غنيا بالخيال لدرجة استحال معها مقارنة العمل بزمان أو مكان معينين فى الواقع وهو الأمر الذى دفع الكثير من القراء للاعتقاد أن تولكين كاتب من عصور سابقة. الحقيقة أن تولكين معاصر إلى حد ما، فقد ولد عام ١٨٩٢ وتوفى عامى ١٩٧٣ ولا زال حفيده آدم توليكين وهو أيضا مترجم أعماله للفرنسية، ينجح فى أن يكشف لنا عن روايات وكتب غير منشورة من تأليف جده. فبعد مرور ثلاثين عاماً على صدور كتابه الأخير Silmarillion عام ١٩٧٧ يصدر The Children of Hurin الذى يصفه آدم تولكين فى مقال يقدم به للكتاب على أنه الجزء الثالث من كتابات جده حول «الأرض الوسطى» ويحكى أن والده كريستوفر تولكين قد قام بجمع مقاطع تلك الرواية باعتناء بالغ ويقول إنها ستمثل خطوة للوراء بالنسبة لقراء The Hobbits وLord of the Rings حيث تمكنهم من تأمل عالم متكامل من الأبطال والمتشردين، عالم من الشهامة والمخاطرة والأمل والمآسى. وتولى الرسام الان لى رسم شخصيات هذا العمل كما كان قد قام من قبل بجميع الرسوم التى تخللت كتب تولكين السابقة كما أنه فاز بجائزة الأوسكار لمسئوليته عن التصور المرئى لثلاثية Lord of the Rings عند تحويلها إلى فيلم. والصور التى رسمها لى تؤكد أن الشخصيات لن تبدو غريبة بالنسبة لمن تابع أعمال تولكين السابقة ومع ذلك فلا تفقد الروايات المتعاقبة إبهارها.

■

Einstein: His Life and Universe
(أينشتاين: حياته وكونه)
Walter Isaacson
Simon and Schuster: $32.00, 704pp., 2007



لم ينل أى عالم الشهرة والشعبية التى نالها اينشتاين. فالجمهور العادى يذكر اسمه كرمز للذكاء دون أن يكون على دراية بإنجازاته العلمية بل إن عامة الناس يتندرون بقلة عدد من يستوعب نظريات أينشتاين. ومع ذلك فإن صورة اينشتاين الإنسان كانت أكثر غموضا بكثير من صورته كعالم، فما قيل عنه كأب أو زوج أو صديق ليس إلا مقتطفات بسيطة وهى المقتطفات التى جمعها والتر أيزاكسون فى كتابه الجديد عن اينشتاين ليرسم لنا أكثر صور أينشتاين وضوحا حتى اليوم. وأهمية الكتاب الحقيقية هى أنه أول عمل عن حياة اينشتاين يفحص عن قرب الكم الضخم من المراسلات الشخصية التى تركها والتى كانت غير متاحة للجمهور طوال السنوات الماضية. استطاع الكاتب بمهارته الشخصية وبفضل هذه المراسلات أن يرسم صورة أكثر عدلا لحياة اينشتاين التى تمت مهاجمتها مرارا. فعلى سبيل المثال نال عمل أينشتاين كموظف فى مكتب براءات الاختراع السويسرى سخرية أغلب الكتاب ولكن أيزاكسون يرى أن تلك الوظيفة والتى بدأ فى نشر نظرياته خلال عمله بها مكنته من الاستقلال عن المتطلبات والضغوط التى

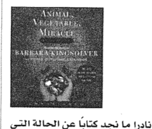
كان سيقع تحتها من قبل المشرفين على عمله فى حالة ما إذا كان عالمًا ضمن مؤسسة أكاديمية. ويرى الكاتب أن أكثر المعلومات المغلوطة انتشارا عن اينشتاين كانت أنه لم يكن ينجح فى الرياضيات خلال سنوات دراسته وينفى الكاتب هذه الشائعة الشهيرة مؤكدا على أن قدرة اينشتاين على تخيل المعادلات والمفاهيم الرياضية ساعدته على فهم أكثر مفاهيم الرياضيات تعقيدا بالرغم من كراهيته للسلطة بما فى ذلك التعليم النظامى وسلطة المعلمين.

■

Animal, Vegtable, Miracle: A Year of Food Life

(حيوان، نبات، معجزة: عام فى حياة الطعام)

Barbara Kingslover, Camille Kingslover, Steven L. Hopp
HarperCollins: $26.95, 384pp., 2007



نادرا ما نجد كتابًا عن الحالة التى وصلت إليها صناعة الطعام والزراعة فى هذا العصر يهتم بتقديم البدائل بقدر اهتمامه بأن يبين لنا ضرر الأساليب الحديثة. هذا الكتاب مختلف من هذه الناحية. كما أنه مختلف لأنه مؤلفته راوية وشاعرة وليس عالمة نباتات فهى بالتالى تقدم لنا تجربة حياتية فى المقام الأول وإن كانت مدعمة بمعلومات وأسس علمية. إن تجربة المؤلفة يمكن اختصارها فى أنها قد قررت أن تجرب لمدة سنة واحدة القاعدة التى طالما دعا لها أنصار الغذاء الطبيعى وهى أن ما نأكله يجب أن يأتى من محيطنا المباشر وفى موسمه الطبيعى. فلمدة عام عاشت الكاتبة وعائلتها التى اشتركت معها فى تأليف الكتاب على المنتجات الزراعية التى زرعوها فى حديقتهم بالأساس ثم على المنتجات المحلية الموسمية بما فى ذلك اللحوم التى اختاروها من أسواق المزارعين. كما أن العائلة التى ألفت الكتاب عملت على حفظ الفائض من منتجاتهم الزراعية بدءاً من شهر أبريل بأشكال تقليدية أيضا فجمدوا وجففوا الخضروات وصنعوا مربات وسجق ومخللات عاشوا عليها فى شهور الشتاء حتى مايو التالى حين انتهت التجربة ولم يكن قد بقى من كل ما صنعوه غير القليل من صلصة المعكرونة وبعض خضروات مجمدة والديك الرومى الأخير. وبقدر المتعة والاستفادة التى نالتها العائلة إلا أن هناك شكًا أن تستطيع عائلة تحيا فى المدينة تكرار التجربة بسهولة. ولا تكتفى المؤلفة بسرد التجربة بشكل روائى بل إنها تناقش العديد من القضايا الجادة فى سياق الكتاب مثل الإفراط فى استهلاك الطاقة الملازم للتصنيع الحديث للأغذية و دور المواصفات التى تحددها المتاجر الكبرى للأغذية فى التغير المناخى وفى القضاء على التنوع الطبيعى فى المنتجات الزراعية. يشترك مع المؤلفة الأساسية زوجها وهو عالم أحياء ويقدم المعلومات العلمية فى الكتاب بينما تتولى ابنتها كاميل التى تدرس علم الأحياء أيضا فى الجامعة كتابة مقال لكل شهر فى التجربة مصحوب بوصفات بسيطة.

■

The Reagan Diaries

(مذكرات ريجان)

Ronald Reagan
HarperCollins: $35.0, 784pp., 2007



لم يتعاف العالم حتى الآن من تأثير عصر ريجان. فالرئيس الذى تؤرخ ولايته (هو ومارجريت تاتشر فى بريطانيا) لعهد جديد من سيطرة المحافظين على المجتمعات الغربية. وقد كتب كثيرون من مختلف الاتجاهات حول نتائج هذا العهد ودهاليزه ولكن المثير والجديد فى هذا الكتاب أنه تجميع لمذكرات ريجان حول الاجتماعات المختلفة التى عقدها مع سياسيين وشخصيات أخرى مختلفة خلال فترة حكمه للولايات المتحدة ومع أن المذكرات سياسية وجافة بشكل مباشر إلا أن هموم ريجان ومخاوفه تظهر فيها بشكل واضح خاصة مخاوفه من تسرب أخبار معينة إلى الصحافة. وتظهر فى تلك المذكرات الآراء الحقيقية التى كان يحملها لبعض الشخصيات العامة من ضمنها القس ديزموند توتو الذى يصفه بالساذج ويرى ريجان أن أسلوبه فى محاربة النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا وهو «الدبلوماسية الهادئة»، وليس المقاطعة الاقتصادية. كما يبدو عدم ارتياحه للمعارضة فى تعليقه على خطاب تلقاه من طالب يدعوه فيه إلى وقف التقدم النووى. على الجانب الشخصى يظهر فى مذكراته حبه وتقديره الشديد لزوجته نانسى ريجان وتدينه فيكتب فى الفترة التالية مباشرة لمحاولة اغتياله أنه لن يستطيع اللجوء إلى الله فى محنته دون أن يصلى للقاتل الذى يصفه بالنعجة الضالة. وفى إشارة شديدة المباشرة لنوع الأداء الذى ينتقد عليه ريجان عادة يعترف فى مذكراته بأنه اقنع أعضاء اجتماع ما عقده فى العام ١٩٨٣ بعمل ما يجب عمله وليس ما يصح سياسيا. وقد تكون من مميزات الكتاب أن التعليق على الأحداث قليل مما يجعل النص اكثر سلاسة ولكن ذلك من الممكن أن يجعل القارئ الذى لم يعاصر تلك الأحداث يعجز عن فهم سياق بعض النقاط المهمة.

■

Transnational Broadcasting Studies
Media on the Frontlines: Arab Satellite TV in Iraq

(الاعلام على الجبهة، الفضائيات العربية)

Vol. 2 No1, $19.95, 250pp



صدر مؤخرا العدد الثانى من دورية Transnational Broadcasting Studies والتى تصدر عن الجامعة الأمريكية فى القاهرة وتعنى بشئون الصحافة المصورة. ومن المعروف أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة تملك قسما مهما لدراسات الصحافة المصورة باسم كمال أدهم. ويناقش هذا العدد أحدث تيارات وأساليب التغطية الصحفية فى القنوات الفضائية العربية والإسلامية. وتناولت الأعداد السابقة من هذه الدورية مواضيع جدلية مثل الحروب الثقافية التى تتمركز حول الموسيقى العربية المصورة وتأثير تلفزيون الواقع العربى على الديموقراطية فى المنطقة. موضوع الغلاف فى العدد الحالى هو تأثير القنوات الفضائية على المجتمع العراقى ويناقش فيها عددا من علماء السياسة والاجتماع والإعلام تأثير انتشار البث الفضائى الإخبارى والترفيهى على المواطن العراقى. كما يتضمن العدد لقاءات مع العديد من الشخصيات الإعلامية ومقالات مهمة فى مجالات إعلامية مختلفة. وقد مدحت فاطمة المرنيسى الدورية التى تصدر بالاشتراك مع كلية سانت انطونى فى جامعة أوكسفورد وقالت إنها من أكثر مصادر الأخبار الإعلامية تجددا فى العالم العربى.

■

Mariam's Maze

(متاهة مريم)

Mansoura Ez Eldin
AUC Press: $17.95, 112pp., 2007



صدر عن الجامعة الأمريكية فى القاهرة مؤخرا الترجمة الإنجليزية لرواية متاهة مريم للروائية والصحفية منصورة عز الدين. والرواية التى صدرت بالعربية منذ سنوات تختلف بشكل كبير عن أغلب روايات جيلها التى عادة ما تتسم بالواقعية والذاتية الشديدتين. تتتبع متاهة مريم حيرة الفتاة مريم التى تدرس فى الجامعة وتعيش بعيدا عن بيت أهلها. تبدأ الرواية حين تستيقظ مريم مشوشة التفكير بخصوص الأحداث التى مرت بها ومدى قربها أو بعدها وتبدأ فى رحلة بحث تحاول التأكد فيها من هويتها ومن الزمن الذى استيقظت فيه. تبدأ البطلة تدريجيا فى استرجاع أحداث حياتها وعلاقاتها وتحاول الوصول الى من تعرف من الأصدقاء والأهل فى مشوار طويل يشبه المتاهة ولكنها لا تنجح فى التأكده من أى شىء. وتستعرض الرواية حياة أسرة التاجى التى تنتمى لها مريم بشخصياتها المتعددة غير النمطية وعلاقات مريم بهذه العائلة وذكرياتها معهم عبر استخدام غير معلن لمفهوم القرين. لا تقدم الرواية أجوبة سهلة جاهزة ولا تغرق فى الواقعية التقريرية كما أنها لا تتمادى فى الفنتازية لتترك القارئ فى حيرة حول حقيقة مريم ومصيرها. نفس الحيرة التى تستولى على البطلة، تنجح الكاتبة ببراعة أن تنقلها للقارئ. والكاتبة صحفية فى جريدة أخبار الأدب ولها قصص قصيرة نشرت قبل متاهة مريم ولم تترجم للإنجليزية.

■



أخطاء الترجمة وأخلاقيات البحث الأنثروبولوجى

اليــــزابيث ســــميث(*)

تعكس هذه الرسالة (والتي حرصت «وجهات نظر» على نشرها كاملة) مشكلة دقة الترجمة وحرفيتها في عالمنا العربي عمومًا، وربما في مصر خصوصًا. وكانت «وجهات نظر» قد ناقشت هذه المشكلة في أكثر من مقال (سبتمبر ٢٠٠٤، نوفمبر ٢٠٠٦ - ديسمبر ٢٠٠٦).

وأيًا ما كان الأمر، فالمسألة تقتضى اعتذارًا - أو بالأحرى - اعتذارين لقارئ هذه المجلة التي لا يتوقع منها غير الدقة. ولكاتبة المقال الأصلي التي - احترامًا منها لعلمها وقلمها ولهذه المجلة - حرصت على تدقيق كل لفظ وحرف.

المحـــرر

فوجئت عند وصولى للقاهرة فى شهر يونيو بمعرفة أن مجلة «وجهات نظر» قد قامت فى عدد مايو ٢٠٠٧، بترجمة ونشر مقال ضمن كتاب أصدرته دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية بالقاهرة[1]. وحين قرأت الترجمة، انزعجت بشدة بسبب كم وطبيعة الأخطاء التى تضمنتها. لم يستشرنى أحد فيما يخص دقة الترجمة، ولم تتح لى فرصة مراجعتها قبل نشرها. وقد أدت هذه الأخطاء إلى:

١- تشويه مقولاتى الأصلية بشدة، ٢- نشر مقالى على نحو انطوى على أخطاء عديدة فى المصطلحات، والتاريخ، والحقائق الأساسية، ٣- تهديد مكانتى ومصداقيتى بشكل شخصى وكباحثة أكاديمية بين من أكتب عنهم. والأهم من ذلك، فقد أدى غياب وعى المترجمة بمناهج البحث الأنثروبولوجى إلى الكشف عن هويات المشاركين فى البحث الذين غيرت أسماءهم قصداً.

هدفى فى هذا التعليق ليس سرد وتصحيح كل أخطاء الترجمة، ذلك أنها أكثر من أن تعد، لكن توضيح كيف تم تشويه آرائى، وكيف تم انتهاك أخلاقيات البحث الأنثروبولوجى.

يعتمد الفصل المنشور فى كتاب «القاهرة الكوزموبوليتانية» على بحث بدأته فى عام ١٩٩٧ حول كيفية تمثيل النوبيين فى الحياة العامة، وذلك فى مجالات السياحة، والمتاحف، ووسائل الإعلام، وفى أنشطة الجمعيات النوبية. فى ذلك الفصل، أناقش أربعة مواقف حياتية متكررة قابلتها فى بحثى الميدانى، وفيها يتم الجدل بشأن مفاهيم العرق، واللون، والهوية.

المثالان الأولان يتناولان رد فعل النوبيين فى القاهرة على تمثيل النوبيين فى الجرائد والتليفزيون. أتناول بالبحث مثالاً تم فيه استخدام كلمة «البرابرة» فى مقال صحفى، ومثالاً آخر تم فيه استخدام موسيقى نوبية فى دراما تليفزيونية تاريخية فى مجال تناول شخصية عبده. فى المثالين الآخرين، أصف رد فعل النساء النوبيات فى أسوان على تمثيلهن فى التليفزيون، وفى متحف النوبة، وفى مناقشاتهن مع نظرائهن من بقية المصريين والمصريات. التيمات المشتركة بين هذه الأمثلة هى أن النوبيين يشعرون بحب عميق نحو مصر، وانتمائهم الوطنى لها، لكن فى نفس الوقت يتم غالباً ربطهم جغرافياً بأفريقيا جنوب الصحراء، وبحالة بدائية، ويعتبر الكثيرون لون بشرتهم الداكن خاصية جسدية سلبية. وقد أوضحت أن ردود أفعالهم على هذه التصورات تختلف باختلاف خلفياتهم، وطبقاتهم، وجنسهم من ذكر وأنثى، وأماكن إقامتهم. وهدفى من ذلك المقال كان، كما الحال فى بقية عملى، محاولة وضع تلك الأمثلة فى السياق الأوسع لدور النوبيين فى المجتمع المصرى اعتماداً على الخلفية التاريخية والبحث الاثنوجرافى.



تشمل أخطاء الترجمة استخدام مفردات غير صحيحة (تمت ترجمة التعبير vis-à-vis بـ «تأشيرة!»)، والترجمة غير الصحيحة للتواريخ (تمت ترجمة «الستينيات» بـ «١٩٦٠» فى المقال بأكمله)، واختلاق أجزاء من جمل كاملة حين لا تفهم المترجمة المقصود بالنص الإنجليزى. غير أن أكثر الأخطاء إثارة للقلق هى ثلاثة أمثلة لجمل فى صيغة النفى بالأصل الإنجليزى، وقد قامت المترجمة إما باستبعاد أداة النفى فى الترجمة العربية، أو شوهت الجملة لإعطاء معنى عكس ما تحمله الجملة الإنجليزية. سوف أعطى مثالين لتوضيح مدى جدية هذه النوعية من الأخطاء:

فى صفحة ٤٠١ من أصل المقال المنشور بالإنجليزية، أناقش كيفية تمثيل النوبيين فى الخطابات العامة. أقول: «تؤكد الخطابات المهيمنة فيما يخص الوحدة الوطنية، والتى تظهر يوميا فى الصحف شبه الحكومية، على أن مصر لا يوجد بها عنصرية، أو اثنيات، أو أقليات»، وثمة محاولات تُبذَل «للتفريق بين مصر وبين الأمم التى لديها، على سبيل المثال: تاريخ لعنصرية مؤسساتية (الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، أو التى تواجه خطر حركات انفصالية متمركزة حول الاثنية (المقاومة الكردية فى أمم متعددة)، أو التى تواجه حرباً أهلية فعلية (السودان)». وبكلمات أخرى، ما أقوله هو أن مصر لا تتشابه مع جنوب أفريقيا أو أى مثال آخر من الأمثلة المذكورة فيما يخص التفرقة العنصرية أو مشاكل الأقليات الاثنية. ومع ذلك، فهذا هو النحو الذى جاءت عليه ترجمة الجملة الأخيرة:

«فى مثل تلك المناقشات تبرز مصر من بين الأمم - على سبيل المثال - مجسدة تاريخ التمييز العنصرى الحقيقى (كالولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، وخطر العرقية، والحركات الانفصالية (مثل المقاومة الكردية فى الولايات المتعددة) أو الفعلية مثل الحرب الأهلية فى السودان».

الفرق بين الأصل والترجمة واضح: بينما أقول إن تلك النقاشات تقارن مصر بتلك الحالات الأخرى كى توضح كيف أن مصر مختلفة، تعطى الترجمة انطباعاً خاطئاً بأننى أعتقد أن موقف النوبيين بمصر يشابه جنوب أفريقيا العنصرية، أو تاريخ الفصل العنصرى فى الولايات المتحدة، أو الحركة الوطنية الكردية، أو الحرب الأهلية فى السودان. هذه المقولات تثير السخرية، ولا تعبر لا عن الحقيقة ولا عن رأيى كباحثة. ففى الفقرة التالية بصفحة ٤٠١ من الأصل الإنجليزى، أؤكد، على نحو مباشر: «بوضوح تام، لا يمثل اللون فى مصر أساساً لهويات جمعية من قبيل

(*) د. اليزابيث سميث أستاذة مساعدة للأنثروبولوجيا فى جامعة فيرمونت، وحصلت على شهادة الدكتوراه فى الأنثروبولوجيا الثقافية من جامعة نيويورك فى عام ٢٠٠٦، وقد عملت ودرست فى مصر لما يقارب الستة أعوام منذ ١٩٩٢، ودرست اللغة العربية لأكثر من ٧ سنوات.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

«أسود» أو «أبيض» أو أى لون آخر. الأكثر أهمية هو الطبقة، والإقليم، والدين، والعائلة».

ذلك أنه من الواضح لى، من خلال سنوات من البحث والإقامة فى مصر، وبالاتفاق مع نتاج دراسات باحثين آخرين، أن المكانة والهوية الاجتماعية فى مصر لا يتم تقييمهما لا قانونياً ولا اجتماعياً على أساس لون البشرة أو الانتماء لجماعة عرقية مفترضة فقط. فالهوية الاجتماعية تتأثر أكثر بالعوامل الاقتصادية، والجغرافية، ولأى دين أو عائلة ينتمى الفرد، ولا توجد جماعات تحدد هويتها بوضوح على أنها «أناس سود» أو «بيض» فى مصر.

وعلاوة على ذلك، فإننى أوضح فى بقية المقال كيف يفكر الناس فعلاً ويتكلمون عن لون البشرة معطية عدة أمثلة، ومقدمة تحليلى القائم على هذه الأمثلة، وعلى السياق التاريخى. ورغم ذلك، فإن العبارات المحورية السابقة قد تمت ترجمتها على نحو خاطئ: «للمزيد من التوضيح، لون البشرة المصرية يمثل أساس الكشف عن الهوية الشخصية الجماعية مثل «الأسود» -«الأبيض» أو أى لون آخر. والأكثر أهمية الطبقة الاجتماعية، الإقليم، الدين ثم الأصول العائلية العريقة». (ص ٣٤) لاحظ هنا كيف تزعم المترجمة أن لون البشرة هو أهم العوامل، وهو عكس ما أقوله تماماً فى الأصل الإنجليزى.

بعض مشكلات الترجمة الأخرى نتاج ظاهرة أوسع أوثق لها فى المقال: وهى أن معظم المصريين ليس لديهم أبسط المعلومات عن تاريخ منطقة النوبة، وثقافتها، وخصوصاً اللغة النوبية. فبسبب عدم معرفة المترجمة، تمت ترجمة الجزء المتعلق باللغة النوبية على نحو خاطئ. فى صفحة ٣٦، تقول الترجمة: «ولأنهم يتكلمون لغتى الكنوز والفدكا لذلك فاللغتان لا قيمة لهما من حيث التداول القواعدى والتاريخى بين النوبيين وغير النوبيين».

فى الأصل الإنجليزى، أشير إلى حقيقة أنه بالرغم من أن اللغة النوبية لها كل خصائص اللغات الإنسانية من قبيل الأجرومية والقدرة على التفكير المجرد، يتم اعتبارها، عن خطأ، فى مكانة أدنى من قبل متحدثيها والآخرين لأنها لغة شفهية لا تكتب منذ دخول النوبة فى الإسلام، وليس لمجرد وجود لهجتين، كما تقول الترجمة. واللغة النوبية لم تعد لغة مكتوبة منذ القرن الـ ١٣ أو القرن الـ ١٥ الميلاديين، حين أخذت الأحرف العربية مكان نظيرتها النوبية بعد دخول النوبة فى الإسلام. وقد وقع ذلك منذ العام ٦٠٠ أو العام ٨٠٠ على وجه التقريب، وليس عام ١٩٨٠ كما تقول الترجمة. والنوبيون فى القاهرة الذين كانوا يحضرون دروساً لتعلم قراءة وكتابة الأحرف النوبية فى العام ٢٠٠١ لم يكونوا « يعرفون اللغتين النوبيتين (الكنوز/ الفدكا) قراءة وكتابة» كما تقول المترجمة.



فى الواقع، القليل من المتحدثين بالنوبية يعرفون اللهجتين، بل إنهم يتحدثون إحداهما. ورغم أن إحدى اللهجتين كانت اللغة الأم لمن كانوا يترددون على دروس تعليم اللغة النوبية. فلم يكن أى منهم يستطيع الكتابة بالأحرف النوبية القديمة، لأن نظام الكتابة ذلك لم يتم استخدامه على مدى ما لا يقل عن ٦٠٠ عام، كما أوضحت قبلاً. كان ينبغى أن يكون ذلك أمراً بديهياً بما أنهم كانوا يتلقون دروساً فى تعلم الأحرف النوبية (لم تكن «حفلات» كما ترجمت المترجمة كلمة «دروس»).

تشويه آرائى الشخصية كان أمراً مثيراً للانزعاج، وله تبعاته على بصفة شخصية وأكاديمية، كما أن نشر معلومات غير صحيحة - باسمى - عن النوبة والنوبيين فى مصر أمر آخر يبعث على الانزعاج. ومع ذلك، فإن، سوء فهم البحث الأنثروبولوجى له تبعات أشمل وأكثر جدية.

يعطى هامش المترجمة رقم ٤ تعريفاً غير صحيح للمنهج الرئيسى الذى تعتمده الأنثروبولوجيا الثقافية، وهو «الاثنوجرافيا». ومن أجل التوضيح، فالاثنوجرافيا هى، طبقاً لموقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»:

«دراسة الباحث للسلوك الإنسانى فى المجال الطبيعى الذى يعيش فيه الناس. وعلى وجه التحديد، تشير الاثنوجرافيا إلى وصف الأنظمة الثقافية أو جانب من جوانب الثقافة بناء على البحث الميدانى الذى ينغمس فيه الباحث فى نشاطات الحياة اليومية الدائرة فى الجماعة البشرية المحددة لغرض وصف السياق الاجتماعى، والعلاقات، والعمليات ذات الصلة بالموضوع تحت الدراسة»[2].

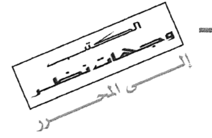
فالانثروبولوجيا اليوم لم تعد، كما تقول المترجمة، «واحداً من العلوم الإنسانية الذى يميل - حصريا - إلى دراسة المجتمعات البدائية».

فى مسعاها لتحديد معنى الاثنوجرافيا، عادت المترجمة لتعريف قاموسى يصف البحث الانثروبولوجى فى فرنسا فيما قبل الحرب العالمية الثانية، خلال عصر



تعطى الترجمة انطباعا خاطئاً بأننى أعتقد أن موقف النوبيين بمصر يشابه جنوب أفريقيا العنصرية، أو تاريخ الفصل العنصرى فى الولايات المتحدة





الاستعمار الأوروبى حين سادت النزعة العلمية لفهم ما تم اعتباره، فى الدول المستعمَرة، ثقافات بدائية. خلال الخمسين أو الستين عاماً التى أعقبت ذلك، وفى أعقاب الحركات الوطنية الثورية وتفكيك الاستعمار، تغير علم الانثروبولوجيا ذاته. ذلك أن البحث الاثنوجرافى يتم إجراؤه، فى الوقت الحاضر، فى المجتمعات المعاصرة حول العالم، ليس فقط فى مصر والبلاد النامية، لكن أيضاً فى الولايات المتحدة وأوروبا، فى أماكن حضرية وريفية، فى المدن الكبيرة والقرى الصغيرة. خطأ المترجمة هنا فى اعتماد هذا التعريف القديم يعطى انطباعاً خاطئاً بأن دراستى مؤسسة على اعتبار النوبيين، أو حتى مصر بشكل عام، «مجتمعًا بدائيًا»، ذلك فى الوقت الذى ترفض فيه الانثروبولوجيا الحديثة مصطلح «بدائى» لأنه مصطلح استعمارى، لا مكان له أو لتطبيقاته فى مصر المعاصرة أو فى أى مكان آخر اليوم.



الانغماس فى الحياة اليومية للناس وللمؤسسات، وهو ما فعلت فى بحثى الاثنوجرافى فى القاهرة وأسوان، يتطلب بناء علاقات اجتماعية تقوم على الثقة فى كباحثة وكإنسانة. وإحدى المسئوليات الأخلاقية التى تقع على عاتق علماء الأنثروبولوجيا هى فعل أقصى ما فى وسعهم لحماية الأشخاص موضع الدراسة من أى تأثيرات سلبية قد تترتب على البحث، أو بعبارة أخرى: «التأكد من أن بحثهم لا يعرض سلامة، أو كرامة، أو خصوصية الأشخاص الذين يعملون، أو يجرون أبحاثهم، أو يجرون أى أنشطة مهنية معهم»[3] وإحدى الوسائل الشائعة لفعل ذلك هى حماية هويات المشاركين فى الدراسات المنشورة عن طريق استخدام أسماء مستعارة، وتغيير بعض الخصائص أو التفاصيل الاجتماعية المتصلة بحياتهم، كى يصبح من الصعب تحديد هوياتهم. وعلى سبيل المثال، فقد وصفت زينة (وهذا ليس اسمها الحقيقى) فى الأصل الإنجليزى بأنها «طالبة فى جامعة بالعاصمة الإقليمية أسيوط»، لأنه لم يكن من الضرورى تحديد الجامعة التى تدرس بها. لكن، لسبب ما، ترجمت المترجمة ذلك الجزء كما يلى: «تدرس زينة فى جامعة جنوب الوادى» (٣٨) والسبب الذى من أجله «لم يذكرها النص صراحة»، كما أشارت المترجمة فى هامش ١٣ فى ص ٤١، هو أننى كنت مهتمة بحماية هوية زينة الحقيقية، ولذلك لم أود التصريح باسم الجامعة التى تدرس بها.

كون المترجمة قد حاولت تخمين، وتضمين الترجمة، ما اعتقدت أنها التفاصيل «الحقيقية» لنصى، (وهو ما فعلته فى هوامشها التى أتت غالباً إما غير دقيقة أو غير ذات صلة) هو أمر يدعو للاستياء، لكن الأكثر إثارة للاستياء هو أننى أورد صراحة فى النص الأصلى السبب الذى يجعلنى أستخدم الأسماء المستعارة، ومع ذلك، وهو الأمر المدهش والمسىء حقاً، فقد أوردت المترجمة الأسماء الحقيقية للعديد من المشاركين فى البحث. فى هوامشها، قالت المترجمة أن شخصاً آخر أخبرها بالهويات الحقيقية للأشخاص الذين غيرت أنا أسماءهم، وأوردت تلك الأسماء لأسباب غير مفهومة تماماً بالنسبة لى.

لماذا يورد الباحثون الأنثروبولوجيون الأسماء الحقيقية للأشخاص المشاركين فى البحث أحياناً، ثم يستخدمون، فى أحيان أخرى، أسماء مستعارة لحماية هوياتهم الحقيقية؟ بعض المشاركين يطلبون منى استخدام أسمائهم الحقيقية، البعض الآخر شخصيات عامة ومعروفة جيداً وكتاباتهم منشورة ومتاحة. خلاف هذه الحالات، فإن ما أتبعه هو استخدام أسماء مستعارة. وقد أوضحت ذلك فى هامش بالنص الأصلى من الكتاب المطبوع:

«أستخدم فى هذا الفصل مزيجاً من الأسماء الحقيقية والأسماء المستعارة. أستخدم الأسماء الحقيقية للشخصيات العامة ومؤلفى الأعمال المطبوعة التى أستشهد بها، لكننى أستخدم أسماء مستعارة حين أناقش نشاط نفس هؤلاء الأشخاص فى أنشطة الجمعيات النوبية، أو حين أورد مقتطفات من مقابلات شخصية أجريتها معهم. الأشخاص الذين اختاروا استخدام أسمائهم الحقيقية، سواء هنا أو فى مطبوعات سابقة من تأليفى أو تأليف آخرين، يتم تعريفهم بناء على ذلك» (٤١٣) .

لقد قامت المترجمة بترجمة ذلك الهامش، وهو أمر عرفته لأن النص المترجم تم نشره أيضاً فى منتدى من منتديات الإنترنت، لكن لسبب ما اختارت المجلة عدم نشره. وقامت المجلة بدلاً من ذلك بنشر هوامش المترجمة التى قامت فيها بالكشف عن أسماء الأشخاص التى قمت أنا بتغييرها أو حذفها احتراماً لخصوصيتهم. الأمر الذى يظل محيراً لى هو إن كانت المترجمة قد ترجمت تلك الفقرة عن الأسماء المستعارة، من المؤكد أنها فهمت أن بعض الأسماء حقيقية وبعضها مستعار. ولو أن طرفاً ثالثاً قد أخبرها بالاسم الحقيقى لأى شخص فى النص، لم يكن هناك حاجة للتصريح بتلك الأسماء فى النص المترجم، ولم يكن من الملائم أن تقوم المجلة بنشر ذلك.



ذلك الخرق للخصوصية ولأخلاقيات البحث الأنثروبولوجى من قبل المترجمة، والطرف الثالث، والمجلة له تداعيات خطيرة. ذلك أن هذا النص هو نتاج عشر سنوات من البحث فى نفس الموضوع، ذلك البحث القائم على بناء علاقات تعود لعام ١٩٩٢، وكباحثة، أعتمد على حسن نوايا الأشخاص الذين قبلوا أن أدخل حياتهم، ومؤسساتهم، وبيوتهم معتمدين على أننى، على الأقل، سأمثلهم تمثيلاً دقيقاً. ومع أن الكثيرين منهم قد يختلفون مع آرائى أو تحليلاتى، فإن من حقهم توقع أن أقوم بكل ما فى وسعى لحماية خصوصياتهم وصونها من أى ضرر قد ينتج عن نشر آرائهم ومقولاتهم الخاصة.

إنها لمفارقة جديرة بالملاحظة أن المقال المترجم يتناول كيف أن الأمور ذات الصلة بالنوبة يتم المبالغة فيها أو تشويهها أو إساءة فهمها فى وسائل الإعلام المصرية. وتشويه نصى عبر تلك الترجمة هو نتاج نفس تلك الظاهرة الشائعة: الجهل بما يخص النوبيين، تصويرهم على نحو نمطى، وغياب الدقة فى التحضير المتعجل لتمثيلات النوبيين فى المجال العام. وهذا هو بالضبط ما عانت منه ترجمة نصى المتعجلة، وغير الدقيقة. ■

---

(١) نُشر المقال الأصلى بعنوان: «المكان، والطبقة، والعرق فى مقهى «البرابرة»: الفضاءات المدينية النوبية وهويات الإعلام».

Place, Class and Race in the Barabra Café: Nubian Urban Spaces and Media Identities..

كفصل فى كتاب:

Cairo Cosmopolitan: Politics, Culture, and Urban Space in the New Middle East, eds. Paul Amar and Diane Singerman. Cairo: American University in Cairo Press, 2006.

أما الترجمة فقد نُشرت بعنوان: «ماس-كاجنا... لعلك بخير- أحزان نوبية!!» مجلة «وجهات نظر»، العدد المائة، مايو ٢٠٠٧

(٢) موقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»

http://www.aaanet.org/stmts/irb.htm.

(٣) موقع «الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية»

http://www.aaanet.org/committees/ethics/ethcode.htm.